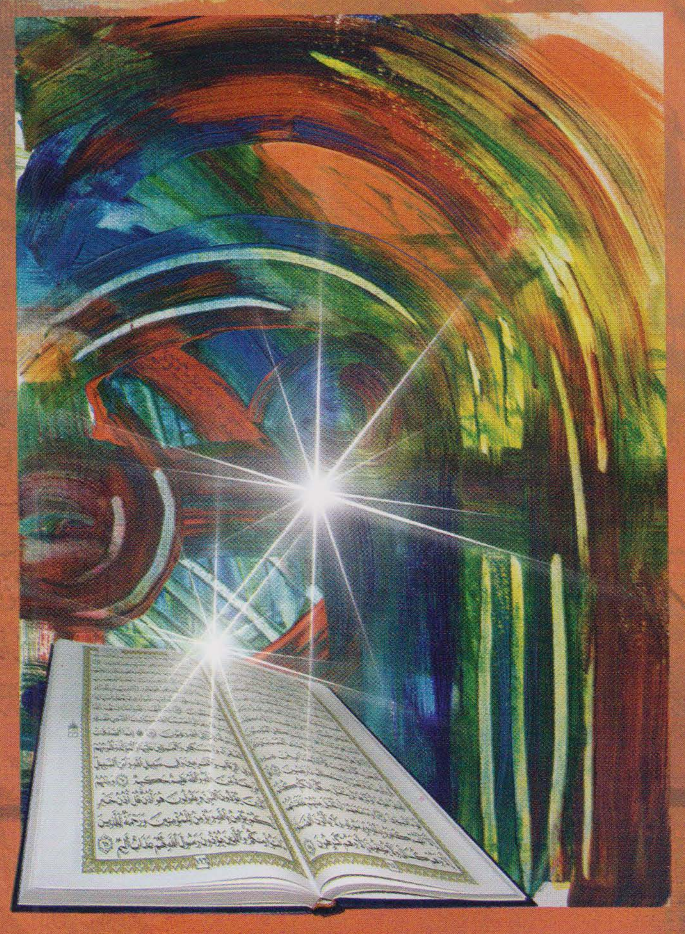
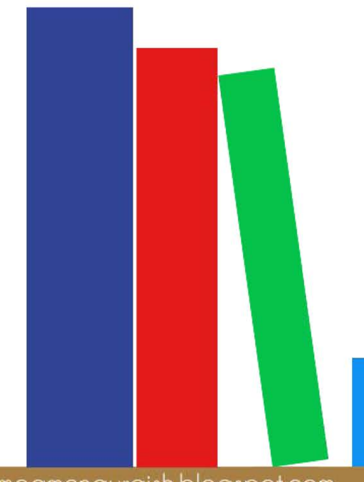
التفكر

تأليف

الشهيد دستغيب



دار المحجة البيضاء



مكتبة
مؤمن قريش

لو وضع ايمان أبي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح ايمانه .

الإمام الصادق (ع)


بسم الله الرحمن الرحيم

«التَّفَكُّر»



تأليف

آية الله السيد عبد الحسين دستغيب

دار المحجة البيضاء

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م



حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - ٠١/٥٤١٢١١

E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

مقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الفكر معيار قيمة الإنسان

تقاس قيمة الإنسان بما يحمله من أفكار في الأمور المعنوية ؛ فهو بواسطة هذا الفكر يتجاوز حدود الحيوانية والصغائر ، ليرقى إلى الدرجات الإنسانية العليا ؛ والترقّي المعنوي لابن آدم إنّما يتحقّق بفضل تفكيره في الأمور الباقية . يقول الشاعر :

معيار شخصك بالتفكّر في الذي يبقى . . فلست سوى عظام وعروق

ولدينا آيات متعددة في القرآن المجيد ، يعبر فيها سبحانه وتعالى أنّ مخلوقاته كافّة إنّما هي أدلّة وآيات حقّ ، لمن يتفكّر فيها ويتدبّرها . يقول سبحانه :

﴿ إنّ في ذلك لآيةً لقوم يتفكّرون ﴾[1] .

كما يمتدح عزّ وجل أولئك الذين يذكرون الله **﴿ . . ويتفكّرون في خلق لسموات والأرض ﴾**[2]

بل هو يذمّ أولئك الذين يعرضون عن التفكّر والتدبّر بقوله :

﴿ أفلا يتدبّرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها ﴾ ؟![3] .

التفكّر في المجرّدات مفيد

ما أكثر ما يختلط الأمر على البعض بين موضوع التفكّر ، ونسج الخيال ؛

---

(١) سورة النحل : الآية ١١ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٩١ .

(٣) سورة محمد : الآية ٢٤ .

فالفكر هو البحث عن العلم واليقين ، وعلى أساس « مبادىء معلومة » ، للوصول إلى المراد المجهول ؛ فما لم ينطلق الفكر من مبدأ صحيح واضح فسيخفف في الوصول إلى النتيجة المتوخاة ، كما سيجرّ صاحبه ـ إلى حدّ ما ـ للوقوع في نسج الخيال .

ومن التفكّر الذي يبعث على سمّو الإنسان ، التفكّر في المجرّدات ؛ وإلاّ ، فأين ما هو خير من عبادة ستين سنة[1] ، وأين ما يدعى بمخّ العبادة[2] ؟ .

والتفكّر هو المسير من الباطل نحو الحق ؛ هو التخلّص من الباطل ، والوصول إلى الحقّ نتيجة لهذا التفكّر ؛ في حين أنّ الخيال يبلغ بصاحبه إلى ظلمات الجهل والأوهام الباطلة ، ويقعد به عن الوصول إلى أي نتيجة .

أوّل التفكّر : التنبّه إلى جهل النفس

أوّل التفكّر والسير في الطريق الصحيح إنّما ينطلق ـ ومنذ البداية ـ بالخروج من الجهل المركّب للنفس ؛ أي : اعتراف الإنسان وإحساسه بجهله لأمور كثيرة ، وأنّ عليه التصدي لها للخروج من هذا الجهل ؛ فيبعث هذا الإحساس لديه تحرّكا يدفعه للتفكّر ، وبعد التأمل في النتائج تظهر له موجباتها ، ويتضح الطريق أمامه .

وبديهيّ أنّ أدلّة وبراهين « الميزان » وعلم المنطق والقواعد التي تتصل بهذا الموضوع ، هي عوامل مساعدة على الارتقاء بالفكر وتصحيحه ، غير أن ما هو أكثر منها أهميّة وبعثاً على الرضى ، إنّما هو رعاية الله عزّ وجلّ وعنايته ، فالطريق ـ في الحقيقة ـ هو الطريق الذي يرسمه الله جلّ وعلا .

الشهيد السعيد والدم الطافح بالبركة

الشهيد السعيد ، السيد عبد الحسين دستغيب ، والذي كان بحقّ يداً من الغيب ، والذي وُفّق إلى الإحاطة بأبعاد الدين الإسلامي كافّة ، ونواحيه

---

(١) إشارة إلى الحديث الشريف : « تفكّر ساعة خير من عبادة ستّين سنة [سبعين سنة] » .

(٢) إشارة إلى الحديث الشريف : « مخ العبارة التفكّر » .

المتعدّدة ، ترك لنا ـ رحمه الله ـ آثاراً منه قيّمة ، توجّـه المجتمع إلى الله عـزّ وجلّ ، والتعرف عليه ، وإدراك صفاته .

وفي الذكرى الثانية لاستشهاد هذا الرجل الكبير ، وُضع هذا الأثر النفيس في الطبع ، ليكون بركـة أخرى من بـركات دمـه الزكيّ ، الـذي سال في سبيـل هذا المجتمع ، المتعطّش إلى المعرفة :

تغمّد الله روحه برحمته وبركاته ، وأعلى في الخلد مقامه .

السيد محمد هاشم دستغيب



الفصل الأول

****

١ ـ التحلي بالتفكُّر والذكر .
٢ ـ عالم الحق من أجل معرفة الحق .
٣ ـ الجذور المتنوعة للتفكُّر .
٤ ـ السابقون . . . أين هم ؟ .
٥ ـ طريقة التفكُّر ومعرفة الله .
٦ ـ التفكُّر في مبدأ خلق البدن .
٧ ـ الموت ، نعمة الله العظمى .
٨ ـ الاختلاف في الخلق بين الرجل والمرأة .
٩ ـ الدنيا الآخـرى ﴿ وإن عليه النشـأة الأخرى ﴾ بـالعقل نحكم بـوجود يوم القيامة .

بسم الله الرحمن الرحيم

التحلّي بالتفكُّر والذكر :

بعد إزالة عوائق المعرفة الإلهية يجب المداومة على أمرين : التفكُّر والذكر . يقول تعالى في سورة آل عمران : ﴿ إنّ في خَلْقِ السّموات ﴾ (والكواكب التي تظلِّلنا مع كل تلك الأسرار والعجائب) ﴿ والأرض ﴾ (التي نحيا عليها مع كل هذه المخلوقات العجيبة) ﴿واختلاف الليل والنهار ﴾ (بنظام لا تخلُّف فيه) ﴿ لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ (وأثناء الراحة . أي أنهم يذكرون الله في كل الحالات) ﴿ ويتفكّرون في خَلْقِ السَّمواتِ وَالأرْضَ ﴾ (ويدركون بواسطة التفكُّر أن عالم الخلق العظيم ، لم يُخلَق عبثاً بل خُلِق لغرض مهم ذلك هو بلوغ الأشياء مقام المعرفة والعبودية،والوصول في النهاية إلى السعادة الأبديّة فيقولون : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾ (أنت منزَّه عن فعل ما كان بلا جدوى) ﴿ « فَقِنَا عَذَابَ النّار » ﴾ (وإهدنا سبيل المعرفة والعبودية وثبّتنا) .

التفكُّر في خلق السموات والأرض :

﴿ أولم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله ﴾ (عالم الخلق الواسع هذا) ﴿ السموات والأرض وما بينهما إلّا بالحق ﴾ (لنتيجة ثابتة لا تزول) ﴿ لأجَل ﴾ (هو في علم الله) ﴿ مسمى ﴾ (وإذا ما حَلّ أَجَل العالم ، إنعدم وفنِيَ ،وعاقبة الأمر إنّ عالم الآخرة هو الذي لا يفنى)﴿ إنّ كثيراً من الناس بِلقاء ربهم ﴾ (في عالم الآخرة وبلوغ الجزاء على الأعمال) ﴿ لكافرون ﴾

التقدُّم الدنيوي والتقهقر المعنوي :

قارئي العزيز تأمَّل جيِّداً في هذه الآية الشريفة . هؤلاء عالمون بأعمالهم في الدنيا ومطلعون عليها ، يعلمون ظاهر الحياة الدنيا ، ويجهلون باطنها وعاقبتها ونتيجة الآخرة[1] . أو ليس أكثر الناس اليوم هم على هذه الشاكلة،علومهم تعود جميعها إلى عالم الدنيا والحياة المادية،ويوجد القليل من الأمور التي لم يحققوا فيها تقدماً مدهشاً ؟

مثلاً في علم الزراعة ، التشجير ، علم النبات ، لقد وصلوا بحق إلى حدِّ الكمال ، في علم الطب والجراحة وسُبُل تشخيص مرض ودواء الجسم البشري ، وتقدموا تقدماً مدهشاً إلى حدّ أنهم يجرون جراحة للقلب أو إنهم يستبدلونه ، وفي الصناعة والإختراعات وتأمين وسائل الحياة في هذا العالم إكتشفوا أموراً لم تكن من قبل لتخطر على بالهم ، فكيف بهم يصدقون بها ، إلى حدِّ أنهم تجاوزوا الأرض ، وسخّروا الفضاء ، وذهبوا مسافة ثلاثمِاية وإثنان وعشرون ألف كيلومتر بعيداً عن كوكب القمر، ولكن للآسف ، فمع كل هذه العلوم التي إكتسبوها عن ظاهر هذا العالم ،

---

(١) يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . (الروم/٧) .

مازالوا يجهلون باطنه ومُحْدِثه ، ولا يصدِّقون بفناء وزوال هذا العالم ، مع أنّ باحثي هذا العصر إكتشفوا وقالوا بأن للأرض أجَلاً وعمراً إذا ما أنتهت إليه بادَت وتلاشت . وقالوا : إنّ منظومتنا الشمسية هي في سِنيّ الشيخوخة ، إنّ فناء كلٍّ فرد هو من أظهر الأمور حيث لا يخلد هنا أحد ولكن هذا الأمر لا يؤثّر بتاتاً في قلوبهم فيفكَروا بالحياة بعد الموت

إذاً هناك عالمٌ آخر يأتي في مابعد :

إنهم لا يفكرون في أنّ خلق هذا العالم الذي تملأ أرجاءه الحكمة هو من أجل غرض مهم ونتيجة ثابتة هي أن هذا العالم الفاني يعقبه عالم خالد يدخله الناس المخلصون الذين تخلّصوا من الحياة المذهلة في هذا العالم ويحصلون على كامل السعادة أي أنْ يبلغوا راحة لا يعقبها كدر، ولَذّة لا تعقبها خيبة ، وسروراً لا يعقبه غمٌّ .

عالم الخلق من أجل معرفة الحق :

الخلاصة إنَّ على الإنسان أن ينظر ويتفكَّر[1] في نظام خلق السماوات وما فيها والأرض وما عليها،حتى يعلم أن خلق كلٍّ جزء صغير مما خلق له غرض وحكمه،إذاً فكل عالم الخلق هو من أجل غرض مهم ، وللعثور على ذلك الغرض المهم يجب أن نفهم ونراجع كلمات الله ورسول الله (ص) وأهل بيته (ع) : إنّ عالم الخلق خُلِقَ من أجل الإنسان وأن الإنسان أيضاً خُلِقَ من أجل معرفة الله والعبودية له ، والمعرفة والعبودية هما بمثابة جناحين للإرتقاء إلى المنزلة الرفيعة والوصول إلى الحياة الإنسانية الطاهرة التي فيها من اللذائذ والمباهج ما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب[2]. فلا يعلم أحدٌ من الصالحين ما أُعِدَّ له من أنعمٍ توجب له

---

(١) قل أنظروا ماذا في السموات والأرض (سورة يونس ، الآية ١٠١) .

(٢) فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعلمون (السجدة/١٣٢) .

ضياء العين ، جزاء ما عمل[1] .

وبعبارة أخرى فإنّ هدف الله من إيجاد الإنسان وخلق العالم الفاني الخالد هو :

أولاً : وبالذات إظهار الصفات الجمالية (أي قدرة الله اللامتناهية وفضله وَجُوده وكرمه) حيث سيظهر كمالها في ما يتعلّق بالمحسنين والمؤمنين من الناس في عالم الآخرة، وما كان منها في الدنيا هو فقط كنموذج عنها .

ثانياً : إن ظهور صفات الحق الجلالية معناه ـ فرضياً ـ عدل الله الحقيقي وغَلَبته القاهرة التي تبدو في ما يتعلق بالأشْرار والكفّار من أفراد البشر (سوف نذكر إيضاحاً أكثر لهذا الموضوع في مكان مناسب) . إنّ الآيات القرآنية التي تأمر بالتفكُّر والتعقُّل والنظر والتدبّر كثيرة جداً نكتفي منها بما ذكرناه .

التفكُّر في الخلق من أفضل العبادات :

يقول أمير المؤمنين (ع) « نبِّه قلبك بالتفكُّر » ويقول الإمام الصادق (ص) : « أفضل العبادة إدمان الفكر في الله وفي قدرته »[2]

---

(١) الشيخ البهائي (عليه الرحمة) يوضح بشكل جيّد دور الإنسان في عالم الوجود والمنزلة التي عليه أن يبلغها ، فيقول شعراً ما مضمونه : أيها الإنسان يا مركز دائرة الإمكان، يا زبدة عالم الكون والمكان ، أنت سيد الجواهر الناسوتية ، أنت شمس المظاهر اللاهوتية . إلى متى تبقى قيود الجسم تقيدك ؟ إلى متى تبقى مشغولاً بجسدك وفتح باب الجنة يحتاج منك إلى كلمة ؟ إن مئات الملائكة تعمل على هدايتك فأخرج من الهاوية التي أنت فيها لتصبح سيّد عالم الوجود وسلطاناً يجلس على سرير مُلك عالم الشهادة . تجاوز المعارف العقلية ولا تغترّ بزخارف عالم الحس ، وأنكر ناراً تنتظرك في عالم الآخرة إذا ما أنت استمريت تلهو وتلعب . فعد لنفسك ولو للحظة وانظر بماذا تعلّق قلبك .

(٢) أصول الكافي/باب التفكّر .

والإمام الرضا (ع) يقول : «ليست العبادة بكثرة الصلوات والصوم ، إنما العبادة التفكّر في أمر الله » .

ورُوِيَ عن الإمام الصادق (ص) أنه : « كان أكثر عبادة أبي ذر رحمه الله التفكّر والإعتبار »[1] . وكان عليه السلام يقول : « تفكّر ساعة خير من عبادة سنة ، إنما يتذكّر أولي الألباب »[2] . ربما يكون هذا الحديث إشارة إلى أنه من الممكن في بعض الأحيان أن لا تبلغ قيمة المعرفة التي يكتسبها الإنسان من عبادة سنة دون تفكُّر، تلك التي يكتسبها من تفكّر ساعة في صنع الله . يقول أمير المؤمنين (ع) « ولو فكّروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق (معرفة الله)، وخافوا عذاب الحريق »[3] . أي إنّهم لأدركوا أنّ ما بعد هذا العالم عالم جزاءٍ وثوابٍ وعقاب ولخافوا من ذلك .

الجذور المتنوّعة للتفكُّر :

ويقول الإمام أمير المؤمنين (ع) أيضاً : « التفكُّر يدعو إلى البرِّ والعمل به »[4] يقول المجلسي (ره) في شرح هذا الحديث : التفكّر المذكور في هذا الحديث المأثور يشتمل على جميع أنواع التفكّر الصحيح .

التفكُّر في عظمة الله الذي يحمل الإنسان على خوف الله وطاعته ،

والتفكُّر في زوال الدنيا ولذّاتها الذي يحمل الإنسان على تركها وتجنُّبها ،

والتفكُّر في عاقبة الناس الطيبين الذين كانوا فيما مضى حيث يحمل

---

(١) بحار الأنوار ، المجلد رقم ١٥ ، ص١٩٥

(٢) بحار الأنوار ، ج ١٥ ، ص ١٩٥ .

(٣) نهج البلاغة

(٤) الكافي .

ذلك الإنسان على إتّباع آثارهم والإقتداء بأعمالهم ،

والتفكُّر في عاقبة المذنبين والمسيئين حيث يوجب ذلك الورع عما كانوا يفعلون ،

وكذلك التفكّر في عيوب النفس وآفاتها الذي يوجب الإهتمام بإصلاحها ،

والتفكّر في أسرار العبادات وأهدافها مما يتسبَّبُ في الإتيان بها على وجه أفضل ،

والتفكّر في الدرجات الأخروية الرفيعة الذي يحمل الإنسان على تحصيلها ،

والتفكُّر في الأحكام والمسائل الشرعية الذي يدعوا الإنسان إلى العمل بها ،

والتفكّر في الأخلاق المَرْضِيَّة الذي يدعو الإنسان إلى تحصيلها التجمُّل بها .

لسابقون . . . أين هم ؟

يقول حسن الصيقل : سالت أبا عبدِ الله (ع) عمّا يرى الناس أنّ نفكّر ساعة خير من قيام ليلة قلت كيف يتفكّر ؟ قال (ع) يَمُرّ بالخربة أو بالدار فيقول : أين ساكنوك ؟ أين بانوك ؟ مالَكِ لا تكلمين ؟ (ليس فيك من مُتكلم فالكل قد رحلوا)[1] . يُفهَمُ مما مضى تفوُّق الفكر ومراتبه وأنواعه . ولأن التفكّر هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله ، فإننا نذكّر هنا وبشكل مختصر بطريقته .

---

(١) الكافي .

طريقة التفكّر ومعرفة الله :

على الإنسان أن يلتفت إلى أن كلّ موجود يراه ، حقيراً كان أم عظيماً ، عليه أن يلتفت إلى كينونته آيةبحدٍّ ذاته[1]،وذلك بأن يفكّر أنّ لكل حادث مُحْدِثْ ، وأنّ كل متحرك يحتاج إلى محرّك . ولأنه يشاهد أنّ لكل موجود حكمة وهدف ومنافع من وجوده ، يدرك حينئذٍ أنّ مالِكَ العالم هو صاحب إرادة وعلم وقدرة لا متناهية ، وهو سيُدْرِكُ هذا إذا ما تفكّر خاصة في تلك الموجودات صاحبة الإرادة والعلم والقدرة كالحيوانات أو ما كان منها أرفع شأناً كالإنسان .

الإنسان الذي هو ذو إرادة وشعور،والذي هو واحدٌ من حوادث عالم الخلق ، هل يَعقل أن يكون مُحدِث هذا الإنسان فاقداً للإرادة والشعور ؟ بينما هذه الإرادة وهذا الشعور هما أيضاً حادثين أحدثهما خالق ، عالم الوجود .

نظرة إلى أجزاء الساعة

مثلاً الساعة التي تشتمل على حلقات وبراغٍ وعزقات كثيرة ، وعلى عقارب وصفحة مرقّمة بحيث أن في كل جزءٍ منها صغيراً كان أم كبيراً خاصية

---

(١) وعن أشهر فلاسفة وكتّاب فرنسا (١٩٩٤م - ١٧٧٨م) الذي يُعد من أعظم العقول البشرية كتب في كتابه (القاموس الفلسفي) يقول إن السبل الطبيعية للوصول إلى معرفة الله وأكثر الطرق ملاءمة لتنمية الإدراكاتِ والمشاعر العامة هي أن لا نحصرُ غاية دراستنا وتدقيقنا في نظام الخلق فقط بل علينا أن نتوجه بأنفسنا وآذهاننا إلى الغايات والحكم التي من أجلها خلق كل موجود من الموجودات .

ويكتب أيضاً : إني عندما أنظرُ إلى الساعة تشير عقاربها إلى الأوقات المختلفة أصل حتماً إلى هذه النتيجة وهي أنه لا بُدَّ أن العقل هو الذي نظم عمل دوائر هذا الجهاز حيث على إثر هذا النظم والترتيب تعلم العقارب أن تحدّدَ الوقت والساعة وكذلك الأمر إذا ما دققت في أعضاء البدن أستنتج أنه لا بد أن هناك عقلاً نظّم هذه الأعضاء والأجزاء والأجهزة وجعلها جاهزة للحياة . (ثقافة القرآن ، ص ٣٥٦) .

معينة تتوقف الساعة عن العمل بدونها،ويضطرب بذلك سير العمل في هذا الجهاز ، هل يمكن لعاقل أن يقول إنّ الساعة قد وجدت بنفسها،وأن دوائرها وسائر أجزائها ، قد تجمّعت فوق بعضها البعض دون تنظيم ؟ إن أمراً كهذا لا يمكن حدوثه أبداً؛بل إنّ كل عاقل إذا ما رأى جهاز الساعة هذه وخصائص أجزائها ، يحصل لديه اليقين بأنّ صانعها شخص حيٌّ ذو إرادة وشعور وقدرة وهو لن يتردد في هذا الحكم أبداً .

هل أجهزة الجسم هي أقل شأناً من الساعة ؟

إنّ جسم الإنسان بكل تلك الأجهزة المحيِّرة التي ينطوي عليها، كجهاز التغذية،والهضم،والتنمية،والتوليد،وتصفية الدمّ (القلب) والكبد والكلية والبصر،والسّمع،والأعجب من كل هذا جهاز المخ ومركز الإدراكات و . . . هل هذه الأجهزة كلها هي أقل شأناً من جهاز ساعة ؟ أوَلاً يجب على الإنسان العاقل أن يتيّقن إذا ما رأى ذلك أنّ صانع هذا الجسم ذو إرادة وشعور وقدرة لا متناهية،بينما نفس تلك الساعة وغيرها من المصنوعات البشرية الأخرى ، هي أيضاً مخلوقة لرب العالمين . . . ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾[1] . ذلك أنّ كل ما تصنعه يد الإنسان وأجزاؤه الأساسية هي ذاتها مخلوقة من قبل الله ، من إراة وإدراك وشعور وقدرة ، فصانعها كلّه مخلوقٌ من قبله تعالى .

النّظر على سبيل العادة لا العبرة !!

نعم الواقع إنّ الإنسان منذ أن تلِده أمه ويُصبح مبصراً،ينظر حوله فيرى موجودات هذا العالم، ولكنه لا يملك في تلك السّن المبكرة، قوة التمييز والتعقل بحيث يتعرف إلى صانعها،ثم إذا ما بلغ بعد ذلك سنّ الرُّشد تكون الموجودات قد فقدت بالنسبة له أية دلالة على عِلمْ وقدرة الله

(١) سورة الصافات : الآية ٩٦ .

اللامتناهيين ذلك أنه تكون قد مضت عليه سنين متطاولة كان ينظر فيها كل يوم إلى الموجودات من حوله دون أن يأخذ منها العبرة .

الدليل على ذلك أنه إذا رأى موجوداً جديداً لم يكن قد رآه من قبل يصيح على الفور : الله أكبر ، ما أعجب ما خَلَق !! بينما خِلقة نفسه أكثر عجباً مما رأى .

على كلّ حال،إن المطلوب من الإنسان إذا ما بلغ سِنّ الرشد،أن يتنبّه إلى كينونة أن كل موجودٍ يراه هو آية،وأن يعتبره دليلاً على قدرة وعلم الله .

﴿ وكأيّن من آية ﴾ (قدرة وحكمة وتوحيد الله) ﴿ في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ﴾[1] ويصرفون عنها أنظارهم حتى لا يتعرّفوا بواسطتها إلى الله . يجب التحقيق بدقة في كتاب الخلق حتى تُعْلَم عظمة ووحدانية خالقة .

عند من كانت روحه في تجلٍ
العالم كله كتاب الحق تعالى

التفكّر في مبدأ خلق الجسم :

كانت قطرة ماءٍ نتنة،تصرّفت فيها يد القدرة فخلقت منها أذناً وعيناً[2]ورأساً ويداً ورجلاً ولساناً ، وعروقاً وأعصاباً وعظاماً ، لحماً وجلداً وغير ذلك . إن على الإنسان أن يدقق في حاله الحاضرة . إنه عاجز حتى عن خلق شَعْرَة . الآن هو قادر لكنه في تلك الأثناء عندما كان نطفة كان أعجز مما هو عليه الآن . إذاً هذه الأعاجيب غيره أحدثها فيه وهو الله تبارك وتعالى ، فَلْيُدْرِك حينئذٍ حكمة الله من كيفية خلق أعضائه .

---

(١) سورة يوسف : الآية ١٠٥ .

(٢) ﴿ إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ (الدهر/٢) .

فليستدل إلى إحاطة الله بإحاطة النفس

كـذلك فليستـدل من إحاطـة الروح بـالبدن ، وإطّـلاعها عـلى جميع الحالات التي تعرض عليـه ، على إحـاطة الله علماً بكـل العوالم ، وليستيقن أن الله يعلم علماً كاملاً بـالحوادث كلهـا . وكما أن الـروح لا يمكن إدراكها بواسطة الحـواس الظاهـرة لأنها ليست مجسّمة إلاّ أنـه بالإمكـان الإحساس بآثارها في البدن ، وآثارها الوجوديـة تُعرَف من انعـدامها ، أي أنـه بمجرد إنفصالها عن البدن تزول خصائصه ويتحـول بعد مُضي أيـام معدودات إلى جيفة نتنة .

كذلك الأمر بالنسبة إلى الله تعالى، فلا يمكن إدراكه بـواسطة الحـواس الظاهرة، إنما يمكن رؤية وإحساس آثار قـدرته وعجـائب حكمته متجليـة في جسم عالم الوجود .

قضاء وضروريات بدن الإنسان :

عندما ننظر إلى إحتياجاتنا ، نلاحظ أننا محتاجون من كـل الجهات . أولاً نحن بحاجة إلى أعضاء البدن، ثم بعـد ذلك نحن بحـاجة إلى الـطعام واللبـاس والمسكن . ثم إذا ما دقّقنـا أكثر نـرى أنه من أجـل الطعـام نحن بحـاجـة إلى الـريـاح والمـطر ، إلى الأرض والشمس، إلى الـبرودة والحـرارة والبذور وغير ذلك .

إننا في صناعة الألبسة نحتاج إلى عدة أمور، بحيث تركب المواد الطبيعية بالشكل المطلوب ، ومن البديهي أيضاً أننا بحـاجة إلى أمـور عديـدة أخرى وإلى معادن من قبيل الحديد والنحاس والخشب وغير ذلك . إضافة إلى كل هـذا يجب أن تلحظوا بـدقة العلة الفـاعلة أيضاً . إن هـذه الأسباب كلهـا والآلات والأدوات إذا لم يكن لـديها الصـانع والمنـظم والمستعمـل لهـا عـلى الوجه الصحيح ، فإنه لا يَصدر عنها الأثر المطلوب أي إنه مثلاً إذا لم يُقْدِم

المزارع على الزراعة ، فإنه لا يترتب على هذه الأسباب كلها أي أثر،لذا فإن الهداية والمعرفة لازمتـان أيضاً في العلة الفـاعلة وقد زرعهـما الله تعالى في أعـماق الإنسان . إن التأمل المختصر في ما تقدّم عرضُه يوضـح بشكل جيّـد كيف أنّ الله تعالى قد قضى حاجة الإنسان المادية بهذه الأسبـابْ وكيف أنه يُـري جميع خلقه ، لطفه ، ورعايته على أفضل وجه .

لم يُهمل إحتياجات الروح أيضاً :

وكما أنّ الله تعالى لم يُهمل الجسم ، بل هيـأ له كـل ما يحفـظه ويُبقي عليه ، كذلك الأمر بالنسبة إلى الروح التي هي بمثابة القائـد وسلطان مملكة الجسـد ، فهو لم يهملهـا بل هيّـأ لهـا كـل أسبـاب الحصـول عـلى السعـادة الأبدية .

في بـاطن الإنسان خلق العقـل الـذي يُعتـبر نبي الـداخـل بـالنسبـة للإنسان،عمله إيقاظ الإنسان من سكرة الهوى والهوس، وتذكيره بالوقوف بين يدي الله (يوم القيامة والوقـوف أمام الله بهـدف استجوابـه عن أعمالـه وأفعاله وأقواله) وحمله عـلى التزود للسفـر والإستعداد لهكـذا سفر مُـريع ، حتى يقدر على تحصيل المعرفة والأعمال اللائقة أكثر فأكثر .

حيث أن كل شيء في محله حسن :

إذاً في مـا يتعلّق بنـظام العـالم لـو أن العقـلاء كلّهم أعملوا عقـولهم مجتمعـين ليقولـوا : مثلاً إن بُنْيَـةَ الجسم البشري لو كـانت على نحـو آخـر لكانت أفضل . إنـه من المحال أن تكـون له بُنيـة غير هـذه التي له الآن أو أجزاء غير هذه الأجزاء فإن كلّ شيء قد جعل محله . جسم العالم الكبير هو أيضاً بتمامه كذلك .

يقول الشاعـر ما مضمـونه : إن العـالم من حيث الإتساق بـين جميع

أجزائه يشبه العين والخط والخال والحاجب ، فكل شيء في محله حسن وجميل .

إنّ كلّ شيء تراه هو في محلّه وذو هدف . نظام العالم من فوقنا . . . مليارات الكواكب العظيمة هي في حالة دوران وحركة . في هذا الفضاء اللامتناهي لا يصطدم حتى إثنان ببعضهما البعض . لو أن إثنان منها إصطدما ببعضهما البعض ، وبهذه السرعة التي لكرتنا الأرضية حيث حركتها الدورانية والإنتقالية هى بسرعة أربعة فراسخ في الدقيقة الواحدة ، وحركتها الوضعية بسرعة أربعة فراسخ في الثانية الواحدة ، فلو أنها إصطدمت وهي في طريقها وبهذه السرعة بواحدةٍ من هذه الكواكب فماذا سيحدث ؟

لنتحدث أكثر من ذلك في ما يتعلق بالنظام .

الغلاف الجوّي المحيط بالأرض ، حارس الحياة :

من بين الإكتشافات الحديثة : إنه في كل يومٍ وليلة ينفصل ما يقرب من عشرين مليون شهاباً من الكواكب الأخرى وتتجه مباشرة نحو كوكب الأرض بسرعة تعادل مئة الف كيلو متر في الساعة لكلٍ منها أي أنه في الساعة الواحدة يقطع مسافة مئة ألف كيلو متر . هذا الشهاب إذا إصطدم بكوكب الأرض بهذه السرعة ماذا سيحل بالأرض ؟ إن أي قنبلة ذريه ليست لها هذه القدرة التي لمثل هذه الشهب . إن قدرته تعادل قدرة عدة قنابل ذرية . فلو تعرضت الأرض لمثل هذه الشهب على مدى ساعة واحدة فقط، هل يبقى حينئذٍ أثر لبيت ؟ وهل يسلم من شرّها آنذاك إنسان أو حيوان ؟ كل ما على الأرض يُدَمّر ؛ بل إن كوكب الأرض يتلاشى من الأساس يا له من نظامٍ !

إن إله هذا العالم هو المنظم والمسيّر والمدبّر لهذا الفضاء ، وهو الذي

أحاط كوكب الأرض بغلافٍ جوّي يبلغ قطره مضافاً إلى سماكته مئة كيلو متر ، فهو ذو تأثير مذهل على الحياة فوق هذا الكوكب . إنّ واحداً من تأثيرات هذا الغلاف تلطيفه لحرارة الشمس ، فهي تتجمّع في هذا الجزء من الجوّ ولا تتجه مباشرة نحو الأرض لأنها لو توجّهت مباشرة نحو الأرض ولم تتجمّع في الجوّ لما أمكن تخفيفها . هل تعلم ماذا كان حَلّ بالأرض ؟ . . . كانت ستغلي البحار برُمّتها،ولكانت إرتفعت حرارة الأرض إلى ما فوق المئة درجة ، ولَغَلى حتى الدّم داخل جسمك والحليب في أثداء الأمهات،ثم إنه لو بَلَغت هذه الحرارة كوكب الأرض،لما وُجد فوقها قطرة ماء واحدة،بل لكان تبخّر جميعه وإفْتُقد .

ثم إنه لو إفتقد ذلك الجزء من الكون،وكانت الحرارة تبلغ مباشرة كوكب الأرض؛لكانت هبطت درجة الحرارة أثناء الليل إلى مئة وستين تحت الصفر،ولكانت إبتُليت الأرض بتجمد يُحيل كلّ ما عليها إلى جليد . في النهار حرارة كتلك،وفي الليل برودة كهذه . في هذه الحالة هل يبقى للحياة أثر على وجه الأرض ؟

لذا فإن هذا الجزء من الكون مهمّته أن يختزن في داخله حرارة الشمس ويعمل على تلطيفها وإيصالها إلى الأرض على مدى أربعٍ وعشرين ساعة حتى لا تحدُث تلك الحرارة في النهار ، وفي نفس الوقت تتم الإفادة من الحرارة التي تم تخزينها داخل الغلاف الجوِّي أثناء النهار،وذلك حتى لا تحدث تلك البرودة .

مضافاً إلى ذلك فإن الحرارة المرتفعة تلك التي تمّ تخزينها داخل الغلاف الجوي للأرض،تعمل على تحليل وإذابة الشهب المتوجهة نحو الأرض .

إن هدفي من كل هذا هو تبيان النظام القائم في الكون . أما الآن فلنترك

الإنسان متحيراً بأي جزءٍ منه يتفكّر . إذاً فكل أفعال الله تصدر عن حكمة .

إذا أدركت هذا القدْر من النظام أفلا تستيقن أن أفعال الله كلها قائمة على النظام وعلى الحكمة . إذاً فإذا كانت أفعال الله كلها قائمة على الحكمة فلا يجب حينئذٍ الظن بالله فتقول مثلاً على سبيل الإعتراض : واحدٌ تعطيه العديد من النعم وآخر تعطيه قرص شعير معجون بالدم . أو تقول :

إن الله ـ روحي لحكمته الفداء ـ يرمي بالزعفران أمام الحمار أي أنه ـ والعياذ بالله ـ لا يدري ما يفعل فَلْيأتِ وليسألني أنا، فيا ربي إن كنت تريد أن تعطي المال فأعطه لي أنا ولا تعطي فلان . إن هذه الإعتراضات كلّها هي سوء ظن به تعالى بمعنى أن أفعاله تعالى لا تتصف بالحكمة . إذا مات له عزيز يسوء ظنه بنظام الخلقة بل ويصرح علناً في بعض الأحيان بأنه لو كان السيد عزرائيل يرى بالعين وكان بالإمكان الوصول إليه فأنهم لن يتركونه يخرج سالماً من البيت الذي يدخله لقبض الروح بل كانوا سيقطعونه إرباً .

إن عزرائيل في إعتقاد اليهود أعور .

من خرافات اليهود قصة قبض روح موسى بن عمران . فهم يدعون أنه عندما أتى عزرائيل ليقبض روح سيدنا موسى بن عمران (ع) ، ضربه موسى كفّاً قوية على أذنه مما أدّى إلى أن تفقد إحدى عينيه بصرها ولهذا فهم يعتقدون بأن عزرائيل أعور ولا بدّ أنهم يتمنون أن تفقد عينه الأخرى بصرها حتى ينجو الجميع . إنّ هذا كله منشأه الجهل فَالمَلَكُ ليس ذو جسم كالإنسان . إن الكف والضرب هما من شأن البدن المكوّن من اللحم بينما الملك ليس بذي لحم وجلد . الملك من جنس النور وهو ليس بمادّة أو جسم يمكن ليد الأنسان أن تصل إليهما . الجسم الترابي هو ميزة لحم وجِلد

الجسد الحيواني . إن قصدي هو تبيان قضية الإعتراض والحَنَقْ على نظام الخلقة .

الموت ، نعمة الله العظمى :

مثلاً الموت ، إنه بحق من النعم الإلهية العظمى التي لها حِكَمُ عديدة بينها الإنسان لا يستحسنه عادةً . الموت هذا إذا ما رُفع مثلاً لمدة مئة سنة سوف يَرَوْن بأي حال يصبح الإنسان . ماذا يفعل الرجال والنساء الكبار في السن الذين فقدوا القدرة على العمل ؟ إن أبناءهم لا يكادون ينتهون من تأمين الطعام واللباس والنظافة والسكن لهم . وَلِأُكُنْ أكثر صراحة فهم لا يكادون يقومون بواجبهم إتجاههم لناحية وتنظيفهم من أوساخهم فمتى حينئذٍ يهتمون بكسبهم وأعمالهم وفي أيّ وقتٍ يخلدون للراحة إضافةً إلى أنهم أنفسهم سوف يُبتلَوْن بنفس وضع أولئك ثم لا يستمر ذلك طويلاً حتى يصبح أكثر أفراد سُكّان الأرض من الأشخاص فاقدي القدرة على العمل والمقعدين والهرمين فيختلّ بذلك وضع الحياة على وجه الأرض عندئذٍ يتمنى الجميع من شاب وشيخ أن يا رب إفعل ما تراه مناسباً ، فالموت مع أننا لم نكن لنستحسنه إلاّ أنه حسن بالفعل وسعادتنا هي في الموت .

الإختلاف في الخلق بين الرجل والمرأة :

إنّ الرجل والمرأة مختلفان من جميع الجهات فبصرف النظر عن الأعضاء التناسلية التي للجنسين فإن الإنسان إذا ما تفكّر في تنظيم هذا الجهاز سوف يصاب بالدهشة .

يقول الإمام الصادق (ع) للمفضل بن عمر في مجلس جمعهما وكان الحديث فيه يدور حول عجائب الخلقة (مختصر مضمون الراوية) تفكّر جيداً في العضو التناسلي الذي للرجل فهو ليس دائم الإنتصاب ولو كان عظماً لكان دائم الإنتصاب ولو كان كذلك فكيف كانت النطفة ستصل

إلى رحم المرأة ؟ لقد جعل سبحانه عضو الرجل على نحوٍ ينتصب في الوقت المناسب ، فلماذا هذا ؟ حتى تعلم ما الغرض من هذا العضو فليس الغرض منه قضاء الشهوة . إنما اللذة هي من أجل أن تحصل لديك الرغبة في إنجاب الأطفال فتذهب وتكدح ثم تتزوج بعد ذلك ويبقى بذلك نسل الإنسان . إذاً الهدف هو بقاء النوع .

لهذا قال : المرأة العاقر كالبساط الرّث في المنزل . وقال أيضاً أفضل النساء . المرأة الولود . إذا فالتلذّذ ليس مطلوباً لذاته بل هو لإيجاد النسل . إنّ الإنسان يدرك أن ليس الهدف من ذلك إشباع الجانب الحيواني فيه . إن الله تعالى قد زرع في الإنسان قوة التفكّر حتى يتفكر بواسطتها ويدرك هذا الأمر . ومن الإختلافات الأخرى بين المرأة والرّجل هو أن الله تعالى قد منح جسم المرأة رطوبة أكثر وذلك لأن خَلْقَ المرأة هو من أجل المحافظة على بقاء النوع البشري ولأنه على عاتقها القيام بعمل شاقٍ جداً وفي نفس الوقت مهم . العمل هو على عاتق الرجل ، أما المرأة فَحَمْلُها وتربيتها للأطفال وتدبيرها لأمور المنزل هي أعمال تشغل جانباً رئيساً من حياة الإنسان . إنّ على الرجال أن يعظّموا هذه النعمة ، عليهم أن يلتفتوا إلى أن نساءهم هنّ أسباب سريان رحمة الله تعالى . إن المرأة هي ذات قدرٍ سامٍ عند الله تعالى فهي عند ما تضع حملها تكون كيوم ولدتها أمها وهي تتحمّل هذا العبء الثقيل . أما اللّذة فقد جعلها الله رجاء إنجاب الأطفال فيكدح لذلك وأجره أيضاً محفوظ عند الله . إن على الرجال مساعدة النساء في أعمالهن .

كان رسول الله (ص) يكنِس المنزل وكان في بعض الأحيان يَحْلِبُ الشّاة بنفسه وأمير المؤمنين علي (ع) أيضاً كان كذلك . بشكل عام ، الهدف من خلق المرأة هو الحَمل والجنين في بطن أمّه مالم يصل حدّ الرُّشد لا يمكن أن يخرج إلى هذا العالم ، يجب أن يبقى في بطن أمه حتى يكتمل خلقه ثم عندئذٍ يولد ولو أتى قبل أوانه لما أمكنه أن يتنشّق نسيم هذا العالم

لا بد أن يبقى في بطن أمه تسعة أشهر ينمو خلالها تدريجياً ويكبر . في هذه البطن التي فيها الأمعاء والقلب والكبد وغير ذلك يريد هذا الجنين أن ينمو . لو كان جسم المرأة كجسم الرجل لكان قضى على أجهزتها الداخلية لهذا فقد جعل الله تعالى عضلات جسم المرأة على نحو تكون فيه قابلة للتّمدد وجعل الرطوبة فيه أضعاف ما هي عليه في جسم الرجل حتى مهما كبر الجنين في بطنها تبقى لديها القدرة على التحمُّل. هناك بعض الأمور التي لا يمكن الحديث عنها، تصوّروا طريقة الوضع عند المرأة، أيُّ قدرةٍ هذه وأي حكمة ، « العظمةلله » ، كل ذلك مرجعه إلى قدرة وعظمة الحق جَلّ وعلا ، فقد جعل أعضاء المرأة التناسلية على نحو تتمدد فيه أثناء خروج الوليد ثم بعد ذلك تنقبض . آهٍ من العمى والصّمَمْ ، هذا العدد الهائل من آيات الله أمام أعيننا ومع ذلك لا نرى ، إن هذا لَمُخْجِلُ حقّاً فمتى نصبح بشراً ؟ ما دامت قلوبنا لا تستشعر عظمة الله فلسنا إلّا كحيوانات تمشي على إثنتين . إنّ الإنسان لا يكون إنساناً إلّا عندما يستدل مما هو مادي إلى ما هو روحاني ويلتفت إلى العلاقة التي تربط هذا العالم بالعوالم الأخرى . حسناً . . . لقد إتضح معنى ﴿ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ولم يعد الأمر بحاجة إلى تأكيد أكثر، ومن الواضح أيضاً أن الإنسان العاقل يدرك هذا المعنى على الفور إلّا أن يكون قد مات قلبه ، ففي هذه الحالة ماذا بالإمكان إفهام الميّت ؟ إذا كانت الرائحة النتنة لعالم الطبيعة والمادة قد عطّلت حاسةَ الشّم عنده أو كانت قد أعمت بصيرته فكيف يمكن التصرُّف معه ؟ إنّ الأعمى مهما بلغت قوة نور الشمس فلن يراها وإلّا فإن هذا يكفي للإذعان والإعتراف بعظمة الله . . الله الذي يستحق الحمد والثناء . . الله الذي هو دون غيره ، العالم والعالم والقادر المطلق .

وزن مخ المرأة والرجل :

من الأمور الأخرى التي هي محل إختلاف بين الرجل والمرأة والتي

تـدعو إلى الـدهشـة وقـد إكتشفهـا الـطب الحـديث أثنـاء قيـامـه بتشريـح الجسـدين ، هي أجزاء المخ الذي هـو مركـز جميع الإدراكـات البشريـة ، تتـألّف أجزاء المـخ من عدة مـلايين من الـذرّات . لقد وزنـوا مخ الـرجل والمرأة فوجدوا أن مخ الـرجل أثقـل من مخ المـرأة بمقدارٍ مُعْتَنىً بـه السّر في ذلك واضح وهـو أن إدراكات الـرجل أكـثر منها عنـد المرأة وهـو يحتاج إلى التفكير وإعمال العقل أكثر من المـرأة وذلك للقيـام بواجبـه في إدارة الشؤون المعاشية والإجتماعية . ولأن عقل الرجل أكبر منه عند المرأة لذا فإن تكليفه أيضاً أكبر واللّوم الإلهي له أكثر منه بالنسبة للمرأة ، إن المرأة هي في أكثر الأحيان موضع رحمـة الله تعالى هـذا إذا لم تتساهـل في طاعتهـا لزوجهـا ولم ترتكب محرّماً ولم يَفُتها واجب . المسكين هو الرجـل في ما يتعلق بشـدة التكليف . الرجل الذي هو في مقام العلم والمعرفة أرفع من المرأة ، عليه أن يجهد كي يخلص نفسـه ويخلص زوجته التي لم يفـرض عليهـا علمـاً ومعـرفـة وعبـادة كـالذي فـرض على الـرجل بـل جعل الـرجل قيمـاً على المـرأة ﴿ **الرجـال قوّامون عـلى النساء** ﴾ فـإذا ما صـدر عن المرأة ذنب فـالرجـل هو المسؤول عنه[1] .

إذا خرجت المرأة سافرة من البيت، ثم ألقى عليها، من هو ليس بِمَحْرَمٍ عليها نظرة يشتهيها فيها ، فالذنب في هذه الحالة يقع على عاتق الرجل لأنه رضي بهذا العمل . إن عـلى الرجـل أن يتعاهـد زوجته حتى لا تصبـح من أهل العذاب . إذا كان يعلم أن خروج زوجتـه من البيت يوجب إرتكـابها لمعصيـة ، فعليـه أن لا يـدعهـا تـرتكب ذنبـاً . إن رعـايـا أيّ رجـل كـان هم في الدرجة الأولى : زوجته وأبناؤه ثم بعد ذلك خادمه[2] فهل هناك من قام بواجبه في هذا المضمار . ربما تتعلق هذه الزوجة وهؤلاء الأبناء بأذيالـك يوم القيامة أن لماذا لم تتعاهدنا في الدنيا؟ أين ذهبت الغيرة حتى رضي الرجال

---

(١) دون أن ينقص من عذاب المرأة شيء .

(٢) ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة** ﴾ (الأنعام/٦) .

وأضاعوا بناتهم الطاهرات وألقوا بهن في معرض الفساد بأنواعه وعندما يواجهون بإعتراض أصحاب الغيرة يقولون : يجب أن تجد خبزها ، يجب ـ عندما تكبر ـ أن تصطاد سمكة يبلغ ثمنها المئات من الدراهم . لأنه يطمح بسمكة يبلغ ثمنها عدة مئات من الدراهم ، يُسلم عفتها وبراءتها لرياح الفناء فهل هذا بِأبْ ؟ هل هذا بقَيّم ؟ هل هذا برجل ؟ كلا ، بل هو مجرم .

قال أمير المؤمنين (ع) وهو فوق المنبر يخطب : « يا أشباه الرجال ولا رجال » أنتم لستم برجال أنتم لكم شكل الرجال فقط وإلّا فعلى الرجل أن يُبْرز رجولته . إنّ الطمع بالمال هو طمع الناس البسطاء فمن أين لنا أن تصبح هذه المرأة ذو منصب فيها بعد ، ولو فرضنا أنها أصبحت ، فأي نفعٍ يعود لك ، أو لها من هذا المال .

نمو الشعر على ذقن الرجل :

من موارد الإختلاف الأخرى بين الرجل والمرأة والتي هي من الآيات الإلهية العظيمة والمدهشة ، قضية نمو الشعر على ذقن الرجل وعدم نموه على ذقن المرأة . يحدث ذلك عند الرجل بعد بلوغه سن التكليف وفقط في القسم السفلي للوجه وعلى الخدين . وما فوقهما إضافة إلى الجبهة يبقى دون شعر . والأعجب من ذلك العلاقة الموجودة بين نمو الشعر والجهاز التناسلي بحيث إذا خصي أحدهم لم ينبت الشعر على ذقنه . إن هذا لمدهش حقاً وهذا ما يجعل الرجل مميزاً عن المرأة في الظاهر لأنه قد يحدث في بعض الأحيان أن تدّعي إمرأةٌ ما بالرجولة، أو رجل ما بالأنوثة . . قد يستغل ذلك للخداع فيدخل الرجل مثلاً حمام النساء . لا تقولوا : إن المرأة تتزين فتلبس الـ «تشادور» ـ العباءة النسائية[1] ـ وتقلّد العقود في أعناقها والحُليّ

---

(١) إضافة من المترجم .

في أيديها وبإمكان الرجل ان يفعل هذا . إنّ إختلاف الظاهر بين الرجل والمرأة ليس بهذه الأمور . إذاً فالهدف من نمو الشعر على الذقن .

أولاً : الإختلاف بين الرجل والمرأة . ثانياً : لِيُعْلم أن المرأة غير الرجل فخلق المرأة هو لإستيناس الرجل[1] لهذا فهي كلّما كانت أجمل كلما كانت أفضل فالمرأة يجب أن تكون جذابة ولو كان لها في وجهها شعر لفقدت جمالها وجاذبيتها ولو لم يكن للرجال شعر في وجوههم لتصوّروا أنهم هم أيضاً كذلك .

قال الرسول (ص) : « يأتي زمان يكتفي فيه الرجال بالرجال والنساء بالنساء » كقوم لوط وقد مُهّدت الأرضية لذلك فعندما ما يحلق الرجل لحيته ويتزيّن ، يتصور نفسه أنه هو الآخر بإمكانه أن يقوم بما تقوم به النساء حينئذٍ يحدث ـ لا قدّر الله ما كان يقوم به قوم لوط .

﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى ﴾ الجانب الثاني للقضية هو مبدأ تكوين الإنسان سواء المرأة والرجل ، فقد أتى الله تعالى على ذكر هذا الموضوع في القرآن الكريم في أكثر من سبعين موضعاً حتى يدركوا أهميته ويزدادوا بصيرةً وعلماً وكلما إزداد تعمق الإنسان في علم التشريح كلّما أدرك عظمة الخالق أكثر فأكثر[2] فمع أن علم التشريح هو علم واسع جداً وقد مضى على نشوئه ما يزيد على الألف عام والإنسان ما زال يبحث في هذا العلم وقد أُلّفت فيه المؤلفات الكثيرة ولكنهم مع ذلك يعترفون بأنهم لم يبلغوا النهاية حتى الآن فربما يأتي فيما بعد أفراد آخرين يقومون باكتشافاتٍ جديدة .

---

(١) ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (ال عمران/٢٠) .

(٢) هذا القول منسوب الى إبن سينا الحكيم والطبيب المشهور : من لم يعرف الهيئة والتشريح فهو عنيق في معرفة الله

تغذية الجسم تشبه تغذية الشجرة :

للمجلسي عليه الرحمة إيضاحات في المجلّد الرابع عشر وما يمكن ذكره هو أنه أولاً : فلنعلم من أي شيء تتكون النطفة ؟ بعد أن يتم إنتاج المادة الغذائية في الجسم ، يصل الغذاء بواسطة العروق المتحركة إلى كل جزءٍ من أجزاء البدن . . . إلى العظام واللحم والجلد والعروق والشرايين . . إلى كلّ ذرةٍ من ذرات الجسم ، من أمِّ الرَّأس وحتى أخمص القدمين لا يبقى عضو من الأعضاء إلّا ويجب أن تصله المادة الغذائية تماماً كما إذا أُهْرِق دَلو ماءٍ بالقرب من الأعضاء إلّا ويجب أن تصله هذه الشجرة بعد أن تمتص هذا الماء تقوده إلى أعلى وحينئذٍ لا تبقى ورقة في شجرة عليها فرضاً مئة ألف ورقة، إلّا ويصلها الماء ولا يمكن أن يصل إلى الورقة الأقرب كمية من الماء أكثر مما يصل إلى الورقة الأبعد . كذلك جميع المخلوقات فهم من ناحية الرزق على السواء ، لا فرق بينهم فيعطي هذا غذاءه ولا يعطي ذاك ، يصل الماء إلى عضوٍ ولا يصل آخر . ما إن يُراق الماء بالقرب من جذع الشجرة حتى تمتصه قوتها الماصّة وتوصله إلى كل الأوراق والأغصان بل وحتى الثمار والثمرة مع أن قشراً سميكاً يحيط بها ، مع ذلك ، فهي توصل الماء إلى وسطها ليستفيد من هذا الماء لُبُّ الثمرة ونواتها . كل ورقة تتألف من مئات بل ألوف الأجزاء . . لا يبقى جزء واحدٌ منها إلّا ويصله الماء[1] . جسمي أنا وجسمك أنت أيضاً هما كذلك فالغذاء الذي نأكله يمر ـ في إصطلاح الطب القديم ـ في أربعة مراحل حتى يتم هضمه وذكر هذه المراحل الأربع خارج عن بحثنا . المرحلة الرابعة هي جريانه في العروق ، لا يبلغ عضواً إلّا ويترك له من المادة الغذائية بمقدار كفايته ثم يتجاوزه إلى غيره وما إن يأخذ كل عضو حاجته المحدّدة من المادة الغذائية حتى

---

(١) الشبه التام والوحدة الموجودة بين هذه الأمور تدل على وحدة الخالق وهذا أما يستدل عليه في علم الكلام حيث أنه يستدل من وحدة الفعل على وحدة الفاعل .

بحيلها إلى جزءٍ منه مع أنها ليست إلاّ مادة غذائية ليس أكثر . ولكنها ما إن تبلغ العظم حتى تتحول إلى عظم ، وما إن تبلغ اللحم حتى تتحول إلى لحم ، وما إن تبلغ العصب حتى تتحول إلى عصب . هكذا ما إن تصل إلى عضو حتى تصطبغ بصبغة ذلك العضو . إذا ما بلغت بشرة أبيض البشرة صارت بيضاء وكذلك الأمر إذا ما بلغت أحمر البشرة صارت حمراء وإذا ما بلغت أسودها صارت سوداء[1] فأين هو يا تُرى جهاز الصباغة في بدني وبدنك ؟

في بعض الأحيان يتم سلب النّعمة من وقت لآخر عن أصحابها وذلك حتى يتضح لهم قدرها ، لقد شاهدتم أولئك الذين يبتلون بمرض البرص . سَلْب النّعمة هذا حتى نشكر ونتذكر أنا وأنت . حتى نعرف قدر النعمة فلا نكفر بها .

الغذاء هو المادة التي تتكون منها النطفة : .

بعد أن تصل المادة الغذائية إلى كل عضو بذاته يتوزّع ما يزيد عن حاجة ذلك العضو إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول وهو الدّهن الذي نزيله عن أبداننا أثناء إستحمامنا ، والثاني وهو الفضلات والشّعر والأظافر . والثالث وهو الرطوبة الإضافية التي تبقى في الجسم من أم الرأس حتى أخمص القدمين ، ولا تتحلّل وهي تبقى في أعضاء الجسم كلّها في حالة تشبه ذرّات النّدى إلى أن يأتي الوقت الذي يحين فيه موعد التناسل فتتجمع هذه الذرّات عندما ترتفع حرارة الجسم بتأثير من هيجان الشهوة في القسم الخلفي للرأس ومن هناك تأتي إلى منطقة الخصر[2] ومنها إلى الأوعية التناسلية ثم تخرج في النهاية من مخرج البول .

---

(١) ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغه ﴾ (البقرة / ١٣٢) .

(٢) ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ (الطارق / ٨) .

هذا هو أساس تكون النطفة ولهذا فقد نُسِبَ إلى سقراط أنه قال : إنّ الطفل عندما يولد يكون قد أخذ من كلّ ذرة من ذرّات جسم الآب ، لذا فهو يُشبه الأب[1] . بل قالوا : إن الذرّة التي تخرج من عينه هي نفسها عين الطفل والذرّة التي تخرج من أذنه تتحوّل إلى مادة لتكون أذن الطفل وهَلُمّ جرّا[2] ولهذا ففي الشرع المقدس غسل الجنابة واجب لكل أعضاء الجسم ذلك لأن ذرّات المني قد خرجت من البدن كلّه وبهذه المناسبة لي هنا كلمة : فالعجب كل العجب من أولئك الذين يستهجنون مسألة المعاد أي أنه بعد أن يموت الإنسان ويصبح جسده تراباً تتوزع ذراته في كل نحوٍ وصوب فكيف تتجمع مرة أخرى ؟ ليس في ذلك مايثير الإستهجان ﴿ ولقد

---

(١) طبقاً للآيات القرآنية والأحاديث وكذلك إستناداً إلى الوجدان الفردي لكل شخص فإن الولد لا يختلف كثيراً عن أبيه وأمه . ومن الآيات القرآنية التي تؤكد هذا الأمر الآية ١٤ من السورة ٤٣ (وجعلوا لله من عباده جزءاً) أي أن المشركين جعلوا لله من عباده جزءاً أي أنهم قالوا بأن عيسى أو عزيزاً أو الملائكة هم أبناء الله . إذاً يستنتج من ذلك أن الولد هو قطعة من والديه (طبعاً ليس المقصود من القطعة هنا ، القطعة بالمعنى الإصطلاحي للكلمة) وكمثال على ذلك من الأحاديث نذكر هنا الرواية المنسوبة إلى النبي (ص) والتي تقول : أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض . ولشدة أهمية هذا الأمر لزوميته فقد إشتهر أنّ « الولد سرُّ أبيه » ومن هنا تُعلم جلالة قدر السادات وعظمة شأنهم فهُم فيهم جزءٌ من بدن رسول الله (ص) .

(٢) بل والأهم من ذلك كله ـ وذلك ما هو ظاهر بالفعل للعين المجردة ـ أن مسألة التوارث في الصفات بين الأب والأم من جهة وبين أبنائهما قد صارت من المسلمات في العلوم الطبيعية الحديثة . فابن أسود اللون يأتي أسود اللون وابن أبيض اللون يولد أبيض اللون ، وفي بعض الموارد إذا ما لوحظ خلاف ذلك ، مثلاً الأب ذو العينين السوداوين إذا ولد له ولد لون عينيه خضر يقولون إنه من الممكن أن يكون لون عيني أمه كان أخضراً والخلية التي أخذت من عين المرأة إستقرت فيما بعد في نطفتها (ovul) كانت أقوى من تلك التي استقرّت في نطفة الرّجل (spermatozoide) فصبغت بالتالي عين الوليد بلونها وفي حال لم يكن أيٌّ منهما ذا عينين خضراوين، يقولون : إنه لا بد أن من أجداد هذا الطفل لأبيه أو أمه من كان أخضر العينين وكانت حليته قد غلب على امرها لكنها لم تَزل من الوجود بل بقيت محافظة على وجودها في عدة انسال متعاقبة إلى أن صادفتها الظروف الملائدة للظهور فبرزت وتغلبت على الخلية المخالفة لها وأعطت العينين لونها الحالي وهذا كلامٌ يجعل من أصل بقاء المادة الذي ثبتت أحقيته في عصرنا الحاضر ، أصلاً صحيحاً .

علمتم النشأة الأولى ﴾ أفعندما خلقتم كنتم مجتمعين ؟ لقد خلقت من الذرات المتفرقة لجسم أبيك وبأمر الله تجمعك يد القدرة مرة ثانية بعد الموت[1] وبهذه المناسبة أذكر هنا الحكمة من التمني . التمني بمعنى الإلقاء . فمن المواصفات المهمة للنطفة تدافعها فقد جاء في القرآن الكريم ما ذكره : « من ماءٍ دافق » فلو كان الهدف من الزواج التّلذّذ فقط لما كان من اللازم أن تتصف النطفة بالتدافع بمعنى أن اللّذة تتحقق بدون ذلك ولكن الهدف هو أن تستقر النطفة في مكانها داخل الرحم دون أن تتعرض للهواء لأن الهواء والبرودة يفسدانها ولهذا فهي تتصف بالتدافع حتى تدخل الرحم وهي على حرارة تامة .

فوائد الإحتلام :.

يقول الحاج « نوري » في « دار السلام » : إن من فوائد الإحتلام والنوم أن يرى الإنسان أصله والمادة التي يتكوًّن منها حتى لا يتكبّر بعد ذلك . أيها الإنسان لقد جعل الله النطفة نُصب عينك كي لا تلقي بنظرك إلى لباس زينتك . . . إلى بيتك وحياتك ، حتى لا تقول من باب الغرور : مُلْكي ، مالي ، جمالي ، علمي ، هذه كلها ضلالٌ عن سبيل الله . إن لازمة العبودية النظر إلى الذات نظرة ذلة وحقارة والنظر إلى الله نظرة إجلال وإعظام .

والآن إنظروا إلى ما يرسمه الرسّام القادر بقلم قدرته : يذكر الطنطاوي ، وهو مصري الجنسية ، خلاصة عن التشريح ونذكر نحن هنا مختصراً عنها لمزيد من الإطلاع : إن جسم الإنسان هو بمثابة مدينة يوجد فيها ثلاثة عشر نوعاً مختلفاً من الطبائع والأركان والأنهار والجواهر والخزائن

(١) يذكر صدر المتألهين الشيرازي هذا الأمر في تفسيره ضمن إقامته الدليل على المعاد ، فمن كان يطلب المزيد من الشرح والتفصيل فليرجع الى ذلك الكتاب

وغيرها ولكل من هذه الأنواع شرح مفصّل .

المفردات وهي عبارة عن الطبائع الأربع : الرطوبة والحرارة واليبوسة والبرودة . وهي تدعى الطبائع المفردة . والأركان الأربعة هي من هذه الأربع طبائع وهي عبارة عن : الماء والنار والهواء والتراب مع أنهم في العلم الحديث قد جزّأوها إلى خمسة وسبعين عنصراً ولكن ذكرها ليس ضرورياً لأن مرجعها جميعها هذه الأربع أشياء الذي خَلَقَ منها طبائعاً أربع وهي : الدم ، البلغم ، الصفراء والسوداء وخُلِقَ من هذه الأربعة أخلاط تسعة جواهر هي ؛ العظم ولبه ، اللحم ، الجلد ، الدم الظفر ، الشّعر ، العرق ، العصب ، هذه هي التسعة جواهر التي جعلها الله من الأخلاط الأربعة التي هي : الدم ، والبلغم والصفراء والسوداء .

طبقات البدن العشر ، العظام ، الأعصاب :

ثم إن الجسم البشري يتألف من عشر طبقات : الأول الرأس ، الثانية الرقبة ، الثالثة الصدر ، الرابعة الجوف (وهو محل القلب والكبد) ، الخامسة البطن ، السادسة المقعد ، السابع الوركين ، الثامنة الفخذين ، التاسعة الساقين ، والعاشرة الرجلين . هذا البدن هو كالبناء يتألّف من عدة طبقات رُكّبت فوق بعضها البعض بواسطة المفاصل . أنظروا إلى رسغ الرّجل قد إتصل بالساق بواسطة مفصل راحة القدم ، إلى الفخذ والمقعد كيف ربط بينهما مفصل . إن عَرْضَ هذا البناء العجيب المؤلف من عشر طبقات قد جعل فوق ٢٤٨ عموداً . هل نظرتم إلى عمود الخيمة كيف يحافظ عليها قائمة . إن في بناء الجسد ٢٤٨ عموداً لو فقد واحد منها لإعْتُبِرَ البناء ناقصاً ، تماماً كالعمارة التي تبنى إذا فقدت منها دعامة واحدة إعتبرت ناقصة ، كذلك الأمر في البدن إذا نقص منه واحد من الـ « ٢٤٨ » عظماً ، إعتبر ناقصاً . وكما أن الأربطة والحبال في الخيمة ضرورية لترابطها وإستقرارها ، كذلك الأمر في هذا البناء العجيب فقد

جعل فيه الله جل وعلا (٧٥٠) رباطاً لا أدق ولا أرق وهي عبارة عن الأعصاب . ومن ناحية اخرى فإن الترابط والإرتباط بين هذه الأعصاب ولا أعجب منه . فذلك العصب الموجود في راحة القدم يرتبط بالدماغ الموجود في الرأس . فلو أن شوكة غرزت في راحة قدمك ، فكيف تشعر بها على الفور ؟ بسبب إرتباط الأعصاب بالدماغ الذي مقره الرأس والذي هو مركز الإدراكات . إنّ ما تلاحظوه من تخدر الأعصاب عقب حقنها بالإبر يعني أن الإرتباط بينها وبين الدماغ قد قطع مؤقتاً . حتى الأسنان فكل واحد من الـ « ٣٤ » سناً مربوط بالدماغ بواسطة عصب من الأعصاب وهذا العصب الموجود في وسط كلّ واحدٍ من الأسنان هو أدق من الخيط لدرجة أنه لو وضع عدد منها فوق بعضه البعض لما بلغ في سماكته سِمْكَ شعرة واحدة . بواسطة هذا العصب يشعر الإنسان بألم سنه فيقلعه إن كان قد خَرِبْ لو تَلِفَ العصب لما أدرك فساد سِنّه . إن كلّ عمل يقدم به الدّماغ ما هو إلاّ ردّة فعل لواحد من هذه الأعصاب الـ « ٧٥٠ » التي هي أدق من الخيط .

الطرق والعروق :

المسالك يعني الطرق والشوارع الموجودة في هذا البدن . هناك (٣٦٠) طريقاً وسبيلاً لهذا البدن . . . المدينة العجيبة . أنظروا إلى أيّ مدينة عادية . . فلولا وجود الطرق ، أي لولا وجود الشوارع ، الضيق منها والواسع ، ولولا وجود الأسواق ، لتعذّر النقل والإنتقال ولما أمكن الذهاب والإياب . إضافة إلى ذلك لا بد من وجود الطرقات بقدرٍ كافٍ وذلك من أجل راحة الأهالي . في هذا الجسد أيضاً ، جعل الله تعالى ٣٦٠ من الشرايين بحيث أن خاتم الأنبياء (ص) كان يردد في كل ليلة ويوم بعدد عروق البدن أي ثلاثمائة وستون مرة « الحمد لله رب العالمين على كل حال » . أما العروق التي تحمل الغذاء فهي غير هذه الـ « ٣٦٠ »

عرقاً التي ذُكِرَتْ . بواسطة هذه العروق التي يقال لها الأوردة والضوارب وهي عبارة عن ٣٩٠ عرقاً، تصل المادة الغذائية إلى كل عضو من الأعضاء، يجب أن تصل المواد الغذائية ، السُكّرية والنشويّة وغيرها إلى كل عضو من الأعضاء . . . والله تعالى قد سخّر هذه الأوردة لإيصالها إلى مختلف أعضاء وأجزاء الجسم .

الخزائن : الدماغ ـ النخاع ـ القلب :

الخزائن هي الأخرى من عجائب هذا الجسم ، وهي تبلغ بمجموعها إحدى عشرة خزينة . وهي ضرورية للجسم كضرورتها للمدينة .

وأول خزينة إلهية في البدن هوالدماغ . فأجزاء المخ والدّماغ وإرتباطها بكلّ واحد من أعصاب البدن قد جُعِل في هذه الخزينة . ففيها الحس المشترك ، وفيها القوة الحافظة ، والقوة الذاكرة ، والقوة المتخيلة والقوة المتفكّرة ، والقوة المتوهمة .

لو لم تكن القوة الحافظة . . . فماذا كان سيفعل الإنسان ؟

الثاني من الخزائن الإلهية الموجودة في الجسم : النخاع . فأي جوهرة هذه التي جعلت داخل العظام المجوّفة . لولا وجود اللب في العظم لتلاشي الجسم ، فهو في حكم الزيت الذي يُصبّ على عجلات المصنع . إن الجسم الذي هو دائم الحركة . . ليس ليوم واحد أو لسنة واحدة بل على سبيل المثال ـ لأربعين سنة ، إذا إفتقد إلى الزيت فأنه يتآكل ويتلف .

الخزينة الثالثة من الخزائن الإلهية الموجودة في الجسم هي القلب . إن للقلب أربع غرف . في هذا القلب الصغير نفسه هناك طبقتان متطابقتان ، واحدة عُلْوية والأخرى سُفلِيّة يقال لهما : البُطين الأعلى والبُطين الأسفل . يدخل الدم المحمّل بالفضلات من أحدهما ويخرج الدّم

المصفّى من الآخر ، فإذا ما توقف القلب عن العمل ولو للحظة واحدة ، فإن البدن هو الآخر سيتوقف عن العمل .

الكبد ، الرئة :

الخزينة الرابعة التي لا تقل أهمية عن القلب : الكبد . في الطب القديم كانوا يعتبرون الصفراء والسوداء والبلغم والدم من الكبد ولكن في الطب الحديث اضافة إلى ما كان السابقون يقولون به فقد وجدوا له إثنا عشر وظيفة أخرى . هل رأيتم العصفور كم هو صغير . . . إن الكبد بهذا الحجم وهو مع صغر حجمه له إثنا عشرة وظيفة مهمة . واحدة من هذه الوظائف هي إنتاج المادة السكّرية للجسم ووظيفته الأخرى إنتاج المادة النشوية وغير ذلك .

الخزينة الخامسة هي الرئة والتي يقال لها بالإنكليزية (lung) . الرئة هي خزينة عجيبة ومن أفضل ما قيل في أهميتها قول سعدي : كل نفسٍ نتنشقه يُمدُّنا بالحياة ، ثم إذا ما لفظناه فإنه يُفرح ذواتنا . إذاً ففي كل نفس نعمتان والشكر واجب على كلّ منهما . يقول الشاعر ما مضمونه : لو كانت اليد واللسان يفيان بشكر الله فإن العبدَ المقصّر هو الذي يعتذر إلى الله عمّا قصّر وإلا فإن أحداً لا يستطيع أن يؤدي ما يليق بالله تعالى .

نعم إن الإنسان إذا لم يتمكن من إستنشاق الهواء فإنه سوف يختنق ومالم يقدر على دفع ما تجمع منه في الداخل فإنه سوف يتسمم وينتهي أمره . أولئك الذين يصيبهم ضيق النفس كم هم معذبون . . ذلك حتى يشكروا الله نعمته. إذاً فلا تنتظر حتى تسلب عنك النعمة لتعلم قدرها .

الكليتين ـ البيضتين ـ المرارة :

السادس من الخزائن الإلهية : الكليتين . وهي جهاز التصفية الذي

جعله الله في بدن الإنسان . **بواسطة هذه الكلية** يتم إخراج المواد **الإضافية ، تماماً كالأمعاء** التي تخرج المواد الإضافية التي تنفع في التغذية **عن طريق المخرج** . **الكِلْيَة** هي لإلقاء المواد الإضافية السائلة التي يفرزها **الجسم فهي تتلقى** من الجسم ما يفرزه من إفرازات ثم تلقي ما كان منها **مُسِمّاً في المثانة لتخرج** فيما بعد إلى الخارج عن طريق مجرى البول ولهذا السبب **يقال** للإدرار بَولاً .

السابع من الخزائن الإلهية في البدن : البيضتان . **وهما مكان تجمع** مادة إنتاج المِثْل . يكفي في أهميّتها أنّ فيهما تتجمع مادة **الحياة التي هي** سبب لوجود أجهزة الجسم .

الثامن من الخزائن : المرارة . وهي كيس الصفراء ، وهو كيس متصل بالكبد والعجيب أنّه يجذب إليه كل المضرات الموجودة في الدّم . هذه المادّة تتجمع في الدم ولو قطع إتصال المرارة بالكبد لصبّت مادة الصفراء في الدّم ولحدث مرض اليرقان وهو مرض خطير جداً والشفاء منه يحتاج إلى فترة زمنية طويلة . إضافة إلى تصفية الكبد فإن من أهم خصائصه هو أنه عن طريق إتصاله بالأمعاء يفرز إفرازات تؤدي إلى خروج الغائط مدفوعاً إلى الخارج لأن الصفراء لزجة وبها حرقة . إذا لم تبلغ إفرازات المرارة الصفراء فإنّ الغائط لا يتم دفعه . ثانياً : بواسطة الضغط الذي تسبّبه هذه الإفزازات ، يتحرك العصب ويشعر الشخص حينئذٍ أنه بحاجة إلى التخلّي فيذهب ويتخلّى .

الطحال ـ المعدة ـ الأمعاء :

التاسع من الخزائن الإلهية في الجسم : الطحال . وهو الآخر مثل المرارة متصل بالكبد . يجذب إليه المواد الإضافية ، وهي السوداء ، ويعمل على تجميعها داخله إضافة إلى ذلك فإن من المميزات الأخرى أنه يُدخل

الإفزازات الدموية إلى المعدة وعندها يشعر الشخص بالجوع . ذلك تقدير العزيز الحكيم .

العاشر من الخزائن : المعدة . وهي مكان تجمّع وهضم الغذاء . عندما يدخل الطعام إلى المعدة تبدأ هذه الأخيرة بتقليبه وتستمر في ذلك إلى أن تحيله إلى ما يشبه ماء الكشك . وقد جعل الله تعالى الكبد محدّب الشكل ، ذلك حتى يلتصق قعره بالمعدة ويحصل بالتالي هضم الطعام الموجود فيها بفضل الحرارة التي يولّدها الكبد والتي تنتقل إلى المعدة لإتصالها به . بعد ذلك تخرج الفضلات ، أما المادة الغذائية فعليها أن تبلغ الكبد . الأعجب من ذلك أنه طالما لم يبلغ الطعام في المعدة حدّ الهضم ، فإن الفُتحة تبقى مغلقة وعندما يتم هضمه جيداً فإن الفتحة السفلية نفتح . طبعاً مُدَدْ هضم الطعام متفاوتة في ما بينها ، فهناك بعض الأطعمة الخفيفة التي لا يحتاج هضمها إلى أكثر من ساعة فالفواكه بشكل عام هي خفيفة الهضم . عكس ذلك ، فهناك البعض من الأطعمة التي تطول فترة هضمها إلى ست ساعات كالبيض المطبوخ أو اللحم .

الحادي عشر من الخزائن الإلهية في البدن : الأمعاء . وهي التي تخرج القذارات وفضلات المواد الغذائية كتلك التي على أثر الإتصال بالكبد تؤخذ منه ويتم دفعها إلى أسفل .

البوّابات ـ الصرّة ـ الأنف :

بقي قسمان آخران من التشريح الذي اتينا على ذكره . فالله تعالى قد جعل في هذه المدينة إثنتا عشرة بَوّابَة ، البعض منها مخصص للدخول إلى المدينة والبعض الآخر مخصص للخروج منها . ومنها أيضاً ما هو مشترك .

السبيلان ـ القوّة الحافظة للمدفوع :

البوابتان الأُخريان هما السبيلان : **أي مخرج البول ومخرج الغائط** وهما باختيار الشخص كلما أراد التخلي .

لقد أعطى الله تبارك وتعالى الإنسان قوة أكبر وذلك حتى يتمكن من الحفاظ على نفسه . وقد تسلب هذه النعمة عن صاحبها من وقت لآخر وذلك حتى يعلم قدرها ويشكرها . لقد تلطّف تعالى ومنحه هذه القوّة منذ أيّامه الأولى أي منذ أيام طفولته وذلك حتى يحمده ويشكره[1] .

أَوَلَم تفكّروا لحظة أنه إذا إنسدّت طريق هذا المجرى أو إذا لم يكن خروج البول والغائط بإختيار الشخص ماذا كان سيحدث ؟ ! كم سيكون ضعيفاً حينئذٍ . أنظر كيف أنّ الله تعالى قد رعى حال الإنسان .

الأذن ، العين ، الثدي :

الأذن : هي بوابة لإدراك الأصوات ، يميز الإنسان بواسطتها ماهية الصوت ؟ وعمّن هو صادر ؟ .

البوّابة الأخرى هي **الصُرّة** ووجودها في بطن الأم كان لدخول الطعام أما بعد الولادة فبوجود الفم تنتفى الحاجة إليها . البوابتان الآخريان الموجودتان في الوجه واللتان هما مشتركتان أي أنهما يستعملان مرة للخروج وأخرى للدخول هما : **فتحتي الأنف** المصمّتان لخروج قذارات الدّماغ فلو أنّ هاتان البوّابتان سُدّتا لتعذّر خروج القذارات ولفسد المخ والعين . إنّ ذلك مما يؤدي إلى سكتة قلبية.وفي الزّكام ، إذا ما سُدّت

---

(١) تتضمن الأوعية التي ورد ذكرها أثناء التخلي وبعد التطهير . . تتضمن نوعاً من الحمد والثناء لله تعالى فيما يتعلق بهذه النعمة مثل : الحمد لله الذي أطعمنيه طيّباً في عافية ـ الحمد لله الذي عافاني من البلاء . وإلى آخر ما ورد .

البـوبتـان أي فتحتي الأنف فـإن عـلاج ذلـك يـطول . إن القـذارات التي تفرزها العين تخرج هي الأخرى عن طريق الأنف . إضافة إلى ما تقدم فإن فتحتي الأنف همـا أيضاً بـوّابتـا دخـول ، يـدخـل الهـواء وروائـح الـزهـور والرياحين عن طريقهما ليبلغوا المخ .

الفم ـ القصبة الهوائية :

من البوّابات الأخرى الموجـودة في الوجـه : الفم. والعجيب أنه في نفس الـوقت بوّابـة دخول وخـروج . وهـو إذا مـا إنتهى إلى الحلق تشعّب شعبتان : القصبة الهـوائية والتي تستعمـل لدخـول وخروج الهـواء والشعبة الأخرى لدخول الطعـام . الأولى تتصل بـالرّئـة والثانيـة بالمعـدة وقد نـظم خلقهما على نحوٍ لا يدخـل فيه الـطعام إلى تلك والهـواء إلى هذه وإلاّ لهلك الإنسان « العظمة لله العليّ العظيم » . العين هي الأخـرى إحدى البـوّابات التي تُعْلِم ما يليها عن طريق إنعكاس صور الأشياء فيها ومن ثم بلوغها منطقة الشعور المشترك . تقع منطقة الشعور المشترك في مقدمة الدماغ ومع أنّ كـل واحدةٍ من العينين لها طريقها المستقل الذي يربطها بمنطقة الشعـور المشترك والإنسان ـ أساساً ـ يجب أن يرى صورتان . . . لكن لأن الصورتين تنتهيان إلى محـلٍ واحد لهـذا فإن الإنسـان يرى صـورة واحـدة . قـد تُسلَب هـذه النعمـة من صاحبهـا في بعض الأحيان فـالأحـول مثـلاً يـرى صـورتـين .

خلاصة الموضوع أنّ الأذنـين والعينين . . البـوّابات الأربـع التي جعلها الله تعالى في الوجه . . كذلك الثديان اللذان هما بـوّابتا خـروج . . قد جعلهـما الله لمصلحة في ذلك .

موعظة إبن السمّاك لهارون الرشيد :

من المستحسن هنا أن يؤتى على ذكر قصة معبّرة تذكرنا بأنعم الله علينا :

في أحد الأيام دخل إبن السمّاك على هارون الرشيد فقال له هارون : عِظني . فقال : لو أنّ يوماً سُدّ حَلْقُك فماذا كنت فاعل ؟ قال هارون : إنني على إستعداد لأن أهب نصف ملكي حتى يرتفع هذا البلاء . فقال: لو أن مجرى بولك سُدّ فماذا أنت فاعل؟ قال: إني على إستعداد لأن أهب النصف الباقي حتى أتخلص منه ، فقال له : إعلم يا هارون أن قدر ملك يعادل قطرة دخلت ثم خرجت !!

جواسيس البدن :

وأمّا الجواسيس فقد جعل الله تعالى في هذا الجسم خمسة جواسيس النظام لا يستقيم في هذه المملكة إلاّ بإقامة الجواسيس حتى يحرسوا الحدود فلا يدخل العدُوّ بغتةً إلى داخل المملكة . لقد عينَ الله تبارك وتعالى في هذه المدينة الجسم خمسة جواسيس مهمتهم المراقبة الدقيقة للجسم حتى إذا ما رأوا أمراً غير طبيعي يريد أن يلحق الضرر بالجسم أبلغوا به السلطان ـ أي الدماغ ـ على الفور . **العين** . . الحاسة التي بها تُرى الحُفَر فتحول دون سقوط البدن فيها . . . الحاسة التي بها تُرى الحيّة والعقرب والذئب وكل حيوانٍ مَهْلِكْ .

إن وظيفة العين هي حفظ البدن من الأعداء .

الجاسوس الآخر هو **الأذن** : ففي بعض الأحيان قد لا ترى العين إلاّ أنّ الأذن تسمع . . . تسمع مثلاً وَقْع أقدام العدو أو مثلاً زمجرة الحيوانات المفترسة . بشكل عام . . . العين والأذن هما ـ جاسوسان إلهيّان .

الآخر هو **الأنف** : الذي يميز بين الأطعمة بحاسة الشّم التي جعلها الله تعالى فيه وذلك عن طريق روائحها فيستهلك - أي الإنسان - ما كان منها نافعاً ويجتنب المُضِرّ . فإذا ما تعطلت حاسة الشمّ عند الإنسان فقد يأكل - على سبيل المثال - اللحم الفاسد لأنه لا يعلم بفساده وقد يُلْحق به الضَّرَرْ من جراء ذلك بل ربما يؤدي ذلك إلى هلاكه فهناك بعض الأشياء المضرة التي لا يمكن لحاسة أخرى غير حاسة الشمّ إدراك مضرّاتها مثل اللحم الذي ذكرنا فالعين لا تدرك فساده وربما لا تدرك حاسة التذوّق أيضاً فساده .

حاسة التذوق وحاسة اللّمس :

ثم حاسة التذوق التي هي الأخرى في حدودها ضرورية جداً للحفاظ على سلامة الجسم . حاسة الذوق تتذوق الأشياء فما كان منها ذا طعم كريه ومضر تُعْلِم الدماغ على الفور لِيُدْرِكَ بدوره هذا الأمر-حينئذٍ يلقي الإنسان اللّوز المر - مثلاً بعيداً . فلو لم تكن حاسة التذوّق موجودة لدى الإنسان فكيف كان بإمكانه تحديد الأطعمة المضرة من غيرها ؟

من الجواسيس الإلهية الأخرى . . . **حاسة اللّمس** والتي تشمل الجسم كلّه من قمة الرأس وحتى أخمص القدمين . هذه الحاسّة ، تميّز بين الأشياء الحارّة والباردة وكذلك إذا ما أتت شعرة فوق اللسان بين الطعام فإنه يشعر بها ولا يدعها تتحوّل - خبط عشواء - إلى جزء من البدن . لماذا تشمل حاسة اللمس الجسم كلّه ؟ لأن الجسم بتمامه يحتاج إلى هذه الحاسة فكمثال على ذلك مع أن جلدة القَدَم سميكة إلاّ أنه إذا ما إستقرّت إبرة أو شوكة في راحة القدم فإن الدّماغ يدرك هذا الأمر على الفور . ولو أنّ الإنسان فقد حاسة اللمس لتعرض وجوده للزوال من خلال آلاف الأمراض التي تصيبه . فهو قد تحرقه النار مثلاً ويهلك دون أن يشعر بذلك .

الأقدام أو عمود الجسم :

الموضوع الآخر الذي يجب التنبُّه إليه هو أن هذه المدينة قائمة على عمودين . هذا البناء المؤلّف من عشر طبقات بالشكل الذي تم شرحه مع كل تلك الأجهزة الموسّعة التي تم ذكرها ، قائم على قدمين إثنين .

إن الحيوانات الأخرى تمشي على أيديها وأرجلها معاً والحشرات تزحف على بطونها أما الإنسان فهو يقف أو يمشي بكل رشاقة على قدمين دون أن يحتاج إلى أن ينثني كالحيوانات .

طبعاً الجسم ثقيل . . . فهل حملتم على أكتافكم في وقتٍ من الأوقات جنازة أحد الأشخاص ؟ إن أربعة من الأفراد إذا أرادوا حملها ربما يشق عليهم ذلك ، مع ذلك فقد جعل الله تعالى الجسم مستقراً بكل بساطة فوق عظمتين ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾ .

إن من مصاديق هذه الآية الشريفة هذا الإقرار للجسم فوق عمودين حتى لا يضطر الإنسان إلى الإنحناء كالحيوانات أو المشي على يديه ورجليه أو ليزحف كالحشرات على بطنه . نعم فليبق رأس الإنسان عالياً لأن فيه العقل ولأن مكان ظهور نور العقل هو في الرأس . إن دماغ الإنسان يختلف عن دماغ الحيوان لذا فلا ينبغي لهذا الرأس أن ينحني كما هو الأمر في البقرة والحمار بل يجب أن ينحني فقط لخالقه لأنه هو فقط ولا أحد غيره أهل للسجود .

إن الله تعالى قد خلقكَ لنفسه[1] ، أنت سيّد هذا العالم لكنّك أذلّيت نفسك فتارةً تجعلها أسيرة المال وتارةً أسيرة الشهرة والمقام وطوراً أسيرة النساء .

---

(١) هذه العبارة هي مضمون حديث قدسي شريف يقول : خلقت الخلق لأجلك وخلقتك لأجلي .

الشروط الثلاثة للرسم :

الموضوع الآخر والمهم هو أن كل رسام يحاول الرسم عليه أن يوفر شروطاً ثلاثة لذلك :

أولاً ، المكان الواسع وذلك حتى يتّسع لما يُراد رسمه .

ثانياً : لا بد من وجود النور أي أنّ عليه الرسم في مكان منير .

ثالثاً : أن لا يكون ما يريد الرسم عليه هشاً ورخواً . . . ليكن - على سبيل المثال - لوحاً خشبياً أو ورقاً ، إذ أنه من المحال الرّسم فوق الجسم السائل .

يد القدرة وإنعدام الشروط :

أما في الرسم الذي بيد الحق تعالى فلا يتوفر فيه أيّ من الشروط الثلاثة تلك .

فالرحم هو أضيق الأماكن ولا يوجد مكان أكثر ظلمة من الرحم والمشيمة والبطن حيث الظلمات الثلاث ، فبعد إستقرار النطفة في الرحم تتشكل حولها قشرة مغلقة كالعجينة التي تُلصق على جدار التنّور ، . وعندما يولد الطفل تكون تلك القشرة مرافقة له وهي التي يقال لها المشيمة . ثم إن الرحم هو الآخر موجود في جوف البطن .

الشرط الثالث الذي ذُكِرْ هو أنه . . من اللازم أن لا يكون مكان الرسم الذي يختاره الرسّام لرسمه هشاً لأن الرسم فوق السائل من المحالات . . . يجب أن يكون صلباً حتى يتمكن من تقبُّل الرسم الذي يُرسم فوقه ويد القدرة الإلهية هي فقط التي تستطيع أن ترسم على قطرة ماءٍ في الرحم هكذا رسم حيّر عقول العقلاء . . . رسم إشتمل على العظام والعروق واللحم والجلد والدماغ والقلب والكبد والرئة والحواس الخمسة

الخارجية والحواس الخمسة الباطنية وغير ذلك[1] .

التناسب بين أعضاء الجسم :

الموضوع الآخر والمهم الذي تلتقي به العين في بناء كل جسم ، وهو ما حيّر العقلاء ، التناسب بين أعضاء الجسم الواحد والتنظيم الموجود فيها وكنموذج على ذلك نعرض هنا لمجموعة من هذه التناسبات :

فتناسب أيّ جسم من الأجسام هو بمقياس راحة يده وأصابعه . أي أنه - على سبيل المثال - تبلغ قامة كل فرد ثمانية أشبار بمقياس يده . أو أنه - على سبيل المثال أيضاً - إذا ما مدّ أحدٌ يداه على شكل جناحي طائر ، أي مدّهما بموازاة سطح الأرض، فإن قامته في تلك الحال تعادل المسافة الفاصلة بين رأس إصبع يده اليمنى ورأس إصبع يده اليسرى . قيسوا أشباركم ثم قيسوا قاماتكم لتتأكدوا من أنها تعادل المقدار الذي ذُكر أم لا ؟ .

لقد نظم الله سبحانه وتعالى ثمانية أشبار القامة شبرين بشبرين أي أنه جعلها أربعة أقسام متساوية . من راحة القدم وحتى أوّل الركبة شبران ومن أول الركبة وحتى الحُقَّوَين (المقعدة) أيضاً شبران ومن هناك وحتى رأس القلب شبران ومن القلب حتى الدماغ في الرأس شبران . أو على سبيل المثال إذا رفع الإنسان يداه إلى أعلى في طول الجسم ، ثم كان هناك فرجاراً تُحدّد نقطة إرتكازه في وسط القلب وترسم بالتالي دائرة تمر عبر أصابع اليد والرجل . إن قطر هذه الدائرة سيبلغ عشرة أشبار بشبر ذات الشخص والأمر على هذا النحو بالنسبة لكل الأفراد ﴿ ما تَرَى في خَلْقِ الرَّحْمن من تَفَاوُتٍ ﴾ .

---

(١) بالإمكان إضافة شرط آخر في هذا المجال وذلك هو أن الرسام باستطاعته الرسم فوق الاجسام المسطحة أمّا الرسم داخل الأشياء المجوّفة فلا يقدر عليه إلّا أنّ الله تعالى ، إظهاراً لقدرته ، يقوم بالرسم داخل جوف النطفة إضافة إلى رسمه فوق الظاهر والسطح : ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

نسبة اجزاء البدن إلى راحة اليد :

المجموعة الأخرى من التناسبات الموجودة بين أعضاء الجسم الواحد هي التناسب الموجود بين الأعضاء نفسها وبين راحة اليد :

فصاحب اليد الواسعة يكون واسع الوجه وصاحب اليد الضيّقة يكون ضيّق الوجه .

وكل فرد من الأفراد ، طول وجهه من منبت الشعر وحتى الذقن شبراً واحداً وثُمُنُ الشبر بمقياس شبره هو .

أمّا عرض وجه كل فرد من شحمة أذنه حتى الأذن الأخرى فيبلغ شبراً واحداً وربع الشبر بشبره هو دون زيادة أو نقصان .

وطول عين كلّ فرد ثمن الشبر بشبره هو .

وطول دماغ كل فرد يبلغ ربع شبره وهكذا . . . فهذا قانون إلهي عام .

في كل عصر أتى الملايين من البشر وذهبوا وجميعهم كانوا يخضعون لهذا النظام المحدّد وما زالوا وسيبقون كذلك .

لا يوجد شخصان متطابقان من جميع الجهات :

هذه الأنفس جميعها الموجودة فوق الكرة الأرضية أو التي كانت موجودة سابقاً، لا يوجد بينها شخصان يتطابقان في كل شيء. أو لنقل لا يوجد شخصان يتطابق لحني صوتها حتى[1] . ربما يشبه بعضهما الآخر كالأخوان مثلاً أو كالتوأمان ربما يكونا مثل بعضهما البعض تماماً ولكن ليس لدرجة أنهم يخلطوا فيما بينهما فيأخذون واحداً محل الآخر . بالتأكيد هناك

---

(١) ﴿واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات . . ﴾ .

وجه إختلاف في ما بينهما فهل يَسَعُ شخصاً ما بعد كل هذه الآيات والبيّنات أن لا يؤمن بالله إلاّ أن يكون أعمى[1] قد عَمِيَ بصرهُ وقلبه وصُمّ سمعه[2] .

الدنيا الأخرى ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾

حقاً إنّ النشأة الأخرى لَهي على الله . إنّ كلّ هذا الشرح والتفصيل كان مرجعه إلى النشأة الدنيوية والخلقة الأخرى ، التي هي عوالم ما بعد الموت بعد إضمحلال هذا العالم ، لَهي على الله تبارك وتعالى .

إن هذا الجسم مركّب من الأضداد وكل مركب لا بدّ زائل ، يعقبه عالم آخر هو عبارة عن عالم البرزخ والقيامة . في هذه الآية الشريفة عبّر تعالى بـ « على » ، ﴿ أن عليه ﴾ أي في عهدة الله وواجب على الله تعالى من باب إنجاز الوعد أي لأنه هو نفسه جل شأنه قد وَعَد بأنه سوف يكون هناك يوم جزاء ، وأنه سوف يُبَتُّ بأمر الأولين والآخرين . ﴿ **أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ ، « إنّا لله وإنا إليه راجعون » . ﴿ **ولن يخلف الله وعده** ﴾ ﴿ **ومن أوفى بعهده من الله** ﴾ . إذاً فعلى الله جلّ ذكره إيجاد النشأة الأخرى .

إن العقل يحكم بوجود يوم القيامة :

بل بصرف النظر عن الوعد الإلهي فإنّ على الله بحكم العقل أن يدفع بالإنسان في مراحل أخرى . فلو أنه ـ على سبيل الفرض ـ لم يكن هناك أنبياء يتبينوا الحقائق للناس ويخبروهم بأمر معادهم ، مع ذلك فإن كل من كان ذو فطرة سليمة سيستيقن أنه لن يُعدم بعد الموت . من أين يدرك

---

(١) ﴿ لهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذان لا يَسْمَعُون بها ﴾ .
(٢) ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمْعِهم وَعَلى أبصارِهم غِشَاوَة ﴾ (٢/٦)

ذلك ؟ إنه يستدل من موجودات هذا العالم أن خالقاً حكيماً أوجدها، طبعاً لا يصدر عن الحكيم ما كان عبثاً لا طائل منه .

من جهة أخرى فلو كانت حياة البشر منحصرة بعالم المادة لكان ذلك ـ قطعاً ـ عبثاً ولغواً . فأن الإنسان يأكل ويشرب ، وينام ويقضي شهوته ، ويغضب ، ويقوم بالأعمال الأخرى ثم بعد ذلك ينعدم كلّياً ؟ إضافة إلى ذلك هناك من هو صالح وهناك من هو طالح .. هناك من هو ظالم وهناك من هو مظلوم . فلو لم يوجد دار جزاء فهذا يعني نقصاً في نظام العالم . . يعني عبثية عالم الدنيا .

الجزاء الدنيوي ليس عاماً :

طبعاً الجزاء الدنيوي الذي سمعتم به صحيح فهو يعني أن الإنسان يجازى على عمله في الدنيا ، لكن ذلك ليس عاماً بمعنى أنه قد يجازى عدد محدود من البشر على أعمالهم في الآخرة إضافة إلى مجازاتهم عليها في الدنيا ولكن قد يكون جزاؤهم الدنيوي عليها مختصراً جداً ، وقليلاً جداً بالنسبة للجرم الذي إرتكبوه .

أساساً هناك مجموعة من البشر أشقياء إلى حدّ، بحيث لا عذاب يصلح لمجازاتهم إلاّ العذاب الأخروي . في المقابل أعمال المحسنين هي الأخرى كذلك أي أن مجازاتهم بالإحسان إليهم في الدنيا ليست عامّة .

وبقطع النظر عن الآيات والأحاديث، فإن فطرة الإنسان تشهد أساساً على أنه لابد من وجود عالم آخر وأنّ سيئّات كل فرد يجب أن توزن[1] .

الهدف هو ﴿ **أن عليه النشأة الأولى** ﴾ تعني أنّ من المُحتّم على الله

---

(١) ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يجحدون﴾ (المؤمنون/١٠٤) .

أن يوجد النشأة الأخرى . ليس ذلك مختصاً بالدليل النقلى ولا هو أيضا من باب إنجاز الوعد فقط ، بل هو بحكم العقل والفطرة واجب أيضاً . وبإختصار إن العقل يُدرك بأن الله عادل فهو أعطى كل فردٍ كلّ ما هو بحاجة إليه فلو سلّمنا بعدم وجود عالم جزاء فما هو مصير كل هذا الظلم الذي إقترفته يد الإنسان وما زالت تقترفه ؟

نفخ الروح بعد إتمام الخلق :

بناءً على هذا فالنشأة الأخرى ـ عالم المثال والبرزخ أو عوالم القيامة. على الله . يقول (الفخر الرازي) في تفسيره عن النشأة الأخرى :

النشأة الأخرى هي عبارة عن نفخ الروح في جسد الإنسان بعد إتمام خلق الجنين في الرحم وذلك بعد أن خلق الله تعالى الإنسان من التراب ثم من النطفة ثم من العلقة ثم من المضغة ، ثم وُجِدَتِ العظام ثم ألصق العظام باللحم[1] . وبعد أن إكتمل بناء الجسد في مدة أربعة أشهر . . . حينئذٍ خلقه خلقاً آخر فكان روحاً إنسانياً .

وهنا يقول : إنّ الأكثر ملاءمة أن نعتبر النشأة الأولى منذ إنعقاد النطفة وحتى إتمام خلق الجسد في الرحم ، والنشأة الأخرى خلق الروح الإنسانية ، لأن الآيات السابقة تتحدث عن خلق الجسد دون أن تأتي على ذكر الروح .

(١) ﴿ ثم خلقنا النطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (المؤمنون/ ١٤) .

الفصل الثاني
****

١ـ أوّل الدين معرفته . . .
٢ـ الوصول من الخاص إلى العام ميزة الإنسان .
٣ـ ساعة من التفكّر في عظمة الله .
٤ـ إختلاف الأفراد والنظام الإجتماعي .
٥ـ التسبيح التكويني .
٦ـ معرفة الله بالعقل .
٧ـ العالم كله كتاب الحق تعالى .
٨ـ العقل موهبة إلهية .
٩ـ الإنسان على مفترق طريقين .
١٠ـ ماهي الحكمة ؟ وماهي آثارها ؟ .

بسم الله الرحمن الرحيم .

أوّل الدين معرفته . . .

يقول الإمام أمير المؤمنين علي (ع) في الخطبة الأولى من نهج البلاغة :

« أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له . . »

بالتفكّر تتكامل المعرفة الفطرية :

بداية الدين الإلهي وأوّل دعوات الأنبياء ومناهج المذاهب الإلهية معرفة الله تعالى . أوّل نقلة فكرية للإنسان يجب أن تتم في ما يتعلق بالله فتتكامل المعرفة الفطرية الإجمالية لتجد طريقها إلى المعرفة التفصيلية .

ومعنى أن يتوصّل الإنسان إلى معرفة الله هو أن يعرف أنّ لهذا العالم صانعاً فالعالم حادث ولكل حادثٍ مُحدِث . هذا القدر من العلم هو من المعرفة الفطرية وكل إنسان يدرك في قرارة نفسه هذا الأمر فما من شيءٍ يوجد من دون علّة أو سبب . إن الطفل عندما يبلغ مرحلة الشعور إذا ما وَضَع أحد من ورائه شيئاً أمامه فإنه قبل أن يمد يده إلى ذلك الشيء ينظر أوّلاً إلى خلفه ليرى من الذي أتى بهذا الشيء ؟ فالشيء الذي لم يكن

موجوداً من قبل في هذا المكان ثم وجد ، لا بد أنه يحتاج لموجد لأن « الإيجاد » حادث .

إنه يدرك ، وفقاً لفطرته أن عالم الوجود هذا الذي ترونه له مُحْدِث لأن « المصنوع » حادث إذاً فيحتاج إلى خالق .

ينظر إلى بدنه فيشاهد النظام والحكمة في كلّ أجزائه عندها يستيقن أن خالقاً عالماً، قادراً قد أوجده. هذه المعرفة الإجمالية ، التي دي فطرته، يجب تنميتها عن طريق التدبّر في الآيات والتفكّر في الاثار ويجب تقويتها لتبلغ مرحلة التصديق . . . مرحلة اليقين والإذعان القلبيين . . . لتصل إلى حدٍ لا يشوبها شكّ بعده .

أبداننا جميعاً من تراب :

في (سورة الروم) المباركة وخلال الآيات التي تتحدّث عن أفعال الله تبارك وتعالى وتذكّر بعلائم حكمته وقدرته . . . إنّها تذكر أولاً بالجسم هذه الآية الإلهية الكبرى : ﴿ **ومن آياته أنْ خلقكم من ترابٍ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ خلق من آدم وحواء أناساً كثيرين إنتشروا في أصقاع الأرض .

إنّ كل من يرجع القهقرى مئة عامٍ إلى الوراء فما ذا يرى ؟ إنه يرى ذرّات منتشرة في هذا العالم كانت موجودة في التراب والهواء والماء جُمِعَتْ بعد ذلك في الأطعمة بيد القدرة الإلهية . . . جُمِعَتْ في الحنطة والأرز وكذلك عُشب الفلوات الذي تأكله الحيوانات فيأتي بعد ذلك آباؤنا وأمهاتنا فيأكلون من لحوم هذه الحيوانات ، ويأكلون من الأرز والحنطة ، فتجتاز هذه مراحل هضم أربعة ، وفي المرحلة الرابعة يتم إخراج قسم من فضلاتها ، ويستقر قسم آخر منها في الأوعية التناسلية عند الرجل ، وفي الرحم عند المرأة .

إذاً فكلنا كنّا تراباً في البداية جمعته يد القدرة الإلهية في أبدان الأمهات والآباء ثم بعد ذلك أتَمَّ سبحانه وتعالى خلق الجسد داخل رحم الأم .

إذاً فالتراب إجتاز حتى الآن جميع هذه المراحل . فهل هو الذي قام بنفسه بجميع هذه الأفعال على هذا النحو من الدقة والتنظيم ؟ أم أنّ قوّة شاعرة مدركة قديرة هي التي فعلت ذلك ؟ إن قدرةً عالمة لا حدّ لها هي التي ، تعاهدت التراب بعنايتها حتى أوصلته إلى هذا المستوى .

ملايين الأجزاء ضرورية للسّمع والإبصار :

أو ليس من اللائق أن ندقّق النظر في أبداننا . . . أن نَعْمَلَ بأمر القرآن الذي يقول لنا : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإنسانُ مِمّ خُلِقْ ، خُلِقَ مِنْ ماءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ (الطارق/ ٥-٧) .

ليس في هذا البدن ولا حتى عرق واحد أو عظم واحد دون حكمة وكلما تطوّر علم التشريح إتضح أكثر مدى الحِكَم والمصالح التي روعِيَت في خلق أجزاء الجسم. في هذه الإكتشافات المذهلة التي حدثت مؤخراً، يُقال إنّ ثلاثة ملايين خلية إستخدمت في خلق الأذن بحيث لو أنّ قسماً منها زال لأصبح السّمع غير مكتمل . وفي خَلق العين تمّ بناءُ بناءٍ مذهل من سبع طبقات إستخدمت في بنائه ملايين الخلايا وذلك حتى يصبح جهاز التصوير وحاسة البصر مُكْتَمِلينْ .

وكل عضوٍ من أعضاء الجسم هو على هذا النّحو فالمطلوب التدبّر والتفكّر . . . في كل يومٍ وليلة يجب قضاء ساعة على الأقل في التفكّر والتدقيق في آيات الله وأخذ العبرة من ذلك حتى يصل الإنسان من المعرفة الإجمالية إلى المعرفة التفصيلية ومقام التصديق .

« **وكمال معرفته التصديق به** » حتى يصل إلى حدٍّ يقترب فيه قلبه من ربّه ويعترف به ويُسلّم له . . . حتى يصل إلى درجة علم اليقين فلا يعود يحتمل المخالفة حتى ولو بمقدار واحدٍ على مئة ـ بل يتجاوز مرحلة الشك فلا يَعُد يتوهم أو ـ يحتمل حتى المخالفة . . . يذهب أبعد من علم اليقين ليصل إلى عين اليقين ويجهد حتى يبلغ حق اليقين إلى حدٍّ تصبح فيه المعيّة الإلهية أوضح لديه من كل واضح .

مع كل موجودٍ دون حلولٍ ولا إتحاد :

المعيّة: تعني الكينونة مع الله حيث يقول عز وجل في القرآن الكريم: ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ (٤/٥٧) فَقَيُّومُ عالم الوجود هو الله كلّنا قائمون به ، وبه نحن موجودون أوَ يُعْقَلُ وجود الظّل دون من يسببه .

في نفس هذه الخطبة المباركة من نهج البلاغة يقول : « **مع كل شيء لا بمقارنة** » أي أن الله موجود مع كل موجود ولكن لا على سبيل الإقتران بهذا الموجود أو القرب الظاهري منه فلو فُرِض أن وجود أي موجودٍ كان منفصلاً عن وجود الله لما وجد الوجود أصلاً . فذلك الوجود موجودٌ لأن الله منحه الوجود . بإختصار إنه تعالى مع كل شيء ولكن لا يكون على نحو القرين لذلك الشيء . فمعيّة الله تعالى لزيد مثلاً ليست على نحو أن يكون لكلٍ منهما ذاته المستقلة عن الأخر أو أن يكون ـ أي زيد ـ وإلهه في عَرْضِ بعضهما البعض . ثم إنّه إذا ما نحّينا الوجود الذي منحه إيّاه الله جانباً لما عاد شيئاً يُذكر .

إن الممكن من شأنه أن يكون ليس ومن علته أن يكون أيس إنّ كل موجودٍ بما هُوَ هُوَ ، لا شيء ولكنه موجود من حيث أن وجود الله معه .

في القول المنسوب إلى مولانا الإمام أمير المؤمنين (ع) يقول : « ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه » . أي رأيت الله مع كل ما

رأيت . إن الإنسان يجب أن يبلغ ذلك الحدّ الذي تصبح فيه رؤية الله أمراً عادياً بالنسبة له . أو فليبلغ على الأقل درجة علم اليقين . وإذا لم يكن بلوغ درجة حق اليقين أو عين اليقين متيسّراً له فليعلم إنه أينما وُجد موجود ما فإنّ وجوده نابع من وجود الله لا على سبيل الحلول ولا على سبيل الإتحاد فكليهما كفر وإلحاد . لا الله موجود في أحد ولا هو حلّ في شيء . كما أنه لا وجود لموجود مركّب من نفسه ومن إلهه . فهذين الإثنين ـ الحلول والإتحاد ـ خطأ وكفر بل إن وجود كلّ موجود مستمر من الله ولا أحد يملك شيئاً من نفسه

يا من بِكَ وُجِدَ الوجود كله
واستمد التراب الضعيف قدرته

وصار قديراً ، عليماً ، بصيراً ، سميعاً :

لقد قلت إننا جميعاً لم نكن سوى قبضةٍ من تراب والآن نحن موجودات تدرك وتسمع وترى[1] فهل هذه التطورات التي طرأت لنا منّا نحن ؟ أي : هل هي من التراب ؟ أم من أين هي ؟ إنه لِمَنْ ذلك الوجود تظهر هذه الآثار . إنّ الغرض من « وكمال معرفته التصديق به » هو أن على الإنسان أن يقبل دعوة الأنبياء وأن يعمل منذ البداية بتكليفه في سبيل المعرفة فيتدبّر ويتفكّر في آيات الله ويُنشِد نشيد وجوده هو والآخرين .

التغيُّرات الكمية والكيفية دليل على المغيِّر العليم :

« أول الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به »

معرفة الله أمر فطري فدلالة الأثر على المؤثر ، والمصنوع على

---

(١) ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (الدهر/٢) .

الصانع ، والمعلول على العلة ، هي بحكم العقل أمر بديهي . وهو لا يرى متحرّكاً إلّا ويفكّر في محرّكة .

إذا رأى حركات الكواكب التي لا حصر لها تدور في مداراتها المحدّدة لها دون أن تتخطاها . . هذا النظام الذي لهذه الكواكب يشهد على المحرّك صاحب الإرادة والعلم والقدرة اللامتناهية .

كذلك الأمر بالنسبة للتغيرات الكيفية والكمية والعينية التي تُلحظ في الموجودات . وكمثالٍ على ذلك : العنب فهو منذ أن كانت حباته لا تزال حُصْرماً غير ناضج كان صغيراً جداً ولكن شيئاً فشيئاً تبدأ تغيراته الكميّة والكيفية .

أمّا تغيره الكمّي ، فتلك الذرّة التي كانت منذ البداية ، تكّبرُ وتضخم شيئاً فشيئاً إلى أن تصبح بمقدار السلاميّة أو أكثر .

وأما تغيره الكيفي فهو في البداية حامض إلى أقصى حدّ لكن حموضته تقل شيئاً فشيئاً وحلاوته تزيد وهكذا من حيث اللون فإنكم تلاحظون أنه يتغير فيصبح أصفر اللون بعد أن كان أخضر .

هذه التغيرات الكميّة والكيفيّة الموجودة في الموجودات كلها ولكن بنسبٍ مختلفة ألا تدل على أن لها محدِثاً ؟

إن الغرض من هذا الكلام هو إيضاح مسألة دلالة الحركة على المحرك والأثر على المؤثر والمصنوع على الصانع .

شكل الوجه والتدقيق في العين :

إذا خط أحدهم على ورقة ما خطاً جميلاً فإنكم تلاحظون على الفور كم هو فنان هذا الخطاط . . كم هو عليم وقدير . إن دلالة الخط الجميل على كينونة كاتبه فناناً هي أمرٌ فطري يُقرُّ بها الإنسان على الفور .

أو مثلاً الرسّام عندما يرسم وجهاً معيناً فإن كل من يشاهده يدرك مدى قدرة وعلم هذا الرسّام . وهكذا فإن شكل وجه كلّ منّا يدل على الرسّام الأعلى .

أنظروا إلى الرسم الذي إبْتُدِعَ فوق مساحة شبر واحدٍ من وجه الإنسان ترون العين والشكل الذي جعله الله لها . . . شكل يقال له إصطلاحاً ـ لَوْزي . فكم كانت ستبدو قبيحة المنظر لو جعلت مربعة الشكل أو سداسية ، أو جعلت بأي شكل آخر غير شكلها الحالي ؟ .

ثم إن كينونة العين لوزية الشكل يمنحها هذه الميزة وهي أن التراب والغبار والأوساخ التي تأخذ طريقها إلى العين تخرج من طرفها مع السوائل التي يتم إفرازها من داخل العين فلو كانت على غير هذا الشكل لفقدت بذلك ميزتها هذه أيضاً فكم هو عليم وقادر خالق هذه العين .

الحاجب والأهداب المذهلة للعين :

ننظر أولاً إلى الحاجب فمكانه فوق العين وهو بالإضافة إلى الجمال الذي يمنحه للعين فقد جعله الله تعالى على شكل قوس وذلك حتى لا يصل العرَق الذي يسيل من على الجبهة إلى العين التي هي عضوٌ حساس جداً ، بل ينحدر عن جانبيه وهو إضافة إلى ذلك يمثل مظلّة للعين تقيها للونه الأسود نور الشمس حتى تكون فعّالة أكثر. أهداب العين هي الأخرى عجيبة فالهدب جَعل الخالق واحدها يعارض الآخر ، أي إنه عندما تطبق العين لا يكون الأمر على نحو أن يقع على الآخر فيبقى فيما بينهما مفتوحاً . لو كان الأمر كذلك لما تحقق الهدف من خلقها ، أي إن الغبار والتراب كانا سيستقران فيما بينهما ثم يدخلان بعد ذلك العين بل جعلَ ـ الله جلّ وعلا ـ واحدها يعارض الآخر فتتعشق ببعضها البعض على نحوٍ كامل بحيث لا يبقى هناك أي منفذٍ أو سبيل لدخول الغبار والتراب . إن للأهداب

السوداء والحاجب ميزة وحكمة أخرى وهي تنظيم الضوء للعين حتى ترى فلو أنّ شيئاً معتماً وُضع في معرض النور فإنه سيتحول إلى مصدر إشعاع للنور . . .

لقد جربتم ذلك فعندما تحاولون رؤية شيءٍ ما يقع بعيداً عنكم فإنكم تضعون أيديكم مقابل أعينكم حتى لا ينتشر نور العين بل يصل مباشرة إلى حيث تريدون .

إذاً فسواد شعر الأهداب والحاجبين ، هو لأجل تنظيم النور ، من وإلى العين .

لو أن واحدةً من شعرات هذه الأهداب تغرز في العين أو ـ على سبيل المثال ـ تنبت في الجفن لجهة الداخل فأيّ بلاءٍ كان سيصيب الإنسان في هذه الحال . أحياناً قد يُبْتَلى بعضُ الأشخاص بهذا البلاء ، وذلك حتى يكونوا أسباب عبرة لغيرهم من الناس .

إن للعين أربع حركات : إلى أعلى وإلى أسفل وعلى اليمين وعلى اليسار،دون أن يكون هناك حاجة لتحريك الرأس بل إنها تتحرّك ـ بمجرد أن يريد صاحبها ذلك ـ إلى جهة اليمين واليسار وأعلى وأسفل . إنكم ترون أمامكم وأنتم تمشون، بشكل طبيعي . لستم بحاجة إلى أن تحنوا رؤوسكم إلى الأمام . إن هذه الحركات الأربع التي للعين ناتجة عن الأعصاب الأربعة التي إن ينقطع واحدٌ منها تصبح الحركة في ذلك الإتجاه غير ممكنة للعين .

تفكّر في الشفاه والفم والأسنان

أنظروا إلى الشفاه أيّ دِقّة رُوعِيَتْ في خلقهم . . . كيف تطبق على بعضها البعض . إن الأطعمة التي يتناولها الإنسان تحول الشفاه دون سقوطها من الفم . . . كذلك محل خروج الأحرف والكلمات ، من الفم .

وبواسطة هذه الشِفة تتضح الكثير من الحروف . ألقوا نظرة إلى داخل الفم . . . الأسنان الأمامية صنعت لتقطيع الطعام . والأسنان الطاحنة لطحنه ولذا فقد خلق كلّ منها بشكل يناسب عمله .

مساحة الوجه هذه التي لا تزيد عن شبر واحد ، يجب أن تتفحّصها بدقة كيف أن رسّامها ومُبْدِعها يملك القدرة والعلم اللامتناهيين .

إن بزوغ شمس الإنسانية في الإنسان . أوله التفكر . . . إن المعْرفة التي هي نتيجة الفكر ، هي التي تُميّز الإنسان عن الحيوان . ما أجمل ما أنشدوا ما معناه :

أيُها الأخ ، أنت لست إلاّ هذا الفِكْر
وما عداه ليس إلاّ عظماً وعِرْق

فاللحم والجلد والعظام والعروق هي من الأمور المشتركة بين الإنسان والحيوان ، والشيء الذي يقتصر على الإنسان دون غيره هو العلم والمعرفة . . . هو التفكّر الذي يؤدي به من العلم الإجمالي إلى العلم التفصيلي .

إن بلوغ المعرفة يحتاج إلى بذل الجهد قد لا يؤدي الإستدلال إلى الفائدة المرجوّة منه وهي العلم بل ربما يؤدي ـ في بعض الأحيان ـ بالإنسان إلى الشك . لهذا فقد قالوا ما معناه :

رِجْل المستدلّين كانت خشبّية
وكانت الرّجل الخشبية إلى حدّ عَيّية

الوصول من الخاص إلى العام . . . ميزة الإنسان :

كما ذكرنا سابقاً يقول الإمام أمير المؤمنين (ع) في الخطبة الأولى من نهج البلاغة : « **أوّل الدين** ـ أي دعوة الأنبياء الأولى نهجهم **الأساس**ـ

معرفته » . أي معرفة رب العالمين . إن الناس تعرف ربّها . وفي طليعة إتصاف الإنسان بالإنسانية ظهور قوته العقلية التي كان قبل ظهورها على حدٍّ سواء مع الحيوان . فالحيوان ينحصر إدراكه بالمحسوسات والإنسان يشارك الحيوان في هذا الجانب إلاّ عندما يُدرك العموميات فيستدل بعقله الأثر على المؤثر . فإذا لم يدرك الإنسان هذه المعرفة الإستدلالية العقلية ، التي هي من البديهيات ، فإنه سوف يبقى لا يتجاوز حدّ الحيوانية ، ويبقى إدراكه مقتصراً على المحسوسات : المسموعات والمرئيّات وغيرها . أما إذا إفترق عن الحيوان وأعمل عقله فإنه سيهتدي من التفاصيل إلى العموميات ، ومن أهمها وأوجبها ، الإهتداء من الممكن والحادث إلى الواجب والمحدث ومن الأثر على المؤثر .

الإهتداء من الأثر على المؤثر لا يحتاج إلى تعلّم :

طبعاً هذا الأمر فطري ويكفي فيه مجرّد الإلتفات له،وهو لا يحتاج إلى الدرس ولا إلى التّعلُم ، وهو ليس فيه أيّ مشقة فالإلتفات إلى الشيء من جهة كونه أثراً يجعل الإنسان ينتبه فوراً إلى أنّ له مؤثراً ، فهذا الحادث له محدث وهذا الممكن ينتهي بالتأكيد إلى واجب.أي الشيء الذي لا يكون الوجود عين ذاته فمن الممكن أن يكون أو لا يكون ، فإذا كوِّنَ ، حتماً فإن هناك قدرة أرادت فأوجدته .

لقد ذكّر القرآن الكريم الإنسان كثيراً بهذا النوع من المعرفة الإستدلالية منها ما جاء في سورة الروم المباركة ؟ره في عدة آيات بهذا المضمون فقد ذكّر أوّلاً بخلق الإنسان من التراب وهو ما تمّ شرحه سابقاً .

القرآن دائماً يُذكّر بخلق الإنسان :

هذه الحادثة والمراحل التي طواها هذا التراب منذ البداية فبلغ

مـرحلة النـطفـة ومن ثم التغـير الكمي والكيفي وظهـور جهاز البـدن العـظيم . . . الأعضـاء المختلفـة من كليـة ، وكبـد ، وقلب ، وأمعـاء وغيرها . . . كذلك الحواس الخارجية من عين وأذن وغيرهما بحيث لـو كان جزءاً من آجزائها غير مـوجود لكـان الجسم لذلـك ناقصـاً . وكمثال عـلى ذلـك ، الـ « ٢٤٨ » عظمـاً التي إن نقصت واحـداً عُـدّ الجسم نـاقصـاً . فـانظروا كيف خلقنـاكم من التراب . إن هـذا الحادث أي ظهـوركم دليل على أية قدرة لا متناهية، على أي رسـام رسم على هـذا النحو . إنّ الـرسم يجب أن يتم فوق جسم جامـد وفي جـوّ منـير وعلى السـطح بينما يـد القدرة الإلهية قامت بـذلك عـلى قطرة المـاء السـائلة التي هي النـطفة وفي الـظلمات الثـلاث ظلمـة الرحم والمشيمـة والبـطن وفي بـاطن النـطفـة وليس عـلى سطحها ، ولهذا فهي فاقدة لشرائط الرسم الثلاثة .

إن تشكّل الأعضاء داخل جوف البدن هو الآخر أمرٌ عجيب فشكـل القلب الصنوبري له حكمة وكذلك شَكْلَي الكبد والرّئة فكـل منهما ينـاسب صاحبه ، وكما أن الرسم العادي يدل على قدرة الرسّام كـذلك هـذا الرسم الإلهي فيما يتعلق بجسم الإنسان كم له من دلالة ؟

الذكر والأنثى والمحبة بينهما ، من آيات الله :

يقـول تعالى في الآيـة التـاليـة من سـورة الـروم : ﴿ وَخَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ .

أرجو أن تُمْعِنوا النّظر في مسألة الذكـر والأنثى والمرأة والـرجل . . . كيفية خلقهما والإختلاف الذي لهما في ما بينهما وما جعله الله من أمـر الرحم في مـا يعود إلى وضعـه وإلى شرائط إستقـرار الـطفـل داخله ونمـوه وكيفيـة الولادة .

لقـد جعل الله المـرأة سكناً للرجـل ، وإنّ جميـع الإضـطرابـات التي

تحصل للرجل تزول عند ملاقاته زوجته . قبل الزواج ربما لا يكون أحد قد رأى الآخر بتاتاً ولكن أي ألفة هذه التي يلقيها الله تعالى فيما بينهما فيصبح أحدهما منفس كرب الآخر . إن هذا من آيات الله الكبرى .

النوم وآثاره العجيبة :

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ **ومن آياته منامكم بالليل والنهار . . .** ﴾ لقد تكرّرت آيات الله فالإنسان يفكّر بأن لا ينام ولكن النوم يتغلب عليه في النهاية وحكمة ذلك معروفة فالجسم يلزمه قدر من الراحة وإلّا فإن قواه تنهار فيجب أن يرتاح قليلاً في كل يوم وليلة . ثم إن النوم يجب أن لا يكون أمراً إختيارياً لأن الإنسان قد لا ينام بسبب حرصه أو لسبب آخر فينهار بذلك الجسم تدريجياً . إن نوم الإنسان هو من آيات الله وكذلك إستيقاظه . ومن آياته أيضاً الرؤيا وعجائبها التي يقال لها إصطلاحاً المنام ، وهي عالم خاص من عوالم النفس والإرتباط بالملكوت . إن الإنسان ليرى في منامه أموراً ستحدث وهي تحدث بالفعل .

الكواكب والغيوم مسخرة لإرادته تعالى :

أنظروا إلى فوقكم حيث الكواكب اللامتناهية التي تتحرك جميعها بحركات منتظمة وفي مدارات محددة مع ما لكل منها من ثقل كيف أن جميعها حُرّكت في مسارات معينة . فلو حدث أقل إنحراف عن مساراتها فهناك إحتمال تصادمها مع بعضها البعض ومن ثم زوالها .

والغيوم هي الأخرى إعتبرت من آيات الله . . . الغيوم المسخّرة بين الأرض والسماء . هل ترون هذه الغيوم العظيمة التي تعبر من فوقنا ثم لا تنزل منها قطرة ماءٍ واحدة ولكنها ما إن تبعد فراسخ عدة حتى يهطل منها المطر كالميزاب . هذا يعنى أنها تحت إرادة واختيار غيرنا . هذا يعني أن لها مدبّراً . . . أن لها محرّكاً غيرنا نحن .

في الآيـات الأخـيرة من سـورة آل عمـران والتي تتحـدث عن خلق السموات والأرض وإختلاف الليل والنهار بأنها آيات لقـوم يعقلون ، رواية تقـول : ويلٌ للذي يـرى هذه الآيـة ثم لا يتفكّر فيهـا . . . إذاً المـلاحـظة وحدها ليست هي المطلوبة بل المطلوب هو التدبّر أيضاً .

يجب النظر إلى الأشياء على أنها آية من آيات الله :

« التفكّـر ساعـة أفضل من عبـادة سنة » : لـلإستدلال عـلى الخـالق يكفي فقط التدبّر والإنتباه . إنظروا إلى الأثر . . . أنظرو إليـه على أنـه آية من آيات الله وإلاّ فالنظر التقليدي هو شأن الجميـع فالحيـوانات تـرى هي الأخـرى ما نـراه نحن . إن النظر الإنسـاني يعني النـظر مـع الأخـذ بعـين الإعتبار أن الأشياء ما هي إلاّ آيات الله . فهو لم يكن ثم كان هذا يعني أنه يحتـاج إلى موجـود وعندئـذٍ فقط نستطيـع أن نرى الكـائن غنيـاً بـالحكمـة والعظمة ولـذا فهو يستنتـج أن المكوّن هـو الآخر في نهايـة العلم والقدرة . هـذا المفهوم يجب أن يلتفت إليـه الإنسان وهـذا النظر ضروري منـه لجهـة كينونة الأشياء آيات الله جل شأنه .

في القرآن الكريم كثيراً ما أتي على ذكر الآيات التي تشير إلى إقتـداره تعالى وذلك حتى يقرأها المسلمون يُمْعِنوا النظر فيها لا أن يكتفوا بقراءتها فقط .

مع أن قراءتهـا أمر حسن بحـد ذاته ولكن الهـدف الأساس منهـا هو التدبُّر .

في رواية يقول الإمام الرضا (ع) : « إني لأختم القرآن في ثلاثة أيـام وإني لأستطيعه في أقل من ذلك » (أي في يوم واحد ـ مثلاً ـ أستطيـع أيضاً أن أختم القرآن) ولكني أريد أن أقرأه بتدبّر .

ساعة من التفكّر في عظمة الخلق :

إن من الضروري جداً أن لا يصرف الإنسان أوقاته كلها في تفاصيل الحياة المادية وتأمين رغباته الحيوانية والشهوانية ، وهو إن فعل ذلك يجعل نفسه في موقف الذليل والحقير ، يهوي من مقامه ، مقام الإنسانية الشريف، بل فليصرف على الأقل جزءاً من وقته في التفكّر في القضايا الكلية وبذلك يكون قد شرف نفسه وأكسبها إنفتاحاً يسع الوجود بأكمله فربما يصل بذلك إلى مقام الإنسانية الرفيع فليجعل لنفسه ـ على سبيل المثال ـ ساعة يخصصها للتفكّر في عظمة عالم الوجود فيتعرّف بذلك ـ إلى حدّ ما ـ إلى عظمة الله تعالى الذي خلق هذا العالم .

فليلقِ نظرة إلى الشمس التي يبلغ حجمها مليوناً وثلاثمئة ألف مرة حجم الكرة الأرضية ، وبعُدها عن الأرض يبلغ تسعين مليون ميل ولها تسع سيّارات ، الأرض واحدة منها . وكل سيارة لها قمر أو عدة أقمار في حسابنا تدور حول الشمس في الوقت الذي هي فيه ، هذه المنظومة الشمسية ، جزء من مجرّة فيها أكثر من مئة ألف مليون كوكب سيّار بعضها أكبر من الشمس بعدّة ملايين من الأضعاف وقد قيل أن قطر هذه المجرة يبلغ مئتان وعشرون ألف سنة ضوئية وهناك غير هذه المجرة ملايين المجرّات مسافة أقرب واحدة منها إلينا ثمانمئة وخمسون ألف سنة ضوئية حساب السنة الضوئية :(السنة إثنا عشر شهراً وكل شهر ثلاثون يوماً وكل يوم أربعة وعشرون ساعة وكل ساعة ستون دقيقة وكل دقيقة ستون ثانية والضوء يقطع في كل ثانية ثلاثماية ألف كيلو متر إذاً :

١٢ × ٣٠ × ٢٤ × ٦٠ × ٦٠ × ٣٠٠٠٠٠ = ٩٣٣١٢٠٠٠٠٠٠٠ كيلو متر = سنة ضوئية) .

وكذلك قيل إن أبعد السيارات هو على مسافة أربعة مليارات سنة ضوئية مِنّا ويقول الطنطاوي المصري الجنسية ، في تفسير سورة النجم : إن

عدد الكواكب في هذا الفضاء اللامتناهي قـدّر بما يقـرب من ٢ مضافـاً إلى يمينه ٢٦ صفراً . « يا من في السماء تجلت عظمته » .

هل حركة الكواكب هي دون هدف ؟

يجب التفكّـر بالحـركة الـدائبة لهـذه السيّارات فهي حتماً ذات هدفٍ وغاية فالشاة التي هي من أضعف مخلوقات الأرض عندمـا تسعى وراء الماء والعشب تكون ذات هدف وسعيها ليس دون غاية فهل الأرض التي تـدور ليـل`نهار حول نفسهـا بهذه السرعـة أي بسرعة أربعـة فـراسـخ في الثـانيـة الـواحدة وحول الشمس بسرعة أربعة فراسخ في الدقيقة الواحدة . . . هل هي دون غاية ؟

إن واحـداً من أهدافهـا وجود الليـل والنهار والفصـول الأربعة . إن الحركة الدقيقة جداً والمنتظمة لسائر الكواكب كـما الأرض إتضحت معالمهـا جيـداً في المـدة الأخـيرة فعلماء الفلك يحسبـون في الـوقت الحـاضر سرعـة الكوكب الذي هو محط أنظارهم ثم يحسبون سرعة الصاروخ الذي يريدون إطلاقه بإتجاه هذا الكوكب ثم بعد ذلك يطلقونـه فمثلاً هم يحسبـون سرعة كوكب الزهرة ثم يحسبون كم تبلغ سرعة الصاروخ الـذي يريـدون أن يطلقـوه بإتجاه هذا الكوكب في الوقت الحاضر ، لنفترض أنه بهذه السرعة يصـل إلى كوكب الزهرة بعد مضي أربعة أشهر على تاريخ إطلاقه فيطلقونه فيصـل إلى الكوكب المذكـور بعد أربعـة أشهر ـ فـأي حركـة منظّمـة ودقيقة هـذه التي تـدفعهم ـ وهم مطمئنـون واثقون ـ إلى إطـلاق صاروخ يصـل بعـد أربعـة أشهر إلى المكان الذي حدّدوه له ؟

الإنسان موجود خارق :

وهنا أقول : إن القصـد مما تقـدّم هو التعرُّف إلى أنـواع من التفكّر والإستفادة من آثارها وكذلـك حتى ندرك أن الإنسـان ليس موجـوداً ماديـاً

فالموجود المادي من المحال أن يحيط علماً بالموجودات الأخرى حتى المادية منها وأن يكون على علمٍ بحقائقها وأحوالها إذاً فالإنسان الذي يحيط علماً بعالم وجود بهذه السّعة وبالشكل الذي تم عرضه كيف يمكنه القيام بعملية حسابية ومن ثم إطلاق الصّواريخ إلى الكواكب الأخرى. يجب أن يرتقي بفكره من المخلوقات إلى خالقها ومن الموجودات إلى موجدها لا أن يبقى محصوراً في الجانب الماديّ منها .

بإختصار إن على الإنسان أن يدرك حقيقة نفسه وأنه موجود روحاني وليس موجوداً مادياً يصيبه الفناء ، وهو قد خلق لهدف سامٍ جداً من أجله جاء إلى هذا العالم ، وما نظمه الشيخ البهائي - قدس - في هذا المضمار هو ، لبيان حقيقة الإنسان ومقامه السامي .

أيا قطب دائرة الإمكان	أيا زبدة عالم الكون والمكان
أنت سيّد جواهر عالم الناسوت	أنت شمس مظاهر عالم اللاهوت
بك إهتدت مئات الملائكة	بك نجا يوسف مصر من الهاوية
ثم جعلته على مصر والياً	وأقمته في الحكم شاهداً

إختلاف الأفراد والنظام الإجتماعي :

« وإختلاف السنتكم . . . »

إن إختلاف اللهجات هو من آيات الله الكبرى . هناك على وجه الأرض ٤،٥ مليار من البشر هم من حيث الخلق يختلفون ، أي لا يوجد حتى شخصان إثنان فقط ليس بينهما إختلاف ، والحكمة من ذلك هي المحافظة على النظام الإجتماعي للإنسان ، وإلا لَلَزِم الفساد . فلو أن زيداً - على سبيل المثال - قتل عمراً ثم أرادوا بعد ذلك إعتقال القاتل فربما يشتبه عليهم الأمر ويعتقلوا شبيه زيد ويعاقبونه . وقد يحدث مثل ذلك في أمور أخرى من مثل المديونية والزواج وغير ذلك .

ـمن جملة أَوْجُـه الإختـلاف بـين البشر . . . إختـلاف اللهجـات . إنكم تشاهدون أن الجميـع لهم أعين وحـواجب وغير ذلـك . ولكن لـكل فرد مميّزاتـه الخاصـة به والتي تميّـزه عن غيره ومن هـذه المميّزات : الحنـاجر واللهجـات فهي الأخرى ليست واحـدة في الأفراد مـع أنها ـ أي الحنجرة ـ التي يصدر عنها الصوت هي بنفس الحجمٍ تقريباً في جميع البشر . مـع هذا بالإمكان تمييز الأشخاص من لهجاتهم فمثلاً في الهاتف عندما تسمع صـوت محدّثك ، تعرف من هو دون أن يعرّفك بنفسه .

إعجاز رؤوس الأصابع :

في ما يتعلّق بيوم القيامة يقول تعالى : ﴿ بَلى قَادِرين عـلى أن نُسوّي بَنانَه ﴾ (القيامة / ٤) .

فحتى رؤوس الأصابع هي الأخـرى مختلفة فيـما بينها مـع أن حجمها واحد تقريباً في جميع الأفراد إلاّ أن خطوطها ليست متشابهة ، بل لا يـوجد حتى شخصان إثنان فقط تتشـابه خـطوط رؤوس أصابعهـما ولهذا فقـد راج البصم بين البشر وصار مستعملاً في كل الأمـم ذلـك لأنه بـالإمكان تـزوير إمضـاء الإسم والختم أمـا بصمـة الإصبـع فمن غـير الممكن تـزويـرهـا أو التلاعب بها لأنها أكثر ثباتاً من التوقيع والختم .

إن حقيقة الإنسان هي علمه وإدراكاته تلك التي تثبت وإلاّ فإنّ بدنه يتحوّل إلى تراب والذي يبقى ويستقر في ذاته هو العقل وما يُـدرِكْ حيث لا تتم إنسانية إلاّ بهـما ولهذا علينـا أن نسعى لنزيـد في الجانب الـذي يخلد منّا والسبيل إلى ذلك هو التدبّر في آياتٍ من هـذا القبيل وذلـك لزيـادة المعرفـة الإلهية عندنا .

التسبيح التكويني . . . شهادة على حكمة الله :

﴿ يُسبح لله ما في السموات وما الأرض ﴾

لقد تحدّث القرآن الكريم عن تسبيح الموجودات في أكثر من موضع فحدّث عن تسبيح جميع أجزاء عالم الوجود ، من أرفعها إلى أدْوَنِها فالخلق كله بجميع مراتبه يُسبّح الله .

إن التسبيح التكويني العقلي الذي يتعلق بمعرفتنا الإستدالالية يعني أن كل جزء من العالم . . . ، كل موجودٍ من الموجودات ، هو شاهد صادق على أن صانعه قادر عليم . . . حالة كل موجود وخصائصه هي شهادات صادقة على أنّ صانعه ليس فيه أيّ نقص ، فقد وضع كل شيء في موضعه . . . في النباتات والحيوانات وبإختصار فإن جميع الموجودات هي هكذا .

الأرض حاضنة لزهر الشمّام والبطيخ :

أنظروا إلى الشمّام تلاحظوا أنه لو كان نباته مرتفعاً عن الأرض لما أستطاع أن يحمل ثمرة بثقل الشمّام بل ربما يستطيع أن يحمل واحدة أو إثنتين ولكنه سوف يتكسّر إذا ما زاد العدد عن ذلك . لهذا لا بد لسطح الأرض أن يكون حاضناً له . . لا بد لزهره آن يتمدّد فوق سطح الأرض ليتحوّل بعد ذلك بمساعدتها إلى شمّام أو بطيخ .

البعض من النباتات تنمو جذورها أفقياً في الأرض وبعضها الآخر ينموْ عمودياً ، وأثناء سقوط المطر ، ترتوي تلك التي نمت جذورها أفقياً بينما تبقى النباتات التي نَمَتْ جذورها عمودياً في الأرض لا يصيبها إلاّ القليل القليل من الماء لذا فإن هذا النوع من النباتات كاللّفت والفجل جُعلت أوراقها تنمو على نحوٍ تُشبه الميزاب لتتلقى ماء المطر وتجعله يصب بالقرب من جذور تلك النباتات .

إن هذه النباتات تُسبح الله أي أنها تشهد على أن صانعها ذو قدرة وحكمة لا متناهيتين .

الأسنان والمعدة الملائمة لأنواع الحيوانات :

في عالم الحيوان جهز ما كان منها آكلاً للعشب بأسنان ومعدة يناسبانه وما كان منها آكل للحم بأسنان ومعدة أخريين تناسبانه . . للحيوان آكل العظام كالكلب مثلاً ، وُهِبَت له أسنان قاطعة وكاسرة للعظام ومعدة حارقة تهضم هكذا مادة .

فيما يتعلق بالأنسان فقد جعلت أسنانه الأمامية (الأنياب) - والتي هي لتقطيع الطعام - حادة وأسنانه الخلفية (الطواحن) - والتي هي لطحن ومَرْت الطعام - عريضة . هذا اللسان الموجود في الفم ، أي خصائص مذهلة له؟! إنّ له دوراً مهماً في أكل الطعام . إنه يلعب دور ناقل اللّقمة إلى نواحي الفم المختلفة ومن ثم إرسالها إلى الداخل .

إنكم تلاحظون أنه من أجل تنعيم الطعام بواسطة الأسنان لا بد للفك أن يتحرك . أوّلاً إقتضت حكمة الله أن يتحرّك الفك الأسفل وليس الفك الأعلى . تصوّروا لو كان الفك الأعلى هو الذي يتحرّك لكان تحرّك الرأس بكامله أثناء الأكل . فما كان أبشعه من منظر ؟ ! ثم إن مجرّد إنطباق الفكين الأعلى والأسفل على بعضهما البعض ليس كافياً لتنعيم الطعام بل أفضل طريقة لذلك هي أن يدور الفكان أحدهما فوق الآخر لا أن يطبق أحدهما على الآخر بشكل مباشر . إذا يجب أن يكون الفك الأسفل ، إضافة إلى حركته الأولى ، قادر على الدوران .

ثم إنه عندما يحرّك الطعام ضاغطاً عليه بواسطة الأسنان تبرز هنا الحاجة لملعقة متحركة ومحركة في آن واحد وهذه الوظيفة يقوم بها اللسان فيقلّب الطعام من هذه الجهة إلى تلك ويُعيد ما سقط منه من تحت دولاب الطاحونة . .

يُعيده مرة أخرى فيجعله تحت الأسنان حتى يَنْعم أكثر وعلى نحوٍ أفضل . إنه يقوم بعمله هذا دون أن ننتبه نحن لما يقوم به ودون أن يقع في شرك الأسنان فيسحق تحتها . أحياناً يقع طرفٌ منه تحت الأسنان وذلك حتى نعرف قدر العافية ونتذكر هذه النّعمة .

إنّ الأسنان واللسان تسبح الله تعالى أنّ خالقنا وخالق كل الأعضاء التي ترتبط بنا بنحو من الأنحاء عليم وقادر مطلق . هذا النوع من التسبيح . . . التسبيح التكويني . . . كل العقلاء قادرون على إدراكه ولكنه يحتاج إلى تأمُل وتدبّر .

كُلّ نباتٍ والأرْضُ تُخرجُهُ يَشْهَدُ أنّه واحدٌ لا شريك له

التسبيح الملكوتي لا تسمعه أذن من كان في عالم المُلْك :

نعم هناك نوع آخر من التسبيح يختلف عن التسبيح العقلي وهو غير التسبيح الذي قدّمنا له حيث يدل الأثر ، تكوينياً ، على المؤثر وكتاب عالم الوجود على عدم نقص كاتِبِه . وهذا التسبيح الذي ذكرنا هو كتسبيح الإنسان غير الإرادي بواسطة اللسان الملكوتي ، فأجزاء عالم الوجود كلّها بل وحتى كل ذرّة من ذرات أجسادنا أنا وأنتم تُسبّح الله تعالى بنحوٍ ملكوتي لا يمكننا نحن سماعه . فنحن موجودون في عالم الملك الذي ظاهره صامت ولكن ملكوته ذاكر .

يقول تعالى في القرآن الكريم : ﴿ وإن مِنْ شيَءٍ إلاّ يُسَبّح بِحَمْدِهِ ولكن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُم ﴾ . إن الذي يُدركه العقلاء هو التسبيح العقلي . إذاً فالمقصود من هذه الآية هو التسبيح الملكوتي . إنّ أجزاء العالم كلّها مرتفعة أصواتها بتسبيح الله فلو أنّ أحداً يخرج من عالم الملك إلى عالم الملكوت لأدرك أيّ ضجّة يمتلىء بها عالم الوجود من ذكروتسبيح وحمدٍ لله تعالى .

من الروايات المسلّم بها في معجزات النبي (ص) تسبيح الحصى في يديه صلوات الله وسلامه عليه .

فقد رُوِيَ أنه (ص) أخذ الحصى بيده ثم قدّمها بين يدي أصحابه فسمعوا صوت تسبيحها . إن الحصى تسبّح هي الأخرى والمعجز في ذلك هو سماع صحابة الرسول لصوت هذا التسبيح . فمن كان في عالم الملك لا يمكنه سماع الصوت الملكوتي ولكنه إستطاع بواسطة القدرة الإعجازية التي له إسماع آذان عالم الملك التي لهم الصوتَ الملكوتي . إنه ليس بالإمكان إنكاره التسبيح الملكوتي بحُجَّة أنه غير محسوس فنسبة عِلْم الإنسان إلى جهله هي كنسبة القطرة إلى ماء البحر . . هي كنسبة المحدود إلى اللامحدود . إن على الإنسان أن لا يصيبه الغرور . . عليه أن لا يتصوّر نفسه أدرك كلّ شيء ويُنكر ما لم يُدركه فهو ما إن ينكر حتى يُعْلَم أنه جاهل .

النملة وعمود التلغراف ، والإنسان والعالم الآخر :

أَحَدُ الباحثين يضرب مثالاً جيّداً فيقول : إنّ النملة عند ما تمرّ بالقرب من عمود التلغراف لا تتصوّره بينها وبين نفسها أكثر من جسم عادي ولكنها هل تعلم أن هذا العمود قد أقامه الإنسان وأنه قد مدّ فوقه أسلاكاً تؤمّن الإتصال بين مدينتين أو بين مدنٍ متعدّدة وتتكفّل بالعديد من الحاجات الإجتماعية والسياسية والإقتصادية لمجتمع ما .

إنها لا تعلم عن وظائف هذا العمود وهذه الأسلاك شيئاً بل هي ترى الظاهر فقط . والإنسان هو الآخر كذلك لا يعلم شيئاً عمّا وراء المادّة وعالم الأرواح . . . لا يعلم شيئاً عن العلاقة فيما بين الأرواح . . . رزق الأرواح ما هو ؟ وكيف هي حياتها؟ كيف هو الملكوت . . . لا يعلم . أَنه فقط يرى الظاهر . واستناداً إلى حكم العقل فإن « عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود » . والعاقل هو الذي لا ينكر ما لا يَعْلَم .

إن تسبيح الأشياء الحقيقي والتكويني يختص بعالم الملكوت وآذاننا هي من عالم المُلْك وهو لا يختص بالأصوات التي تبلغ آذاننا بإصطدامها بالهواء .

حِلْم الله وكفر وجهل الإنسان :

أذكر بالمناسبة نكتةً وهي أنه تعالى يقول في آخر الآية ﴿ **وإن من شيء إلّا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ إلى أن يقول : ﴿ **إنه كان حليماً غفوراً** ﴾ فكيف يذكر بحِلم الله تعالى بعد أن ذكر ما ذكر .

ما هو السّر في ذلك يا ترى ؟ ربما لو أراد الله سبحانه وتعالى أن يُفهم الناس التسبيح الملكوتي للأشياء لربما هلكوا فهم لا يمكنهم تحمُّل سماع الصوت الملكوتي فكل من يسمع الصوت الملكوتي لأجزاء بدنه لا يمكنه حينئذٍ البقاء على قيد الحياة ، بل سوف ينهار ، أما الله سبحانه وتعالى فهو الحليم المطلق .

إن العزة الإلهية تقتضي أن يُعرّف الله تعالى الإنسان بملكوته حتى لا يتعدى حدوده ولا يُعجب بنفسه ولكنه تعالى لا يفعل لأن تعريفه به لا يصلح له وهو لا يزال على قيد الحياة فهو إذا ما عرفه فقد يفقد عقله . إنّ الله تعالى حليم .

إنه يحلم على الإنسان حتى وإن كفر مع أن كل عضوٍ من أعضاء بدنه وكل ذرةٍ من ذراته تسبّحه تعالى قائلة : سبحان الله . ولكن الإنسان مع ذلك يُنكر . إن من حقه أن يُعرّفه إلى ملكوته ولكنه تعالى بحلمه يتغاضى عن كفره ويحلم عليه . والأعجب من ذلك بعد أن يقضي الإنسان عمراً معرضاً عن الله تعالى عاملاً بهواه ثم بعد ذلك يستغفر ويتوب إلى الله فإن الله يغفر له : « الإسلام يَجُبُ ما قبله » . إن رحمته واسعة إلى حدّ

﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ . إن الله يرحم للأنسان ضعفه ويقبل عذره والشّقي هو من لا يُقْبل بوجهه على هكذا إله .

إبراهيم (ع) والضيف الكافر الذي تحوّل إلى موحّد :

هناك حديث في « إرشاد القلوب » لمؤلفه المرحوم المجلسي (ره) . في هذا الحديث أن إبراهيم الخليل (ع) لم يكن ليأكل دون أن يشاركه في طعامه ضيف وعندما كان لا يجد من يضيفه كان في بعض الأحيان يسير لمسافة ميلٍ حتى يجد ضيفاً يشاركه طعامه . في أحد الأيام ذهب إبراهيم (ع) يبحث عن ضيف فالتقى أحدهم ودعاه إلى طعامه يشاركه فيه .

وعندما جلسا ليأكلا ، ابتدأ ابراهيم (ع) بـ بسم الله ، وأمّا ضيفه فلم يقل شيئاً ، قال له ابراهيم : لماذا لم تذكر إسم الله ؟ قال الرجل :ومن يكون الله؟ أنا لا أعرف لي إلهاً. فقال له إبراهيم: إذاً قم وإذهب من هنا فأنا لا أشارك في طعامي من كان منكراً لله . فقام الرجل وذهب وبقي إبراهيم وحيداً فأوحى الله تعالى اليه أنْ : يا إبراهيم ، إن هذا الشخص الذي مضت لنا سنوات وسنوات ونحن نرزقه ولم نعترض عليه واليوم قد حوّلنا رزقه عليك . . . لماذا طردته ؟

فقام إبراهيم (ع) من ساعته وتبع ذلك الشخص وظل يترجاه حتى يعود وهو يستنكف إلى أن قال لإبراهيم (ع) في النهاية وبعد أن رأى مقدار إلحاحه عليه وإصراره : أعود ولكن شرط أن تُخْبرني ما الذي حدث لك حتى عُدت ترجوني وتلحّ عليّ بالعودة بعد أن طردتني فقال له إبراهيم (ع) الحقيقة إنّ الله تعالى عاتبني عندما طردتك . فقال الرجل ؛ تباً لي ما أحقرني إذ أنا معرِض عن ربٍ رحيم كهذا . يا إبراهيم عرّفني بإلهي . . . ثم صار الرّجل بعد ذلك مؤمناً موحّداً .

القصد من هذه القصة هو إظهار أن على الإنسان أن يتفكّر قليلاً لِيَرى ما الذي لم يُعطه إيّاه الله ؟ فما كان لازماً له أعطاه إيّاه ، من النّعم الظاهرة والباطنة .

في مقابل كلّ ذلك ماذا فعلت أنا ؟ ماذا عَبَدْت ؟ ماذا عرفت ؟ «ما عبدناك حقّ عبادتك وما عرفناك حقّ معرفتك » .

إنّ العبد من إذا قصّر قام إلى ربه فاعتذر

« أول الدين معرفته وكمال معرفته توحيده »

معرفة الله واجبة بحكم العقل :

قضية معرفة الله هي من القضايا العقلية الواجبة قطعاً بحيث أن كل عاقل يحكم عقله ، بوجوب معرفة خالقك ، والمنعم عليك وأنه عليك أن تشكره . والأوامر التي جاء ذكرها في القرآن الكريم من قبيل : يجب أن تتدبّروا . . أنظروا . . . يجب أن تمعنوا النظر . . . تفكّروا . . . وغير **ذلك . كلّها إرشادات من حكم العقل ، أي ما كان العقل يدركه بصرف** النظر عن مقولة القرآن من أنه على الإنسان أن يعرف خالقه والمنعم عليه ، وعليه شكره .

العقل يقول إنه عليك أن تتعقّل الآيات والموجودات . . . عليك أن تدبّر وتتفكّر ، القرآن الكريم هو الآخر قد ذكّر بهذا الأمر ، بل في بعض الآيات أكّد عليه .

أنظر إلى خالقك وخلق طعامك

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾

إن الانسان عليه أن ينظر في أصل خلقه ، كيف خلق من قطرة الماء

المتنة ، هكذا جهاز عظيم (هيكل الإنسان) .

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ على الإنسان أن ينظر إلى الطعام الذي يأكله . عليه أن لا يكون كالحيوان كل همّه النواحي المادية للطعام ولذة البطن وإلا فما الفرق بينه وبين الحيوان من هذه الناحية ؟

بل عليه حينما يأكل الطعام أن يلتفت إلى ما كان عليه هذا الطعام في الأصل ، من الذي هيّأه ، هذا الخبز الذي يأكله ماذا كان سابقاً ؟

﴿ أنّا صببنا الماء صباً ﴾ . . . نحن صببنا عليه ماء (المطر) . . . صببناه ولكن ما أجمله من صبّ . . . حبة حبةٍ وليس دفعة واحدة . . . أيُّ أيدٍ حوَّلَت هذا القمح إلى خبز يؤكل هذه كلُّها وسائط نِعَمِ الله علينا . وكما يقول سعدي :

الغيم والريح والشمس والقمر ، بل والكون كله يعمل
لتحصل على خبزك وتأكله دونما أن تغفل

فليتفكر الإنسان قليلاً في هذا الخبز الذي يؤكل وهذا الماء الذي يشرب . . إنه ساه عن كل ذلك ، لدرجة أنه بكل بساطة يضعه في فمه ... يأكله... يهضمه ويرمي بفضلاته الى الخارج . إن على الإنسان أن يتدبر في كل هذا الذي يحدث ، عليه أن يتعرف الى المنعم الذي يغمره بنعمه

الحيوان يحني رأسه حتى يأكل

لا يوجد حيوان إلا ويحني رأسه حتى يأكل طعامه ويشرب شرابه أما الإنسان فقد وهبه الله تعالى يدين إثنتين يخدمانه فهو يتناول بهما طعامه دون أن يضطر يحني رأسه ، ثم يضعه بكل ببساطة في فمه . إن هذا نوع من أنواع

تكريم الإنسان[1] ذلك لأن الرأس مركز الإدراكات ، لذا يجب ألاّ ينحني لأكل الطعام بل يجب أن ينحني فقط لرب العالمين لأنه عزيز وشريف .

إن الإنسان عليه أن يضع رأسه العزيز والشريف هذا على أحقر الأشياء وهو التراب تواضعاً لرب العالمين .

الجَمَل .. عجيبة في الخلق

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾[2] . لماذا لا تتفكّرون في خَلْقِ الجَمَل ، هذا الحيوان العجيب وكيفية خلقه تلك . . . إن لكل حيوان ، يمشي على أربع ، ركبةً واحدة ، بينما الجمل له ركبتان وأرجله تطوي مرّتان . ثم أنظروا إلى ذلك الإتساق القائم بين أرجله ورقبته .

قيل أنه نقل لأفلاطون أن في الحجاز حيوان له أيدٍ وأرجل طِوال وركبتين . فقال أفلاطون : لا بد أن لهكذا حيوان رقبة طويلة كذلك ، لأنه لا بد له أن يأكل وحتى يستطيع ذلك لا بد أن تكون رقبته متناسبة مع قوائمه .

ثم إنه تعالى جعل طعامه كذلك ملائماً للبيئة التي يحيا فيها ، ففي مناطق الحجاز حيث الصحاري الحارقة وحيث لا وجود للنبات ، لذا فقد جعل طعامه شوك جاف ، أي أنه تعالى جعل لسانه وفمه ومعدته ملائمين لأكل وهضم هذا الشوك المذكور ، فكيف يا ترى يأكل هذا الشوك دون أن يصاب لسانه بجرح أو ألم ؟ ثم كم هو صبور على العطش والجوع لأنه يحاول أن يتكيّف مع بيئته . إنه قادرٌ على تحمل العطش لمدة

---

(١) ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾ (الأعراف / ٧٠)

(٢) سورة الغاشية : الآيات ١٧-٢٢

تزيد على العشرة آيّام ويَقال أنه بـالقرب من نحـره يوجـد ما يشبـه القربـة يستعملها لتذخير الماء .

الكواكب السماويّة وإنبساط الأرض

ألْقِ نـظرةً إلى فوقـك ، سوف تـرى كـل هـذه الكـواكب العـظيمـة بأحجامها التي تفصل بينها ملايين الكيلومترات الضوئية . . . سـوف تراهـا تتـلألأ وتدور في إنتـظام في مدارات حُـدِّدت من قبـل وذلـك عـلى نحـوٍ لا يصطدم بعضها بالبعض الآخر .

ثم ألْقِ نـظرةً إلى الأرض من تحتـك كيف جعلهـا منبسـطة مـع أنها كروية الشكل ودائماً في حال حركة . . . كيف جعلها صالحة للحيـاة لا هي مستنقعـات كلّها بحيث لا يمكن القـرار عليها ، ولا هي صلبـة كلّهـا فـلا يمكن البنـاء أو الزرعـة فيها ، بـل جعلها متنـوعة لتكـون صـالحـة للحيـاة ومختلف أنواع الإستغلال ، الزراعة والبناء وجميع الإستغلالات الأخرى .

ولينظر الإنسان إلى الجبال أيضاً «وَوَتد بالصخور مَيدان أرضـه»[١] . نعم إنّ الجبـال هي التي تحول دون زوال الكـرة الأرضية ، إنها كـالمسـامـير دُقّت بإحكام في سطح الأرض حتى لا ينفرط عقدها لما لها من سرعة مذهلة في حركتَيْها الوضعية والإنتقالية .

اللازم هو يقينٌ يزيل الشك

إن أجزاء عالم الـوجود كلّهـا آيات الله تعـالى وعلى الإنسـان أن ينظر إليها على أنها كذلك . . . لِتكن بـالنسبة لـه مرآة عـاكسة لله تعـالى وإن ما يقال عن عالم الكون بأنه « عالم » ذلك لأنه « يُعْلَمُ به الله » .

---

(١) نهج البلاغة/الخطبة الأولى .

العالم كلّه كتاب الحق تعالى   عنـد من روحـه في تجـلٍّ

عـالم الوجـود كلّه والكون هـو كتاب الخـالق تعالى ، شـاهـدُ علمـه وقـدرته ، طبعـاً هذه المعـرفة الإستـدلالية العقليـة ناقصـة ، يجب أن تبلغ مرحلة الكمال ، يجب أن تكون مقدمة للعلم لأن هذه الإستدلالات العقلية لا تأتي بشيء أكثر من الظنّ ، هي ليست مُطَمْئِنَـة ، على الإنسـان أن يجهد ليبلغ درجة العلم واليقين والتي من نتـائجها السكينـة والطمـأنينة . . . من نتائجها أن لاتدع للإنسان مجالاً للشك والريبة .

على الإنسان أن لا يكتفي بهـذا القدر من المعـرفة ، عليـه أن يسعى لبلوغ العلم ، أن يعـرف الله بالعلم وليس بـالمعرفـة الإستـدلاليـة العقليـة فقط . وبلوغ العلم هو الآخر عبارة عن الإدراك الذي لا يتزلزل بتشكيـك مشكّك أبـداً . . . إدراك الواقع الذي لا يكون ساحة لأيّ نوعٍ من أنـواع الشبهات تعمل فيه . . . يُعبّر عنه أحياناً بالعلم وفي أحيان أخرى باليقين . وهذه الدرجة من العلم أمر بها الله تعالى .

النظر الإستقلالي والنظر المرآتي

هناك نوعان من النظر في ما يتعلق بالمرآة : النظر الإستقـلالي والنظر المرآتي .

النـظر الإستقلالي هـو في أن ينظر إلى المـرآة لذاتهـا . مثلاً يـريـد أن يشتريها ، فينظر إلى حجمها ووزنها ومساحتها وعدم إشتمالهـا على الصـدأ ، وفي هذه الأثناء هو لا يرى صورته المنعكسة فيها .

والنظر المرآتي هـو في أن ينظر إلى المـرآة ليرى صـورته فيهـا وإلاّ فلا شغل له بها .

إن الذي ينظر إلى موجودات العالم نظر الشاري والمريد لها ، لا يرى الله . وفي هذا المجال يقول الإمام أمير المؤمنين (ع)*: « من أبصر بها (أي

الدنيا) بصّرته ومن أبصر إليها أعمته »[1] . الملفت للنظر في هـذه الكلمة من كلمات (نهج البلاغة) ، التعبير فيها بـ« بهـا » و« إليها » إذ يجب الـدّقة في ذلك .

إن حب الـدنيـا وإتبـاع الشهـوات والسعي وراء الـثروة وكـذلـك الإنحلال وارتكاب الذنوب ، هذه كلّها تحول بين الإنسان وبين بلوغه مقام المعرفة . فحيث كل ذنب هو سهم مصوّب إلى عين البصـيرة ، كيف يمكن لقلب كهذا أن يرى الله ؟ إن الـذنب الذي تـرتكبه العـين يحرم القلب من رؤية الحقيقة مهما كان نورها ساطعاً . هذا المضمون يمكن إستخـلاصه من هذه الرواية المرويـة عن الإمام الصـادق (ع) والتي تقول : « الـنظرة الحرام سهم مسموم من سهام إبليس »[2] .

العـين ذي الـنظرة المـريبـة   عن وجنتي الـروح بعيـدة
فـإن أرادت إليهـا الـنـظر   فليكن من مـرآة نـظيفـة

ثم إذا ما أظلم قلب الإنسان لكثرة الذنوب وأحاطت بـه خطيئتـه ، صار منكراً لآيات الله وهو سوف ينكر بالتالي أوضح الحقائق ألا وهي وجود الله تعالى[3] .

إذاً من كـان يبغي السعادة لا بـد له أن يجتنب الـذنوب وإذا إرتكب ذنباً مصادفةً عليه أن يبادر فوراً إلى التوبة .

« أللهم اجعلنا من التوابين وأجعلنا من المتطهرين » .

---

(١) نهج البلاغة/الخطبة ٨٢ .

(٢) سفينة البحار : ج٢ ص ٥٩٦ .

(٣) ﴿ ثم كـان عـاقبـة الـذين أسـاؤا السُّـوآى انْ كـذّبـوا بـآيـات الله وكـانـوا بهـا يَسْتَهـزؤن ﴾ (الروم/١٠) .

يتضح مما مرّ في الجواب على السؤال الذي يقول : لماذا حضور الله تعالى عند كل موجود ، ملاحظٌ من قبل بعض الأشخاص وهو عندهم أوضح من الشمس في رابعة النهار وحضوره تعالى عند البعض الآخر مبهم ومشكوك فيه . نعم إن من لم يعانِ المشقة لا يتيسّر له الحصول على الثروة . . . يجب تحمل مشقة ترك الذنوب ومجاهدة النفس في سبيل الحق تعالى حتى يُمكن الوصول إلى ثروة المعرفة[1] .

يقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسول ﴾[2] . إن الإيمان إيمانان . . . إيمان يحكم به العقل فكل من يدرك أن له خالقاً عليماً قديراً فإنه يكون قد أَسْلَمَ . وكل عاقل يدرك هذا المفهوم ولكن هذا ليس كافياً .

والإيمان الثاني وهو إيمان القلب ، هو الإيمان المطلوب . . . أن يُصدِّق الإنسان بقلبه لكي يكون في مأمنٍ من كل وسوسة وشك[3] . . . لكي يبلغ مرحلة السكينة والطمأنينة أي طمأنينة القلب[4] ومن آثار ذلك الخوف والرجاء ، أي الخوف من مخالفة الله تعالى الرجاء له من خلال طاعته عزّ وجلّ .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ أَلَمَ يإنْ للذينَ آمَنُوا أنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ

---

(١) اللهم ارزقني التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإستعداد للموت قبل حلول الفوت .

(٢) سورة النساء : الآية ١٣٦ .

(٣) ﴿ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ (الأنعام/٨٢) .

(٤) ﴿ أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ﴾ (محمد/٤) .

﴿لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَّلَ مِنَ الحَقِّ﴾[1] أي القرآن الكريم وما يشتمل عليه من تحذيراتٍ ومواعظ إلهية .

عن ابن مسعود يقول : بعد مرور ثلاث أو أربع سنوات على إسلامنا نزلت هذه الآية : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا . . ﴾ ذاك الإيمان العقلي الذي ذَكَرْتُ وهو إعتقاد الإنسان بالله نزولاً عند حكم عقله وفطرته وأما الآن فقد جاء دور قلبه ليؤمن هو الآخر ويخشع لربه ويعلم ويستيقن . . . ثم على الإنسان أن يَجْهَدْ ، بعد أن أمضى فترةً من الزمن لا يجاوز الإسلام والإعتقاد الإستدلالي العقلي . . عليه أن يجهد لتحصيل الإيمان القلبي الثابت الذي لا يتطرق إليه شكٌ ولا ريب . . . . عليه أن يجهد لبلوغ مرتبة الخضوع لله تعالى . . . عليه أن يجهد لكي يُحب المنعم عليه ويضحّي في سبيله . . عليه أن يجهد لأن يتجاوز عن كل شيء من أجل رضى خالقه وَلْيُتاجر معه بماله ونفسه . وهو طالما لم يبلُغ مرتبة هذا الإيمان القلبي فهو لا يزال يعبد هواه . . . لا يزال يركض وراء أهوائه وهو مع ذلك مُسْلم ويقيم الصلاة أيضاً ولكن هذا ليس كل شيء وانتهى الأمر فـ« كمال معرفته التصديق به » . يجب أن يبلغ مرحلة التصديق القلبي . . . يجب أن يعترف القلب بالله ويُصدِّق به .

إن خشوع المحبة يكون مصحوباً بالتذلّل ، والإنسان يتبع ما يحب ويؤمن به . . . إن إيمان الإنسان يجب أن يكون بإلهِهِ . . . لِيَكُنْ همُّه منذ أن يستيقظ في الصباح وإلى أن ينام في الليل . . . كل همُّه أن ينال رضى ربه ، لا أن يتبع هواه وهوسه . « كمال معرفته التصديق به » . . . إنّ المعرفة النظرية والإستدلالية يجب أن تبلغ مرتبة العلم القلبي الذي من آثاره خشوع القلب وهذا هو ما عُبّر عنه في الروايات بـ« النور » . . . . إنّ على الإنسان أن يسعى جهده ليشعّ ذلك النور في قلبه .

---

(1) سورة الحديد : الآية ١٦ .

النور الذي يلقيه الله في القلوب

يقول الإمام الصادق (ع) في حديثٍ له مع « صفوان البصري » : ليس العلم بالتعلّم والتعليم الزائد بل هو نور يلقيه الله في قلب كل من أراد هدايته . إن القصد من العلم هنا هو ذاك الإيمان القلبي وإلاّ فإن العلم المكتسب بل وحتى علم التوحيد أيضاً هما من العلوم المفهومة بالنسبة للإنسان فالعلوم المكتسبة على أنواعها خاضعة له ، كلمّا جدّ أكثر كلّما حصل عليها بنسبة أكبر . إذاً فالمراد من هذا العلم الذي ليس هو بالتعلّم والتّعليم الزائد . . . المراد منه العلم بالله تعالى . . . العلم القلبي وشهود الحق . . . إدراك الواقعيات . . . إنه النور الذي يجب أن يمنّ به الله تعالى وهو الذي ينير القلب ليرى الإنسان الحقائق كما هي(١) . إلهي إجعلني مُدْرِك الحقائق لأنه ما من شيء يمكنه بجهده الخاص إدراك أن الله تعالى هو سيِّده فما هو مقدور بالنسبة للإنسان هو الإستعداد فقط . . . أن يُعِدَّ نفسه لتقبُّل ذلك النور القلبي ليحصل ذلك التصديق والإيمان .

إزالة المعوّقات هي وظيفة الإنسان

إزالة العوائق أي رفع الحجب هي بيد الإنسان نفسه أي أن ما يعترض سبيل النور يحول دون رؤية القلب .

لقد تحدّث القرآن الكريم كثيراً في ما يتعلّق بعين القلب . فالإنسان يملك عيناً ظاهرة يشترك بها مع الحيوانات ويرى بواسطتها الأجسام وله عين أخرى هي عين القلب أي البصيرة بها يدرك المعاني والحقائق . وكما أن العين الظاهرة لا يمكنها الرؤية إذا ما اعترض سبيلها حجابٌ ما ، كذلك عين القلب إذا ما وقف في طريقها حجاب فإنه يحول دون تنوُّرها

---

(١) اللهم ارني الأشياء كما هي .

وإدراكها . وهذا العائق ، على الإنسان نفسه أن يزيله لِيَظْهَر له نور العمل والتصديق القلبي أي حتى يفيضه الله تعالى :

« حافظ » . . . أزِلْ بنفسك حجاب نفسك » .

ما هو هذا الحجاب الذي يحول دون رؤية الحقيقة ؟

في كلامي السابق أشرت إلى أن هـذا الحجاب هـو الأنانيـة ، إذا ما استطاع الإنسان ان يُرَقِّقه إلى أن يزول شيئاً فشيئاً ، يكون قـد بلغ السعادة بأكملها .

حجاب قلبه هذا هو نفسه تلك . . هو الأنـانية والـذاتية التي تحـول دون رؤية الحق فإذا ما زادت رأى نفسه حقاً . . . أنا هو الحق ، من تبعني صار هو أيضاً حقاً . . . ما يليق بالله يتصوره لنفسه .

إن من عَبَد هواه سَمُكَ حجابـه أكثر فـأكثر إلى أن يصـل إلى حدٍ لا يطلب بعده شيئاً إلاّ نفعه الشخصي . هكذا شخص من المحال أن يحصل لديـه تصـديق قلبي لأن تصديقـه القلبي هـذا هـو بنفسـه (لا يـرى إلاّ نفسـه) كالشيطان حينما قال : أنا خير منه ، أي من آدم .

إذا تمكن مع الإيام من التقليل من رغبات نفسـه وتعلقاتـه فإنّ حبّـه القلبي لله وايمانه بـه يزداد . في السُّـورة المباركـة « والشمس » وبعد أربعـة عشر قسماً يعود فيقـول جلّ وعـلا : ﴿ قد أفلح من زكّيٰهـا ﴾[1] . . . على الإنسان أن يقلّل من هذا الحجاب حتى يزول نهائياً .

العقل ، هبة الله للإنسان

لقد خصّ الله تعالى الإنسـان بهبَة لم يهبهـا لأي جزءٍ آخـر من أجزاء

---

(١) سورة الشمس : الآية ٩ .

عـالم الكون . وإنّ كـرامة الإنسـان وشرفه هـو بهـذه الهبـة التي يُعَـبِّر عنهـا بالعقل . فهو قوَّة يستطيع الإنسان أن يُعملها في العلوم والحقائق وواقعيات الأمـور . . . يستـطيـع أن يُعملهـا في عـالم مـا وراء المـادة والجسم . أمـا الحيوانات فلا يمكنهم إلاّ أن يدركوا ما هو محيط بهم من عالم المادة وهو إدراك نـاقص مـع ذلـك إنـه الإنسـان فقط الـذي يمكنـه أن يحيط علماً بمـا وراء الطبيعة . . . أن يُدرِك خواص الأشياء والحكمة من كل شيء . إنه قـوّة لها تشعُّبات يمكنه إستعمالها في كل مجال .

الإحاطة العلمية دليل تجرد الإنسان

هذه الإحاطة نفسها هي إدراك يشهد على تجرد العقل والـروح ومنها يُعلم أن الروح الإنسانية هي غير المادة والماديـات فالجسم لا يمكنـه أبداً أن يحيط علماً بجسم آخر فهذا الحجـر مثلاً لا يمكنـه إدراك ذاك الحجر أو ذاك الـوعاء . إنّ أجـزاء عالم المـادة من المحـال أن يحيط بعضهـا علماً بـالبعض الآخر . إذاً فالإنسان هو الذي يمكنه أن يهيمن عـلى عالم الكـون كلِّه . إنه يدرك كيف يتحرَّك كوكب المريخ وكم هي المسافة التي يطويها .

إذاً فالروح الإنسانية مجردة وليست مادية .

ما هو دليل الماديين ؟ فلو كان الإنسان مادياً فكيف يستطيع حينئذٍ أن يحيط علمـاً بجميع أجـزاء عالم الكـون . . . إنه يـدرك تـركيب وخـواص الأشياء كالأدوية وغيرها التي ما هي إلاّ فرع من فروع تلك القوة العاقلة .

إدراك مسبب الأسباب . . ميزة العقل

من آثار هذه القوّة، إدراك مجموعة العلل والمعلولات فبإمكانها أن تدرك أن عالم الكون كلُّه له علة واحدة تـرجع إليهـا جميع العلل . إنـه الله الذي أوجد عالم الكون هذا ومجموعة العلل والمعلولات . الإنسـان يستطيـع بهذا

العقل ـ في نطاق استعداده وليس بالشكل الذي يليق بهذا الأمر ولا بالشكل الذي هو حقه ـ أن يتعرف إليه تعالى . إن العقل الذي وهبه الله للإنسان يستطيع أن يدرك مجموعة العلل التي تنتهي إلى الله تعالى ، ويتعرّف إلى من هو مسبب الأسباب وموجد العلل .

كل موجود سببه موجود آخر والموجود الأخر سببه موجود غيره وهكذا . إذاً يلزم من ذلك التسلسل وهو باطل . إذاً فيجب الرجوع إلى أصل الوجود المطلق الذي لا يحتاج إلى سبب وهو مسبب الأسباب كلها . إنه العقل الذي يستطيع أن يدرك مسبب الأسباب هذا . . . إنه العقل الذي يستطيع أن يدرك المعاد والخير والشرّ .

ثم إنه من مآثر وآثار العقل الذي وهبه الله تعالى للإنسان هو أنه يستطيع إدراك معاده . وكما يقول أحد العظماء : لو فرضنا أن الوحي لم يكن ولم نعلم بالتالي أن هناك معاداً . . . فإن عقل الإنسان كان سيتوصل بمفرده إلى لزوم المعاد . فالحياة الدنيا لا بد أن يكون لها غاية وهدف حتى يبلغ فيها الإنسان كماله وسعادته .

إن الإنسان يستطيع أن يدرك الخير والشّر وبتعبير أصَحّ ـ كما جاء في إحدى الروايات ـ خَيْرُ الخَيْرَيْن (لأنه لا وجود للشّر فعلاً فما هو موجود إمّا أن يكون خيراً محضاً ، وإمّا أن ترجح فيه كفّة الخير ولكن هذا الأمر ليس موضع بحثنا الآن) . إذاً فالإنسان بإمكانه إدراك هذا الخير أو ذاك . . . بإمكانه التمييز بين الحسَن والقبيح في أفعاله وأعماله وفي أفعال وأعمال الآخرين .

العقل العلمي والعقل العملي ونقصه ورجحانه

لذا فإن الحكماء يعتبرون أن العقل عقلان : واحدٌ علمي والآخر عملي. أمّا العقل العلمي فهو تلك الإدراكات . الإدراكات العامّة المتعلّقة بالله

تعالى وأسمائه وصفاته الكمالية وآثاره وكذلك خواص الأشياء وأما العقل العملي فهو إدراك حسن وقبح الأعمال وإدراك الصّحيح من أفعالنا من فاسدها بحيث يتمكّن من تحديد : أيُّ الأعمال حسن فيقوم بها وأيُّها قبيح فيتركها ويتمكّن كذلك من تحديد أيُّ الأمور توجب السعادة وأيُّها يوجب الشقاء وهذا أمرٌ فطري خبَّأه الله في أعماق البشر ووهبه لكل فردٍ منهم بالحد المتعارف وإن يكن قد خصَّ بعضهم بما يزيد عن هذا الحد إلّا أنه مع ذلك يزيد رجحانه إذا ما شُغِّل إذاً ، بدايةً ، وُهِبَت هذه القوَّة للجميع بالقَدْر ذاته على حدٍّ سواء فإذا ما شغلوها فإنها تزدادُ شيئاً فشيئاً وإذا ما نحَّوها جانباً أي أنهم لم يعملوا بأوامرها فإنها تَقِلّ . إنّها « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله »[1] .

إن وسائط فيض الله تعالى ، أي النبي والإمام (ع) وكذلك العقل العملي بمختلف تشعُّباته ، ضرورية ولازمة لمعرفة المبدأ والمعاد .

إنّ العلوم كلّها مخبّأه على نحو الإجمال في أعماق البشر

وهنا قد يقفز إلى أذهان البعض منا سؤال لا بأس من ذكره وذكر الإجابة عليه .

قبل ذكر السؤال أقول : إن الحكماء قالوا : إن العلم لا يبلغ الإنسان من خارجه فالعلوم على أنواعها مخبّأة في عقل وذات الإنسان ، وما يطرق أسماعنا وتلتقي به أعيننا . . ما يتم إدراكه عن طريق هذه الحواس ، يبعث على استنباط العقل . . . ما كان موجوداً بالقوة في ذات الإنسان يتحوَّل إلى الفعلية بفضل المعلّم والدّرس وبواسطة الحواس . . . تبدأ قوة فكره بالعمل ، فيتحوّل ما كان موجوداً على نحو مجمل إلى أمور مفصَّلة

(١) ﴿ فطرة الله الذي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ (سورة فاطر : الآية ٣٥) .

ويتحقّق ما كان قد إختُزِن في ذاته . إنّ العلوم كلّها مخبّأة بالقوة في عقل الإنسان وهي تحتاج فقط إلى من يذكّر بها فإذا ما إشتغل ، ظهر العلم فيه ، وإلا بقي على حالته من الجمود والوجود بالقوّة .

إذاً ، الجميع يجب أن يكونوا عارفين لِلّه

إذاً ، إذا كان الأمر كذلك أي العلوم كلّها مخبّأة ، على نحوٍ مُجمل ، في أعماق البشر يجب حينئذٍ أن يكون أفراد البشر جميعهم عارفين لله ، يحيون على الخير ، فقد وُهب العقل للجميع ، ويطرق أسماع الجميع أيضاً أن علم معرفة الله يجب أن يتحقق في الكُلّ بينما نحن نرى أن الأكثرية غافلون عن الله ، حتى الكثير ممن يقال لهم علماؤهم أيضاً في واقع الأمر ، غافلون عن معرفة الله ، حتى الحكماء الإلهيون أيضاً هم كآلة التسجيل يعيدون ترديد ما يلقنون دون أن يكونوا قد بلغوا بعد مرحلة اليقين ، وأكثرهم شاكون واهمون فيما يتعلّق بالحقائق والمعارف مع أنها موجودة في ذواتهم ، مع هذا فنحن نرى أن هناك مسافة كبيرة تفصل بين إدراكات أفراد الإنسان . بعضهم يصل إلى درجةٍ يعتبر فيها أن الله معه دائماً حاضرٌ وناظرٌ . يصبح الحق مشهوداً لهم إلى حدّ كما يقول « سعدي الشيرازي » :

يبلغ الإنسان حدّاً لا يرى بعده غير الله
فانظر كم هي رفيعة منزلة الإنسان

في المقابل يوجد أشخاص يشكون في الله تعالى ، يقرُّون بوجودهم ولكنهم ينكرون وجود الله تعالى والحال أنّ وجودهم هم وجميع الموجودات مستمر من الله تعالى . إنهم لا يدركون هذا الأمر .

كان هذا ذلك السؤال الذي كُنا نريد إثارته وخلاصته هي : أن العلوم كلّها مخبّأة في عقل الإنسان وما يتم إدراكه عن طريق الحواس ما هو إلاّ مذكّر بذلك العلم الفطري ومُظْهِرٌ له وعلوم الموجودات كلّها ، ومظاهر

الوجود ، ترتبط بالله ـ وبعبارة أخرى ـ الإدراكات على أنواعها ترجع في الأصل إلى الله تعالى وعلى هذا فالجميع يجب أن يكونوا عارفين لِلّه ، ومن أهل التوحيد ، بينما نحن نرى العكس ، أكثر الخَلق لا يعلم شيئاً أو هو مُنكر أو غافلٌ عن هذه الحقيقة ؟

المستلزمات غير كافية إذا لم تُزَلْ العوائق

ما ذُكِر من أن في العقل قوة إدراك العلوم على أنواعها ، هو من قبيل المستلزمات وليس علّة تامّة أي إنه يجب الإلتفات أيضاً إلى وجود العوائق ، ومن ثم العمل على تنحيتها ، لنصل بعد ذلك إلى نتيجة ملموسة . المستلزمات ، وهي أن العلوم كلُّها فطرية ، موجودة وكذلك المنبِّهات الخارجية موجودة ولكن بشرط أن لايكون هناك عوائق أيضاً . إن الماء الذي تريدون غَلْيَه يحتاج إلى مستلزِمات . فأنتم تصبُّون الماء في الوعاء ثم تضعونه على النار . هذه كلُّها كانت مستلزمات ، ولكن يجب أيضاً أن لا يعترض ذلك عائقٌ ما . إن لم تَهُبَّ ريح ، أو لم يسقط مطر ، ولم تنطفىء النار ، أو من جهة أخرى أن لا يداوموا على وضع قوالب الثلج في وعاء الماء .

معلوم أن هناك عائقٌ ما يحول دون بلوغ الإنسان فِعْلِيَّة العلوم . بمعنى آخر لماذا هو لا يصبح عارفاً لله ؟ لماذا لا يشرق نور عقله ؟ لماذا لا يظهر ضياء ذاته ؟

في هذا المجال، توجد رواية شريفة في «أصول الكافي» كتاب العقل والجهل . . .حديث نوراني مفصَّل مرويّ عن الإمام موسى بن جعفر (ع) يذكره لِهِشام ولِلحق إنه من اللائق بأهل العلم أن يمعنوا النظر كثيراً في هذا الحديث . إنه (ع) يذكر في آخر الرواية سبعين جندياً للعقل وسبعين آخرين للجهل . ما هو شاهدنا هنا فيما يتعلّق بالعوائق هي جملة على هذا النحو :

ما لم تُبعد عنك العوائق . . .

العوائق التي تحول دون بروز وتحقُّق العلوم المكنونة في ذات الإنسان هي في هذا الحديث الشريف ، متضمَّنة في جُملاتٍ ثلاث :

« يا هشام ، من سلَّط ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله : من أظلَمَ نورَ تفكُّره بطول أمله ، ومحى ظرائف حكمته بفضول كلامه ، وأطفأ نورَ عِبرته شهواتُ نفسه . فكأنما أعان هواه على هدم عقله . . ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه » .

يقول (ع) : هذه هي العوائق الثلاثة التي لا تدع ما جعله الله في العقل يتحقَّق . . . لاتدع الإنسان يبلغ العلم . . . يبقى يبحث ويحقِّق لسنوات ، ويحصل على الأدلة والبراهين ولكن هذه العوائق لا تدع ما قد خُبّيء في ذاته يكتمل .

العائق الأوّل والشديد الأهميَّة والذي من كان عالقاً فيه يكون قد ساعد على هدم عقله . . . يكون قد هدَم بيده هو هذا الأساس المتين ويصبح بالتالي مساوياً للحيوان في عدم الإدراك .

طول الأمل . . . يُعْمي ويَصم

العائق الأوّل من العوائق الثلاثة ، طول الأمل ، الأماني العراض ورغبات النفس ، تلك الرغبات التي تعود إلى الجوانب الحيوانية والحياة اليومية . الأكل ، والشرب ، والنكاح ، والمسكن ، واللباس ؛ يجعل همّه هذه الأمور . . . همُّه في النواحي المادية[1] وإكتناز الأموال . يجعل أمنيته ، في أن يكون سيداً ، في المقدمة . . . همُّه الحصول على الشهرة وأنْ يكون

(١) ﴿ زُيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴾ . (آل عمران/١٤) .

زعيماً لقرية أو ناظراً أو مديراً لمدرسة حتى ، فكل واحدة من هذه الأماني تحتاج وقتاً ، أي إن كلّ واحدة منها يلزمها التخطيط لها ، وأنواع المعاناة في انتظار تحققها . يقال للأماني المادية من قبيل رغبات النفس . . . يقال لها : الأمل ، وهي كُلُّها وهم . إذا أَعْمَل الشخص عقله الذي كان من المقرَّر أن يُعمِلَه في جانب إدراك الكلّيات . . . إذا أَعْمَلَه في أفعالِ الله التي هي نور ومنوَّرة في آن ، وكل من توجَّه بعقله صوب الله تعالى ، فهو مُستنير . وأما من أعرض عن النور ، وسقط في الظلمة ، فهو سيكون نهباً لها . إنّ الدنيا والحياة فيها ، ظلمتان ، فمن سقط في الماديّات ، تنزَّل مستوى وجوده . إنه يخرِّب بذلك ذلك الإستعداد الذي وَهَبَه إيَّاه الله سبحانه وتعالى . وباختصار فإن الآمال والأماني المادية تُعمي وتُصَمّ عن إدراك الحقائق .

الإنسان على مفترق الطريق

كان كلامنا يدور حول الحديث المروي عن الإمام موسى بن جعفر (ع) فيما يتعلّق بالأمور التي توجب هدم العقل . . . العقل الذي جعله الله تعالى في أصل وجود الإنسان حتى يكتسب بفضله تلك العلوم التي تلزمه وتتيسَّر له تلك المعارف التي عليه أن يحصِّلها بنفسه . فإدراك الكلّيَّات والعلم بالمبدأ والمعاد وبأسماء الله الحسنى ، وكذلك إدراك حقيقة ذاته وأن من أين أتى وإلى ما هو صائر ولماذا أتى ثم هو بعد ذلك يرحل ؟ هذه كلّها من مختصات الإنسان . ألا فليرحم الله كل من أدرك هذه الأمور كلّها واهتدى إلى سبيل سعادته وأعمَلَ عقله وفكّر فإنّه بذلك كله تتحقق حقيقة الإنسان وإنسانيته .

يقول الشاعر ما مضمونه : أخي . . . ما أنت إلاّ هذا الفكر ، وما دونه فهو عبارة عن عظامٍ وعروق ليس إلاّ .

إن الإختلاف بين الإنسان والحيوان هو بالعقل ، وإلاّ فما الذي يميزهما عن بعضهما البعض ؟ ثم هو كلّما أعمل عقله أكثر ، كلّما زاد إرتقاؤه إلى عالم الإنسانية .

إن حديثنا يهدف إلى التعرف على عوائق التعقُّل من كلام الإمام (ع) . فقد أوضح (ع) أموراً ثلاثة : « من أظلم نور تفكره بطول أمله » وتمنّى ما هو فانٍ . فما كان فانٍ ، عندما يعمل له الإنسان ، يُصبح مصيره ذاك أيضاً أي الفناء والزوال . إنّ شرح المرحوم مُلا صالح المازندراني لهذه الرواية شرح ظريف ، فهو يقول : إنّ كل ما يشغل فكر الإنسان من اللذائذ الدنيوية والشهوات ، يُعطل تفكُّره في أمر الآخرة وينسيه العالم الآخر . إن من كان كلُّ همِّه أن يمتلك في هذه الدنيا القصور والمنتجعات فكيف يفكّر حينئذٍ بحوض الكوثر ولقاء علي (ع) !! إنه لينسى ما عدا ذلك من الأمور . وهذا ما هو مصطلح على تسميته بـ« الخذلان الإلهي » فالله سبحانه وتعالى يُسْلِمَه حينذاك لنفسه .

والدليل على ما نقول واضح ، فمن كان يطلب الأمور الدنيوية الفانية يبقى يفكر فيها دائماً ، ولازمة هذا الأمر أن يُلقي بالأمور الأخروية الخالدة وراء ظهره ، ويُسْلِمُها للنسيان ، وما كان موجوداً بالقوَّة ، في ذاته وفطرته ، يمّحي ، وربما يصل به الأمر حدَّ الموت على غير الإيمان .

في الروايات شُبِّهت الدنيا والآخرة بالضرَّتين ، المرأتان اللتان لهما زوج واحد ، فهما عادةً لا يتفقان ، كلٌّ منهما تريد جذب الزوج إلى نفسها . وفي رواياتٍ أخرى شُبِّهت الدنيا والآخرة بالمشرق والمغرب أي أن بينهما مسافة كبيرة يقابل أحدهما الآخر فهو إن أُعمَلَ فكره في الدنيا تخلَّف عن الآخرة .

وفي رواياتٍ أخرى أيضاً ، تُشبَّه الدنيا والآخرة بالماء والنار(١) .

---

(١) لئالىء الأخبار .

يقول الشاعر ما مضمونه : « تريد للدنيا أن تكون وفق ما تريد ، وللدين أن يحافظ على ما هو عليه . إنّ هذا لا يمكن أن يتحقق أبداً لأن الكون ليس في قبضتك تتصرف به كيف تشاء » .

أتريد للدنيا أن تكون كلّها لك بما فيها من لذائذ يمكن تحصيلها بأي وسيلةٍ كانت ، ثُم تريد بعد ذلك أن تكون الآخرة هي الأخرى مضمونه لك ؟

يقول الشاعر ما مضمونه : « لقد سعينا وراء الدينا ومع ذلك لم نبلغ ما كنّا نرجو . فكيف بنا يا رب ونحن لم نسعَ وراء الآخرة أبداً » .

كان كلُّ همّنا أن تتأمَّن دنيانا فرأينا أنها لم تفيدنا في الكثير من مواقعها إذا كان حال الدنيا كذلك إذاً فما هو حالُ الآخرة ونحن لم نسعَ لها أبداً ؟

إنّك لتسكن في الآخرة ما كانت قد بنته يداك

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها
إلاّ التي كان قبل الموت بانيها
فإن بناها بخير طاب مسكنها
وإن بناها بشرٍ خاب حاويها

بعد الموت لا وجود لبيتٍ إلاّ ما كان قد بنيته بنفسك ، وإلى الحد الذي كنت قد زودته فيه بالأثاث . فإذا كان لديك بناء خيرٍ وصالح ، فطوبى لمن يؤمن لقبره الرَوْح والريحان فإنه نفسه الذي سوف ينتفع بذلك . أما الشخص الذي يجعل في قبره ناراً على نار فإنه بذلك يكون قد أحرق كلّ ما له من لباس ، وطعام ، ومسكن ، وكل شيء . وأخيراً فإن طول الأمل يحول بين المرء والتفكُّر في الآخرة . كان هذا هو الخطر الأوَّل والعظيم ، أمّا الخطر الثاني .

ما هي الحكمة ؟ وما هي آثارها ؟

« ومحى طرائف حكمته بفضول كلامه »

الحكمة تعني إدراك الحقائق ودقائق الأمور الماوراء حسيَّة . إن للإنسان إدراكات أو حواس ، أي عين ، وأذن ، وما إلى ذلك ، وهي حواس يشترك فيها مع الحيوانات ، وله إدراكات أخرى خاصة به ، وهي علم حكمة دقائق الأمور . مثلاً ليس في الدنيا سعادة مطلقة بالنسبة للإنسان ، هذا موضوع دقيق . المال والمقام لا يؤمنان للإنسان حياة طيِّبة ، ومن يريد أن يتمتَّع بحياة هنيئة ، ويسعى للحصول على الراحة المطلقة ، فهذا كلُّه غير ممكنٍ هنا . هذا المفهوم لا يدركه كلُّ شخص ، ولهذا فإنك تراهم يحرصون كل الحرص ، ويتنازعون ، ويتجادلون ، ويتصارعون ، من أجل الحصول على مالٍ أكثر ومقام أرفع .

أمَّا الشخص الحكيم فهو يعتقد أن المال ما هو إلاّ لرفع الحاجة ، وفائضه يتسبب في إيجاد المتاعب لصاحبه ، ويورثه الحسرة ، وكذلك ليس له حدٌّ يقتنع به . وهو وإن امتلك ملياراً منه ، فإنه يسعى وراء مليار آخر الآخر ، في نفس الوقت يرى كيف أن الكثير من أصحاب الأموال يعانون المصاعب .

المقام أيضاً لا يجلب السعادة فهو منذ اليوم الأول الذي يصبح فيه في منصب الرئاسة ، تبدأ المشاكل ، والمتاعب تواجهه ، والحسد لا يتركه يستكين .

باختصار . . . إن الإسترآس بلاءٌ هو الآخر ، إلاّ أن يأخذ على عاتقه الإستقامة في طريق الله ، والخدمة لخلقِه ، حتى ينال أجره في مقابل كل تلك الأتعاب .

باختصار . . . إن المال والمقام لا يجلبان إلاّ المتاعب ، هذا أمرٌ يُدركه الحكيم وهو واقع صحيح وسليم مئة في المئة . إن فناء الدنيا وبقاء الآخرة

أمـرٌ يجب إدراكـه بـالعقـل . أو في المعـارف ، يجب إدراك التـوحيـد الأفعالي . . . يجب فهم معنى « لا حول ولا قـوة إلّا بالله » ، كـلُّ هذا هـو حكمة .

الثرثرة تبعد عن الحكمة

الطرائف : هي جمع طريفة ، وكل ما هو جديد ومدهش يقـال له : طـريفـة وهي الأمـر الـذي ليس في متنـاول الجميـع . والآن لنعـد لأصـل الرواية : « ومعنى ظرائف حكمته بفضول كلامه » الذي يصبح ثرثـاراً يُحرم من الحكمة وهو الـذي لسانـه متروك عـلى غاربيـه ، يتكلم بكلامٍ لا معنى له ، ولا طائل منه ، يهدر نصف ساعة من وقته في الأراجيف والأبـاطيل ، إنه يمحو حكمته .

فضول الكلام هو الكلام الزائد في الأمـور التي ليس فيها من خـير ، نفس تعبير القرآن الكريم حيث يقول : ﴿ لا خَيْرَ في كثيرٍ مِنْ نَجْوايهُم إلاّ مَنْ أمَرَ بِصَدَقَةٍ أوْ مَعْروفٍ أوْ إصْـلاحٍ بينَ النَّـاس ﴾[1] يُطفىء نـار الفتنة بكلامه .

إثـارة الفتنة ليست إنجازاً، لو كنت رجـلاً فعـلاً ، أطفىء الفتنـة . باختصـار . . . مـا زاد من الكـلام عـمّا هـو لازم وضروري فهـو ليس إلاّ إتلاف للعُمر ، ومحـوٌ للحِكَم المكنونـة في رأسه . قلنـا إنّ الحكمة مـوجودة داخـل ذاتِ الإنسـان حيث يجب إظهـارهـا وفضـول الكـلام لا يُمَكِّنُهـا من الـظهـور ، الكـلام الـزائـد يؤدي إلى عَـدَم خـروج حكمتـه من القـوة إلى الفعل .

إن قلب الإنسان ينبوع يجب أن تَنْبُع منه الحكمة كما جـاء في حديث

---

(١) سورة النسـاء : الآية ١١٤ .

رسول الله (ص) : « من أخلص لله أربعين صباحاً جرت ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه »[1] .

الكلام في غير الله ، كومة قشٍ على ينبوع القلب

إن قلب الإنسان هو مكان الحكمة ، ولكن واأسفاه ! إذ هو يمحو هذا الينبوع . بعضهم يَسُدُّه بالحجارة والتراب ، والإنسان لا ينطق بحرفٍ إلّا ويكن له أثر على قلبه . إن فضول الكلام شوك وقشٌ يُلقى على ينبوع القلب ، وصاحب هذا القلب سوف لن يرى وجه الحكمة ، بعد ذلك ، أبداً لأنها لن تعود للظهور .

يصعد المنبر ويخطب ولكن بقصد شدّ إنتباه المستمعين إليه ، ليس هدفه أن يستفيد المستمعون ، ولكنه يجب أن يقولوا له : « بارك الله » . . . أن يرضوا عنه . يجب أن يجذب الناس إليه .

يقول الشاعر ما مضمونه : إن شخصاً يحاول جذب الناس إليه عن طريق التعابير الحلوة لن يبلغ الحكمة أبداً .

عزيزي . . . طالما أنت تفكّر آنياً أن ماذا آكل حتى يجود نطقي ، وماذا أقول حتى يُعجب الناس ، سوف لن تبلغ الغاية . إذا كنت تفكّر دائماً في شدّ انتباه الناس إليك بما تقول وتفعل ، فلن تُوَفّق ، وأوّل من يُصدم هو أنت ، لأن هذا كله يُعتبر « فضول كلام » يعمل على إنضاب ينبوع حكمتك .

طبعاً الكذب ، والغيبة ، والتهمة ، أسوأ بكثير . لا أقول القول بغير علم وكشف السرّ وإهدار كرامة الشخص ، بل المقصود هو فضول

---

(١) أربعين الشيخ البهائي .

الكلام أي الكلام الذي هو في غير محلّه والذي هو غير ذي نفع . إنه لا يتجمّع كالقطرات التي تمحي معنويات القلب فكل ما يدخل يجب أن يمحي ضدُّه ، فإذا دخل القلب شيء من الباطل فإن الحقّ يمحّي ، كل قطرة ماءٍ فاسدة تُصَبُّ في الوعاء الذي يحتوي على ماء الورد فإنَّ ماء الورد يفسد بنفس تلك النسبة ، وكلّ كلمة باطلٍ تزيل هي الأخرى حكمةً ما .

خراب القلب نتيجة إنحراف اللسان

في حال لم يكن خَرِباً كثيراً مع ذلك له أثره الوضعي . مثلاً في هذا المثال نفسه ، لم يَعُد ماء الورد ذاك خالصاً ، وفي قلب الإنسان كذلك ، لا تبقى الحكمة المطلقة ، بل هي لا تبقى كذلك لاختلاطها بالباطل ، ثم إن أكثر الناس يقعون في الخطأ . . . يقعون بشُبهات عقائدية عن طريق خراب قلوبهم ، وخراب القلب هو الآخر نتيجة لانحراف وعدم استقامة اللسان .

الخطيب الذي يخطب في مجموعة من الناس ، وهم يستمعون إلى ما يقول ، فيُعجِبُه ذلك ، حينئذٍ يكون قد وقع في مَعرَض الخطر . . . يسعى ليقول ما يُعجبهم ويجهد لئلا يتلفظ بكلمة لا تُعجب فلاناً من الناس . فإذا استمر على هذه الحال ينتهي به الأمر إلى حد قول كلّ كلامٍ باطل حتى يجلب انتباههم ، ويترك كلّ كلامٍ حق لا يقوله عسى ألّا يرضي فلاناً منهم .

مثال ذلك رأيناه في كتب وخُطَب « المنافقين ضد الشعب » كيف أنهم كانوا يحققون أهداف الشيوعية على أنها الإسلام الحق وذلك بتحريفهم لـ « القرآن » و« نهج البلاغة » لقد أسسوا مذهباً إلتقاطياً وخدعوا الكثير من الفتيان والفتيات .

في الحقيقة المستمعون لهكذا خطباء هم معبود الخطيب . إنه يعبدهم ويريد رضاهم . هكذا إنسان ثرثار الذي هدفه شد الأنظار . . . من أين

للحكمة أن تبقى في قلبه ؟ من أين للحقيقه ان تظهر من قلب هكذا شخص ؟ إن كلّ همّه أن يُصبح رئيساً فمن أين له أن يدرك لا إعتبارية الرئاسة ؟ .

سرير المُلْك والتابوت الخشبي

من بين المواعظ التي قلتها أيام الطاغوت في المسجد الجامع ، جُملة سبَّبت لي لمدة طويلة المتاعب والإعتقال والسجن وتلك كانت هي أن « سرير الملك آخره تابوت خشبي لا قيمة له » .

مُلْكٌ كهذا ما فائدته حتى يجهد الإنسان للوصول إليه أو الحفاظ عليه إلى هذا الحدّ . قالوا : أنت عرَّضْت بالمَلِك ، بينما في واقع الأمر أنا بيَّنت الحقيقة . . . نصحت ، ولكن هم قالوا : لقد تمنَّيت موت المَلِكْ .

خلاصة بحث اليوم هي أن فضول الكلام . . . الكلام الزائد الذي لا معنى له والذي لا تترتب عليه اى نتيجه ، يمحو الحكمه من القلب وهذا علينا جميعنا أن نحفظ ألسنتنا عن الأمور التي لا معنى لها والتي لا فائدة منها .



الفصل الثالث

****

١ ـ العقل هو للتعقل والتفكّر
٢ ـ برهان بسيط على المعاد
٣ ـ الجسم كلّه والحكمة الإلهية
٤ ـ الخضوع لِلّه
٥ ـ الخطوة الأولى في تهذيب التفكّر
٦ ـ التفكّر في مبدأ التكوين
٧ ـ سبيل التعرُّف إلى المعاد
٨ ـ إدراك عظمة الخلق يوجب تقوى القلب
٩ ـ التدبُّر في الصفات والأقوال .

بسم الله الرحمن الرحيم

العقل هو للتعقُّل والتفكّر

﴿ فلينظر الإنْسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ من مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرائبِ إنَّه عَلى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ .

خط البحث هو في لزوم التفكُّر . فكل قوة جعلها الله تعالى في الإنسان ، هي لغاية ونتيجة ، وعلى الشخص أن يُعْمِل هذه القوّة وإلاّ فهو يكون المسؤول عن حرمان نفسه من الخيرات والبركات التي تحصل له بواسطتها . إن القوّة العاقلة ، التعقل والتفكّر هي من أعظم النعم التي وهبها الله تعالى للإنسان ، وهي من أعظم إمتيازاته عن الحيوان . يقول تعالى : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾[1] باعتبار هذه القوّة العاقلة التي إن أعملها بلغ تلك السعادة التي خلق لها ، وإلاّ فهي تضمُر وتموت ، وفي النتيجة ، قد ينحط إلى أسفل السافلين في سورة «تبارك» حيث تتحدث عن أهل جهنم ولماذا هذا الإنسان يصبح منهم يقول تعالى : ﴿ وَقَالُوا لو كُنَّا نَسْمَعُ أوْ نَعْقِلُ ما كُنّا في أَصْحَابِ السَّعير ﴾[2] .

«فلينظر» لا بد للإنسان أن يتفكّر مما خُلِقَ ،حتى يتعرّف إلى ربّه بفضل

(١) سورة الإسراء : الآية ٧٠ .

(٢) سورة الملك : الآية ١٠ .

هذا التفكّر ، ويدرك كيف من قطرة ماءٍ نتنة ، أيّ أجهـزة عظيمـة خَلِقْ . من النـطفة إلى العلقـة ثم المضغة ، ومن بعـدها خَلْقُ العـظام وتشكُّلُها ، عنـدئذٍ ينمـو عليها اللحم وبعـد الإكتمال ، يفيض عليهـا النفس النـاطقـة والروح . إنه إذا ما جاء إلى هذا العالم وبلغ سن الرشد ، عليه أن يتفكّر : أنا ماذا كنت وماذا أصبحت .

حَادِثٌ بدون مُحدِثٍ مُحَالٌ

التفكّر الأوَّل : هل يُمكن لشيءٍ أن يوجد نفسَـه بنفسه ؟ كـل مخلوقٍ لـه خـالق . يقـول المرحـوم السيـد « إبن طـاووس » في كتـابـه « كشف المحجّـة » : هذا المفهـوم ، أي إن كل حـادثٍ لا بُدّ لـه من مُحْدِثٍ ، هـو مفهوم فطري عند الإنسان ، فهـو يُدرك من الأيّـام الأولى ، التي يبلغ فيها حـدّ التمييز والشعـور ، أن كلّ أثـر تحققت له الفعليـة ، صـار لـه وجـود خارجي أي وجد ، فهو لا بُد له من موجد . ويضربون لـذلك مثـالاً : إنّه إذا كان طفل عمره سنتان أو ثلاث . . . إذا كان هذا الطفـل جالسـاً ، ثم تضعون من خلف ظهره شيئاً أمامه ، دون أن يشعر بكم ، فإن هذا الطفل قبـل أنّ يَمُدَّ يـده إلى ذلـك الشيء ينـظر إل جـالبـه ، يبحث عن الشخص الجالب لهذا الشيء ، لأنه يُدرك أنّ هذا الشيء الذي لم يكن موجوداً هنـا ، إذا وُجِـدْ لا بد لـه من موجِـد . إذاً من البديهيّـات الأوليَّة والفـطرية عنـد الإنسان هي أنّ كُلّ حادثٍ لا بد له من مُحدِث . ثم إنَّ خصائص المُحْدِث تُعرف من الحادث نفســه ، فإذا كـان الحادِث غنيـاً بآثـار العلم والحكمة . يُعرف حينئذٍ أنّ محدِثه عليم وحكيم وقادر مطلق .

إذا قال أحدٌ : إن ساعة وُجدت بنفسها ، وإنّ حيواناً ما أوجدهـا ، فهل يقبل منه أحد ؟ من البـديهي أن صانـع هذه السـاعة التي تعمـل على هـذا النحـو من التنـظيم ، ودوائـرهـا الصغيرة والكبـيرة متصلة ببعضهـا البعض ، وكلٌّ منها يقوم بعملٍ معـينٌ ، لا بد أنـه يمتلك علماً وقدرة ولكن

طبعاً في حدوده هـو . إن علم وقدرة المُحدِث تعرف من الحادث نفسه . فَلْيُمْعِن الإنسانُ النظر في جسمه هو بالذات . . فلينظر إليه من أمِّ الرأس وحتى أخمص القدمين ، هل يرى عرقاً واحداً أو عصباً واحداً دون حكمة أو فائدة ؟ كلُّها لها حكمة ومصلحة .

الظفر . . . رمي الفضلات ومُتَّكَأ الإصبع

وكمثالٍ على ذلك نشير إلى واحدٍ أو إثنين من الأعضاء التي قليلاً ما نلتفت إليها : من بين أجزاء الجسم ، الظفر حيث الفضلات والزوائد الغذائية التي تُستهلك . . . المواد التي لا تنفع الجسم ولا يتم هضمها ، يتم إخراجها منه على شكل مدفوع وشعر وقسم آخر منها على شكل ظفر . ما هي الحكمة من ذلك ؟ هذا الشكل الذي للظفر وهذه الصلابة التي له لماذا ؟ لذلك حِكَمٌ عديدة ، فهذا الظفر بما له من صلابة يشكّل متكأً لرؤوس الأصابع ، فكما تعلمون ، فإن الإنسان يقوم بأعمال كثيرة بواسطة أصابع يده ، إنه يحمل ويضع أشياءً هي نوعاً ما ثقيلة تحتاج إلى متكأ فالضغط كلُّه يحدث على الأصابع . فإن لم يكن الظفر موجوداً ، ولم يكن للإصبع متكأ ، لما تمكّن الإنسان من رفع الأشياء الثقيلة ، ولهذا عندما تقلِّموا أظافركم أكثر من اللازم تشعرون بالأذى عند رفعكم الأشياء الثقيلة . ثم إنَّ هذا الظفر هو عضو بسيط جداً نقلِّمه ونرمي به بعيداً بانتظام فكم فيه من ميزة مكنونة ؟

تجويف في وسط القَدَم يُسَهِّل له القيام بوظائفها

هناك حديث في المجلَّد (١٤) من بحار الأنوار يقول : إن حكيماً هندياً لم يكن موحداً ولا مسلماً جاء إلى المدينة وحضر في مجلس الإمام الصادق (ع) . أثناء الحديث سأل (ع) : لماذا أوساط الأرجل لها تجاويف ؟ وكان هذا الحكيم يدّعي معرفته وعلمه بكلّ شيء ، ولكنه عجز عن الإجابة

على سؤال الإمام (ع) وقال : لا أعلم ولكن أنت قُلْ لماذا ؟ خلاصة جواب الإمام (ع) أنه قال : لو كانت راحة القدم كلُّها مستوية لكان تعذَّر المشي ، ولكن لأنَّ وسطها مجوَّف قليلاً سَهُلَ المشي ويضرب لذلك مثالاً ويقول (ع) :

إن الحجر الذي يسقط على الأرض ، إذا أرادوا أن يرفعوه ، فإنه يصعب عليهم ذلك ، ولكن لو كان لهذا الحجر نتوءً في جانبه ، يسهل حينئذٍ رفعه بواسطة المِخْل على نحوٍ يمكن فيه لشخص واحد القيام بهذا العمل . والله سبحانه وتعالى جعل راحة القدم مجوَّفة حتى يَسهل على الإنسان المشي والحركة .

« ألا يعلم مَن خلق »

هل إنَّ خالق هذا الجسم لا عِلْمَ عنده ؟ هل هو مادة ؟ هل يرضى وجدانك بذلك ؟ يجيب : نحن لم نذهب لنرى بل حتى الذين ذهبوا إلى الكواكب الأخرى أيضاً لم يشاهدوا الله . كل مكانٍ إرتادوه لم يروا فيه الله . عليك نفسك أن تُدرك وتُحكِّم عقلك فما هي حدود رؤيتك ورؤية الآخرين . إن العين الحيوانية التي تشترك فيها مع كلِّ الحيوانات يمكنها رؤية المادة . . . يمكنها رؤية الجسم ، ليس كلُّ جسم بل الجسم المركَّب غير الشفّاف فهي أيضاً لا تستطيع أن ترى جسماً لطيفاً كالهواء مثلاً . فكيف تُنكر كل ما لاتراه ؟ إن الهواء الذي يحيط بالأرض هو جسم مركَّب ولكنه شفاف إلى حدّ لا تراه العين ولكنه مع ذلك يُحس . . يُتَنَفَّس ، لا تتوقَّع أن تراه . إننا لا يمكننا حتى تمييز الماء المصفى جيداً من الكأس النظيفة جداً إذا ما ملئت به . باختصار ، يشترط في الرؤية وجود المستلزمات وإنعدام العوائق المتعدِّدة . هل بإمكانك أن تُنكر القوة الكهربائية في الوقت الذي لا تراها ؟ نفسك أنت ، هل تراها ؟ إن العقل لايقول أبداً : إن كل من وكلّ ما لا أراه فهو غير موجود .

« إنه على رجعه لقادر » . نفس الشيء يحصل بالنسبة للمعاد بعد التفكّر في هذا الجهاز العظيم . فهل الذي خلق هذا الجهاز العظيم ليس له هدف ؟ كل دقائق الحكمة والعلم هذه التي أبدعت في هذه الموجودات لماذا هي ؟ مثلاً خَلْق الإنسان ليومَي الحياة الدنيا هذين فليأكل وينام ويتوالد ويرمي بالفضلات خارجاً ، ويقضي شهوته ويغضب ويموت ثم ينتهي كل شيء ؟

إن هذا ليس إلاّ عملاً لا جدوى منه ﴿ **أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾[1] . حقاً لو لم يكن هناك معاد لكان نظام الخلق كلُّه لغواً وعبثاً . أن يأكل ويتخلى ، كل واحد منهما غاية للآخر . إنه يأكل كي يتخلّى ويتخلَى كي يأكل. إن هذا مستبعد وغير عقلاني حتى لو لم يكن هناك وحي مع ذلك لكان حَكَمَ الإنسان إستناداً إلى عقله أنه لا بد من وجود عالم الآخرة وعوالم أخرى ليكون الإنسان بالتالي قد خُلِقَ من أجلها ، وإلاّ فإن هذا العالم نفسه لن يكون المنزل والمقعد الأصلي للإنسان . هنا مع جميع ما يرافقه من أمورٍ لا تناسبه ومتاعب : الأمراض على أنواعها ، والمشاكل ، الإبتلاء بحسد الحاسدين ، وشر الأشرار . . الخ إذاً لا بد من وجود عالم آخر حيث السعادة المطلقة موجودة هناك . هنا وطن الحيوان وإلا فالآخرة هي وطن الإنسان . يسألون كيف يمكن للإنسان أن يحيا ثانية بعد أن يكون قد صار تراباً وطرأت عليه تغيرات متعددة ؟ يذكر الله سبحانه وتعالى الجواب على ذلك في الآية التي تُلِيَت ، يقول عزّ من قائل : ﴿ **إِنَّهُ عـلى رَجْعِهِ لَقَـادِرٌ** ﴾ إن ما في العالم هو تراب ، نموذجٌ عن أصل القدرة والعلم الإلهيين . ﴿ **وَإِن مِنْ شَيْءٍ إلاّ عِنْدَنَـا خَزَائِنُـهُ وَمَا نُنَـزِّلُهُ إلاّ بقـدرٍ**

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ١١٥ .

مَعْلُوم ﴾[1] .

الخـزينة مـوجودة في عـالم الغيب والقليل منهـا قد نـثر في عـالم المـادة هذا . مثلاً من خزائن الغيب الإلهي الرائحة العطرة ، وقـد نثرت ذرةٌ منهـا في عالم المادة هذا . من بينها الرياحين على أنواعها ، والزهور ، والعطور . هناك أيضاً أصل خزينة رائحة محمد (ص) وآل محمد (ع) الـذي هو أصـل الجنّة . الروائح الدنيـوية العـطرة تتواجـد في منطقـة محدَّدة لا تتجـاوزها ، وهي من حيث المدة محدودة أيضاً ، تبقى عطرة إلى زمان محدَّد ، أما رائحة الجنة فإستناداً إلى الرواية المرويـة عن الإمام الصـادق (ع) فإن رائحـة الجنة تُشْتَمُّ من على مسافة ألفي سنة فيا لها من خزينة ؟ أيضاً بقيَّة الـرواية تفيـد كذلك ، يقول (ع) : مع ذلـك فإن قـاطع الـرَّحم ، وعاق الـوالدين ، لا يشمّ رائحة الجنة ، أي فكيف يدخل الجنّة ويتنعَّم بنعيمها .

الأتقياء هم الذين ينتفعون من النِّعَمِ الأخرويّة (الخالدة)

إن الله تعالى قد أعـدَّ النِّعم الخالـدة لأهلِ التقـوى[2][3] شرط أن لا يكونوا متشبثين بالأرض وأن يكونوا قد هجروا إتِّبـاع الهوى[4] . بـاختصار هي فرع على التقوى . يوم القيامة يظهر المخبَّأ[5] . ما كـان مخبَّأ في رأسـه يتجسم . إنّ غلبـة المعنى على الشكـل لا تظهـر في عالم المـادة ، ولكن يوم القيامة تـظهر ، فيبـدو شكل الإنسـان موافقـاً لما يُبـطن . حقاً إن الإنسـان خليط عجيب فيه شيء من كلٍّ موجود يجعله أكـثر كمالاً . فيـه من توحُّش الذئب والنمر ، ومن نَهَم الشاة وغيرها ، إلى شهوانيـة الخنزيـر ، وإحتيال

---

(١) سورة الحجر : الآية ١٢ .

(٢) ﴿ أعدّت للمتقين ﴾ آل عمران/١٣٣ .

(٣) ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ الشعراء/٩٠ .

(٤) ﴿ أخلد إلى الأرض وإتبع هواه ﴾ الأعراف/١٧٦

(٥) ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ الطارق/٩ .

الثعلب. من جهة أُخرى فإنّ حب الخير، وإسداء العَون الذي في الملائكة موجود في الإنسان أيضاً . وفي الفترة التي هو فيها في هذه الدنيا بإمكانه أن يُكمِّل أيَّ واحدٍ من هذه الأمور .

إذا كان همُّه في الحياة بطنه ، يكون كالشاة فيترك الدنيا دون معرفة ولا كمال ، باطنه يكون بهيمة . كذلك بإمكانه أن يمتزج التوحُّش والغضب والسَّبْعِيَّة أو أنه يتجاوز في شهوانية الخنزير ، أو أنه يسعى وراء السيادة والعلو فيتحوَّل إلى نمر ، وهو مثال في التكبُّر . يقولون : إنه إذا كان في الجبل أوسَفْحِهِ ، وكان هناك إنسان أو حيوان فوقه فإنه يحمل عليه ويفترسه ، لأنه ليس مستعداً أن يرى أحداً غيره يفوقه ، ولكن إذا كان تحت قائمته ، فإن لم يكن جائعاً فهو ليس خطراً .

إن الإنسان في السعي وراء السيادة والعلو يصل به الأمر إلى حدّ استعداده لتوجيه كل أنواع الصدمات المعنوية ، أو المادية ، إلى منافسه ، حتى يحول دون تقدمه ، ويتقدّم هو فقط . بل حتى المدرِّس إذا ما أراد التكبر على تلميذه . . . إذا كان لديه سعي للتفوُّق ، فإن نفس الشيء سيحدُث .

باختصار ، فإن الله تعالى قد جعل في الإنسان شيء من كل موجود . إذا استطاع أن يسيطر على نفسه فلا يحاول أن يتقدّم غيره ، ولم يكن طالب شهرة ، فعنده أملٌ في الخلاص . إنّ نفس الإنسان حقيرة إلى حدّ أنها في بعض الأحيان ومن أجل أن يقال له « أحسنت » أو « بارك الله » يرمي بنفسه في مهالك وأيُّ مهالك وذلك فقط كي يقولوا عنه إنّه قام بكذا عمل .

الحرص يدفع إلى ارتكاب الجريمة أياً كانت

ربما يقع في بعض الأحيان في الحِرْص . فالإدخار واضح عند بعض

الحيوانات ، خاصة النملة ، فهي نموذج في الإدخار للمستقبل ، فإذا صار الإنسان حريصاً أيضاً فإنه سيفوق الفأرة والنملة في ذلك . محمد رضا بهلوي كان يُرسل الملايين من الأموال إلى الخارج علّها تنفعه إذا ما هم أخرجوه يوماً ما . إنها الدناءة التي توجب الخيانة ، والنّهب ، وعدم الإنصاف ، والغلاء والفحش و . . . يتصوّر أن ماله يحفظه . بالمقابل يظهر شخص ينهج نهج الملائكة ، ويصبح إنساناً، فعلاً ، وحقاً ، هذا أمرٌ صعب . ليس أسهل من أن يكون الإنسان رجل دين ، أمّا الأصعب أن يكون إنسانياً . إنّ على الإنسان أن يجتهد في أن يخدم ، لا أن يسعى وراء السيادة ، بل يسعى لخدمة الناس ، ولا ينسى أوّله وآخره . فأوّله نطفة وآخره جيفة .

لقد سمعتم أنّ علي (ع) ذهب يوماً إلى السوق ومعه قنبر ، واشترى قميصين ، فأعطى أفضلها لغلامه قنبر فقال له قنبر : أنت مولاي وخليفة المسلمين . فقال الإمام : إني لأستحي من الله أن أُفَضِّل نفسي وأقدّمها عليك . إن علياً (ع) مخلوق وقنبر أيضاً مخلوق ، وإن كان لعليّ منصب ، فهو قد أعطاه إيّاه الله تعالى أما من ناحية الخَلق فالإثنان متساويان ! هذه نماذج يجب على شيعة علي (ع) أن يتخذوها مثلاً أعلى فلا يتكبّروا على الآخرين ، وكل واحدٍ منهم يجب أن يكون حاله بالنسبة إلى غيره على هذا النحو : أن لا يستعلي على الآخرين . . . أن لا يطلب الراحة لنفسه والمشقة للآخرين . . . أن يكون عوناً لهم يتحمّل عنهم أعباءهم . . . أن يكدح في سبيل الآخرين ويسعى لخدمتهم . . أن يكون همُّه راحة الآخرين وإن كان هو نفسه يعاني المشقّات ، وليس العكس بأن يطلب لنفسه الراحة ولغيره المشقة !!

الجسم من أقصاه إلى أدناه يَدُلُّ على حكمة الله

إن الله تعالى يأمر الإنسان بأن يُمعِن النظر في مبدأ تكوينه . عليه أن

يتأمّل في هذا الأمر إنه في قطرة الماء التي ينفر منها الجميع . جهاز الجسم العظيم هذا الذي يشتمل على مصانع متعددة . . على عظام أصلية وفرعية حيث يقال إن راحة اليد نفسها تتكوّن من أربعة وثلاثين عظماً ، والتي إن لم تكن كذلك لوقع الإنسان في المتاعب . كل أصبع له ثلاثة مفاصل ، وذلك للقبض على الأشياء وحملها ، وفتح اليد وإغلاقها ، فليُمعِن النظر وليرى أن جهاز بدنه العظيم هذا من أقصاه إلى أدناه حكمة ، لم يُخلق فيه ولا حتى عضو واحد دون فائدة ، ولا يُعْثر فيه ولا على عصب واحد زائد ، أو عظم واحد لا يكون نافعاً . وإذا تصوّر أحد أنّه يجد ولو عضواً واحداً لا فائدة منه فعليه أن يلوم فهمه هو .

الزائدة العوراء خطأ فهمها السابقين

قبل ثلاثين أو أربعين سنة تقريباً كان يقول الأطباء : إنّ في الجسم عضواً زائداً وكانوا يسمونه (الزائدة العوراء) . قطعة من الأمعاء صغيرة بطول الإصبع وهي عوراء أي أن المادة الغذائية عندما تدخلها وهي ليس لها طريق للخروج يجب عليها الرجوع ، ولأنها لا ترجع فهي تتعفّن في محلّها ، وتتسبَّب في إيجاد المرض ، ولهذا صارت العادة أن يذهب الأفراد الأصحّاء ويستأصلوا هذه الزائدة . ولكن مع تقدم علم الطب إنتبهوا إلى الخطأ العظيم السابق ، وأدركوا أن هذا الجزء من الأمعاء ليس زائداً ، بل إنّ له ميزة ووظيفة مهمّة ، فكُلّما أصيبت الأمعاء بالتعفُّن تكون هذه الزائدة بمثابة بوق الخطر ، يشعر عندها الإنسان بالألم فيعرض نفسه على الطبيب وإلاّ فإن الإمعاء تصابُ بالتعفُّن ، ولا يعلم الإنسان بذلك إلاّ عندما لا يكون هناك فائدة من ذلك .

لماذا الإحساس بالألم . . . رحمة ؟

نفس الألم هذا هو نعمة للإنسان ، لقد جعله الله سبحانه وتعالى في

الجسم حتى إذا أحس الإنسان به يبادر إلى العلاج ، فلو أن عضواً من بدن الإنسان أصابه الفساد ، وهو لم يشعر بالألم ، فإنـه لن يسعى وراء الدواء ، فيفسـد العضو أكـثر فأكـثر . مرض السرطـان هذا يقـولون إنـه خـطر لأن الإنسان منذ البداية لا يشعر بالألم وهـو لذلـك لا يسعى وراء الدواء ، إنـه يشعر بالألم عنـدما يكـون علاجـه قد صـار غير قـطعي ويقضي بالتـالي على الجسم ، قصدي من هذا التوضيح هو أن على الإنسان أن يمعن النظر جيداً في خلقه وكما يقول الشيخ الـرئيس : كل من لم يفهم علم الهيئـة والتشريح فهو لا يكون جريئاً في معرفة الله . وقـد نَسبَ بعضهم هذا القـول للإمـام الرضا (ع) .

« من لم يعـرف الهيئـة والتشريـح فهـو عنـين في معـرفـة الله » . هـو ضعيف وقاصر عن معرفـة الله ، وكلّما تفكّر أكـثر في علم التشريح ومعـرفة حِكَم أعضاء البدن ، كلّما أدرك أكثر علم وقدرة إلهه اللامتنـاهية ، فهكـذا بناء هل يمكن أن يكون بنّاؤه لا يعلم ؟ . . . هل يمكن أن يكون قد حدث صدفة ؟ أو كما يقول الماديون ، أن يكون ذلك اختيار الطبيعة ؟

إختيار الطبيعة تناقضٌ واضح

مـاذا يعني الإختيـار ؟ إنـه يعني أن الشخص الـذي هـو ذو فهم وشعـور ، يختار الأفضـل . فالمختار (أي الذي يختـار) يجب أن يكـون ذا شعور وعلم وإدراك حتى يختار ما هو الأصلح . إذا كانت الطبيعـة لا تملك شعوراً ، إذاً فمـاذا يعني هذا ؟ هل في النطفة شعور حتى تنظم هيئـة الجسم وترتب أنظمته ، وتضـع كلّ شيءٍ في مَحَلِّه ؟

أمعنوا النظر في أهداب أعينكم هذه . . . هل ترون هـذه الشعيرات التي تنمـو على حـواشي جفن العين . . . الـرمـوش العليـا مـائلة قليـلاً إلى فوق ، والرموش السفلى مائلة قليلاً إلى تحت ، ولهذا فهما أثناء تشابكهـما ،

الرمش الأعلى والـرمش الأسفل ، يتشـابكان جنبـاً إلى جنب . ولو لم يكن للرمشين هذا الإنحاء والتمايل ، وكان استقـرارهما مـوازياً لبعضهـما البعض تماماً لما تشابكا جنباً إلى جنب بل لكانا إنطبقا فوق بعضهـما البعض ولبقيت هناك منافذ إلى العين تجعلها غير مصـانة من دخـول الغبار والأشيـاء التي لا يجب أن تصلهـا . ألا تـرون أنـه تعـالى لم يغفـل حتى عن الـرمش وشكـل استقراره . لقد اهتم سبحانه بما يؤمن راحة الإنسان ويحفظ له عينـه ، هذا العضو المهم والفعّال في جسم الإنسان .

ملايين الخلايا لكلّ عضو في الجسم

في علم التشريح منذ السـابق وحتى اليوم ومنـذ اليوم وإلى مـا بعد ، حدثت أبحاث كثـيرة وتحدث ، كُتبت كتب عـديدة وتكتب ، وإلى الآن لا يزالون يقولون إن حِكَماً كثيرة تتعلق بأعضاء الجسم هي غير ظاهرة لنا وربّما تـظهر فيـما بعد ، كـما أننا نحن أدركنـا الكثـير من الأمـور التي لم يكن قـد أدركها الكثيرون . قوة السـمع ، الأذن لها ثلاثة ملايـين خلية لـو فقد جـزء منهـا لتعطل سمعـه . أحد الأقـرباء الـذي كان قـد فقـد سمعـه ، خضـع لمعاينات طبيَّة دقيقة فقـالوا إنَّ الثـلاثة مـلايين خليـة التي لأذنه قـد فُقِد مـا يقارب الستة عشر ألف خلية منها وهو لهذا قد فقد سمعه . إن هذا لمدهش حقاً .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ تفكّر قليلاً في أصل خلقك وسترى ما قد فعله جلّ وعلا . إن « الحكيم » و« العليم » هي من أسماء الله تعـالى . لاحظ الحكمـة المـطلقـة والعلم الكـامـل في أفعـال الله . أنـظر القـدرة اللامتناهية التي أظهرها سبحانه في هذا الجسم . هنـاك عبارة جميلة للشيـخ الـرئيس يقول فيهـا : « الناس يتعجبـون من جذب المغنـاطيس مثقـالاً من الحـديـد ولم يتعجبـوا من جـذب النفس النـاطقـة الحيـوانيـة هـذا الهيكـل العـظيم » . الجسم هذا إذا مـا مات فإنه يصعب حمله عـلى عدة أشخـاص

بمجتمعين ، فما هي هـذه القدرة التي بمجـرد الإرادة تجعله يتحرك . من أين هي هذه القدرة ؟ أي قدرةٍ وهبها الله للنفس ؟ .

الخضوع في مقابل إحسان الله

يجب أن نـدوم على هـذا المنوال من التفكّـر . أمعنوا النـظر كثيراً في تشريح الجسم . . . تفكّروا فيـه ثم قولـوا : « تبارك الله أحسن الخـالقين » وفي نفس الوقت الذي يُدرك فيه الإنسان هذه الأمور ، يقول العقل : يجب أن أخضع في مقابل هكذا خالقٍ عليم وقادر . قـال العظماء ، وصحيـح ما قـالوا : « الإنسـان عبد الإحسـان » . إذا أحسن إليه أحـد فإنـه يحبُّه وفق فطرته ، ويخضع له في سرِّه ، فإن هو إنتبه إلى هذا الأمر وهو أنـه غـارق في إحسـان الله ، وأنه لا وجـود لغير نعمـة الله ، فكم سيكون خـاضعاً للحق تعالى حينئذٍ .

لنعرف قدر النعمة قبل زوالها

منذ عدة سنواتٍ مضت إنسدت أذناي ، وبقيت لعدّة أيامٍ لا أسمع شيئاً ، فذهبت مجبراً إلى طبيب الأذن فنظفهما لي ، وبعد أن أمضى مدة من الزمن يغسلهما ، وسمعت أوّل صوتٍ يطرقهما فسيطرت علي نشوة غريبة . قلت : « إلهي . . . أيّ نعمة عظيمة كُنت قد وهبتني إيّـاها ولم أكن منتبهـاً لها ! » إن شقاء الإنسان في هذا ، فهو ما لم تُسلب عنـه لا يعرف قـدرها . آمل ألّا تنتظروا أنتم حتى تسلب عنكم النعمة لتصبحوا مقدِّرين لها . نعمة اللسان إذا ما سلبت القدرة على النطق حينئذٍ يُعْلَم أيّ نعمةٍ هي .

كم يجب أن تـذكـر الله بهـا فتقـول : « الله أكـبر » ، كم يجب أن لا تنسى الله تعـالى إلى آخر العمـر ، كم يجب أن لا تكون كفـوراً . إن الأمر يصل بالإنسـان في بعض الأحيان إلى أن ينكـر الله تعالى كـالأنعام ، ينتفـع

بـأنعم الله دون أن يكون عـارفاً لقـدرها[1] . الله الـذي وهب هـذه النِّعم كلَّهـا ، الباطنيـة والخارجيـة ، الماديـة والمعنويـة ، وجعـل الأرض والسماء والكواكب مسخرة للإنسان ألا يجب أن يكـون شاكـراً له ؟ إن هـذا الشُّكر نفسه يؤدي بك إلى بلوغ الدرجات الرفيعة والكمال .

يسمع من وقتٍ لآخر أن البعض يقـولون : إن الله ليس بحـاجة إلى عبادتنا أو شكرنا . هذا صحيح ولكن أنت تحتاج لنفسك . إن للإنسان مـا أكتسب وكان في ضرره . ما أكتسب[2] أي أن عمله يرجع إليه سواء أكـان حسنـاً أو سيِّئاً . إذا شكـرت ، تكون قـد اتجهت في الإتجاه الإنسـاني . . . تصبـح أسمى من الملائكـة . إن الله شكور . يُجْـزي الجزاء الحسَن وإن لم تفعل يكون عليك وفي النهاية فإن الله تعالى يعلم أين تظهـر . أرجو الله أن يعين الجميع على الوصول إلى المنزل المقصود الذي هو لقاء الله .

الخطوة الأولى في التهذيب هي التفكّر

بدون مشقة غـير ممكن . لا بد من السيـطرة على النفس ولا بـد من لجمها ، وأساس سبيـل التهذيب طـريق التفكُّر والعمـل ، والذي أعـرضه بشكل مختصر .

إن السبيـل الأساس الـذي يستفاد من القـرآن الكريم هـو التفكّر ، السبيل الذي أوضحه للرياضة الفكريـة قدَّمـه في عدة مـواضع من القـرآن الكـريم في إحساس التفكّـر والنظر والتـأمّل . يجب أن يعـود أولاً إلى ذاتـه فينظر ويتفكّر ويجد نفسه في النهاية . يفكّـر ، ماذا كنت ؟ والآن مـاذا أنا ؟ ومـاذا سـأصبح فيـما بعـد ؟ من أين أتيت ؟ وإلى أين أنـا ذاهب ؟ ولمـاذا أتيت ؟

---

(١) ﴿ الذين كفروا يتمتعون ويأكلوا كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ محمد/٢ .
(٢) ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ البقرة/ ٢٨٥ .

التفكّر في مبدأ التكوين (النطفة)

في البداية كلُّنا كنّا مجرَّد قطرة ماء ، ويُصدز الله أمره : ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماءٍ دافق** ﴾ لو تعمّق جيّداً في هذه الفكرة فإنه سيحصل على منافع كثيرة ومتنوعة ، التفكر في بناء الجسم العظيم ، التشكيل العجيب الذي أبدعه الله تعالى في هذا الجسم . في هذه القطرة الواحدة ، صنع جسماً يشتمل على معامل متعدّدة من عين وأذنٍ وكبد وغير ذلك ، جهاز القلب بمصفاته العجيبة ، الكبد يقوم بعدّة أعمال الدم يجري دائماً في هذه العروق ، وكما يقول أحد العظماء :

إن من شروط الرسم أن يتم على شيء صلب ، وعلى مساحة مستوية ، وفي مكانٍ منير ، بينما الله سبحانه وتعالى قام بالرسم في الظلمات الثلاث : ظلمة البطن والمشيمة والرحم وكذلك في جوف الماء الذي هو محلّ غير ثابت .

وأي رسمٍ هو هذا الرسم عين لوزية الشكل ، وحاجب كالميزاب ، أو الرسم الداخلي ، قلب بشكل الصنوبر ، لو كان لكلٍ منها غير الشكل الذي لها لما أعطت النتيجة المطلوبة . هذه مجموعة من التفكر لمعرفة الله ومعرفة كينونتك عبداً .

قدرة الله الأزلية ولمعرفة كينونتك عبداً . قدرة الله الأزلية غير محدودة ولا متناهية ، هو قادر على كل شيء . ومن هذا التفكّر تتأمّن في نفس الوقت أصول العقائد ومعارفها ، وكذلك تهذيب النفس . إن ما قدّمت له كان عن المعرفة التي تجعل الإنسان يستدل بها إلى العلم الإلهي العظيم والقدرة الإلهية اللامتناهية .

يقطع الطريق على التخيلات الفاسدة

من هذا التفكّر الأول ، كل فرد كان نطفة نتنة لم يكن لديه أي علم

أو قدرة بل هو لم يكن « أنا » حتى . وبعد مئة سنة أخرى لن نكون أكثر من قبضة تراب . في البداية لا شيء وفي النهاية لا شيء ، هذه « الأنا » في الوسط ما هي؟ هذا هو الخيال حيث يتصوّر أن له قدرة إنه الوجود الذي هو موجود بالتأكيد . يرى أن اللسان والعين والأذن وغير ذلك . . . يرى أنها منه هو . هذا التصوّر يجب أن يُصحَّح . يجب أن يفهم أن القدرة هي لغيره الذي صنع هذا الجسم ودفعه على الحركة . إن هو أدرك هذه الحقيقة فلن يعود بعدها ليقول : أنا أنا . التقدُّم والتأخُّر ، التفاخر وطلب الشهرة وإعتبار نفسه أنه أرفع من الآخرين . . . هذه كلُّها تزول . أنا وغيري الذي بدايتنا واحدة ونهايتنا واحدة في هذه العقبة الزمنية التي تتوسط البداية والنهاية ما هي الميزة التي طرأت على ذات واحدٍ منا ، ولم تطرأ على ذات الآخر . ليس منّا من هو قادر على جلب النفع أو دفع الضرر(٢) . من هو الذي يستطيع أن يقف في وجه الشيخوخة أو الإنكسار ؟ إنه لينسى بدايته ونهايته ولهذا فهو يرى القدرة منه هو فيشرَعُ بقوله : أنا أنا . . .

لباس عمل « أياز » والقصر الملكي

نُقِلَتْ قصة عن أهل المعرفة . . . عن « أياز » والسلطان محمود(٣) يحسن سماعها . فعندما جعل السلطان محمود « أياز » غلامه الخاص حيث أن له معه تجارب وجَدَ على أثرها السلطان محمود حبًّا خاصاً لهذا الغلام في نفسه حتى قرّبه وجعله مشاوره الخاص وزميله في العمل .

الحسّاد والأعداء كانوا مغتاظون أيضاً ، لماذا يكون غلامٌ مقرّب للسلطان إلى هذا الحدّ ؟! كانوا دائماً يوشون عليه لدى السلطان . في أحد

---

(١) ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ الدهر/١ .

(٢) ﴿ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ﴾ .

(٣) أحد سلاطين إيران .

الأيام قالوا للسلطان : إن « أياز » قد سرق ذخائرك وكنوزك ، وهـو يخفيها في مكانٍ ما ، ويخطط لأمر ما ، فقد خصص لنفسه حجرة بـابها مقفـلة على الـدوام ، لا يـدع أحـداً يـدخلهـا . يـأتي وحـده ، بـين فـترة وأخـرى ، ويدخلها ، ثم يخفي ما سرقه ، ويخرج ، ثم يعود ويقفل الباب وراءه . إنه يريد أن يفرغ الخزينة !!

لم يكن السلطان يصدق ما يقولون ، ولكنه حتى يريهم ، أصـدر أمراً إلى رجاله ليذهبوا ويكسروا باب الغرفة ، ويأتوه بما يجدونه فيها .

وعندما دخلوا إلى الغرفة لم يجدوا فيها شيئاً إلّا حذاءً جلديـاً ومعطفـاً كذلك . أتوا بالحفّارة وحفروا ، لم يتركوا مكـاناً داخـل الغرفـة إلّا وحفروا فيه ولم يعثروا على شيء . فأخبروا السلطان الذي أحضر « أيـاز » وسألـه : ما هو السبب في هـذا الأمر ؟ لماذا خصَّصت حجرة بكاملها لحـذاءٍ جلدي ومعـطف ثم جعلت بابهـا مقفلاً ؟ لقـد إتهمت ، وهذا ليس بـالأمر الـذي تعرض لأجله نفسك لإساءة الظن بك .

أجاب « أياز » : إني أقول الحقيقة للسلطان ، فـأنا لم أكن فيـما مضى أكـثر من عامـلٍ بسيط يعمل في قلع الشـوك من البساتـين والآن وصـل بي الأمـر أن أصبحت وزيـر السلطان . وحتى لا يغيب عن بـالي حـالي الأولى وضعت في هذه الحجرة الثوب الذي كنت ألبسه عندمـا كنت أعمل في قلع الشوك ، ألقي إليه نظرة كل يوم وأتذكـر حالي السـابق وأقول لنفسي : أيـا « أياز » ما أنت إلّا قالع الشوك ذاك ، وهذا ثوبك لا يزال موجوداً ، والآن وأنت تلبس هذه الثياب الفاخرة ، لا تنسَ حالك الأولى ، إيّاك أن يأخذك الغرور ؟!!

كنت أفعـل هذا حتى لا أجـرؤ عـلى خيـانـة أحـد أو الإعتـداء عـلى أحد . . . عندما سمع السلطان ذلـك ، سُرَّ كثيراً وقـرّب « أياز » منـه أكثر فأكثر . وعاقب الآخرين بما يناسب نتيجة حسدهم !!

هـذه القصة هي لكـل فرد بـذاته . فلينـظر الإنسان مم خُلق . أيّـاً كنت ، أنظر إلى بداياتك أنت ذاك الماء النتن ، تذكّـر نهايتك أيضـاً فكّر في قبرك حيث تصبح جيفة متعفّنة . ما أجمل مـا قال إمـام الأمة : عـلى رئيس الجمهـوريـة[1] أن لا ينسى أن الأمــة أتت بـه من بــاريس ، وعـلى رئيس الـوزراء أن لا ينسى أن الأمـة أخـرجتـه من السجن . إيّـاهمـا أنْ يغـرّهمـا المنصب .

سبيل التعرف إلى المبدأ والمعاد

الإسلام أصلاه الإعتقاديان المبدأ والمعاد . وعـلى الإنسان أن يعـرف مبدأه وإلهـه ومن بعــدهمـا المعــاد ، والأمـران يمكن الإستـدلال عليهــما وإيضاحهما . « فلينـظر » على الإنســان أن يعرف مم خلق حتى يعـرف إلهه ومعاده أيضاً .

أيُّ بناء عجيب بناه الله سبحانه وتعالى في قطرة ماء ، الذي هـو من أقصاه إلى أقصاه حكمة ومصلحة إلى حـدّ أنه لم يخلق ولا حتى عـرق واحد دون حكمة . لم يخلق ولا حتى عظم واحدٌ زائدٌ ومـا كان لازمـاً لهذا البنـاء قد جعله الله فيه ولهذا يُدرك أن خالق هذا الجسم قدرته لا متناهية ولا حدّ لهـا . إنه قـادرٌ إلى حدّ أنـه خلق في قطرة مـاءٍ في ظلمات ثلاث هكـذا بناءٌ عظيم الذي يبحث العلماء منـذ آلاف السنين في تشريحـه ، وكيفية خلقـه ، وخصائصه ، وهـم يعترفون أنهم إلى الآن لم يدركوا الكثير منها .

---

(١) الرئيس المخلوع بني صدر .

(٢) مهدي بازركان .

المادة التي لا تشعر لا يمكنها أن تخلق

ثم إنه يُدرك علم الخالق الذي لا حدّ له « ألا يعلم من خلق »[1] ألا يعلم من هو ليست حتى ذرة من ذراته المخلوقة دون حكمة ومصلحة ؟ يقول الشيوعيون الذين هم ينكرون الله والعالم العُلوي : كل ما هو موجود هو نتيجة تكامل المادة . ماذا يقولون في هذه الحكم التي تملأ العالم من أقصاه إلى أقصاه ؟ هل يمكن لصانعها أن لا يكون حكيماً ؟ إنكم أنفسكم تقولون إن المادة ليست ذات شعور ، فكيف يتناسب هذا مع اختيار الأصلح الذي هو ظاهر في الكون . أليس هذا إلّا التناقض ؟ من جهة تقولون بلا شعورية الطبيعة والمادة ، ومن جهة أخرى تقولون بأن إختيار الأصلح والأفضل هو فعل إختياري ، وهذا دليل على أن الفاعل ذو شعور لذلك فهو يختار وحتى يهدِّئوا من خواطرهم ويستمروا في إنكارهم للمبدأ والمعاد يبدأون الأقوال والأحاديث في الوقت الذي لا يدرون ما يقولون[2] .

إعتراض أساسي على فرضيّة داروين

أو إنهم ـ وكمثال على ذلك ـ إعتبروا أن الإنسان هو قرد في الأصل عَمِلَت الطبيعة على تكميله تدريجياً ، فألقت بذيله بعيداً ، وقوَّمت إنحناءته ، وأسقطت عنه وَبَرَه و . . .

حسناً إذا كان الأمر كذلك إذاً كان يجب أن لا يبقى في الدنيا ولا قرد واحد فكيف حصل أن تحوَّل واحدٌ منها إلى إنسان ولم يتحوَّل البقيَّة ؟! إذا كان أساس الطبيعة مبنياً على التكامل . . . حسناً فما الفرق بين هذا القرد وسائر القرود حتى تكامل وصار إنساناً فهل تكامل في العالم كله قردٌ واحدٌ ولم يتكامل الآخرون ؟ من الواضح أنهم لا يريدون أن يسلّموا للحق . . .

---

(١) سورة الملك : الآية ١٤ .

(٢) ﴿ ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ الجاثية/٢٤ .

أن يدركوا وقائع الأمور . . . أن يتفهموا حقائقها ، حتى لا تشملهم القيود التي يفرضها الدين ولهذا تراهم ينكرون حتى البديهيات .

إدراك الإنسان ليس وليد المادة

للإنسان شعور أم لا ؟ كل إنسان يدرك أن له شعوراً . هل صانعك لا يملك شعوراً ؟ كل إنسان كان أصله نطفة ، هل المادة هي التي وهبتك الشعور ؟ يقول الشاعر ما مضمونه : « من وجد أنه نفسه ليس من واهب الوجود ، متى يكون قادراً على وهب الوجود . فالغيمة الخالية من الماء لا يمكن وصفها بأنها معطاءة للماء » .

النطفة والمادة هما اللتان وهبتاك الشعور ؟ هل يمكن لأحدٍ أن يدعي هكذا إدعاء ؟ لا بد أن يقول إن مبدأ هو عين العلم والحياة قد يكون هو الذي وهب الشعور . كما أن الجسم ذاته حادثٌ ، لم يكن ثم كان ، كذلك الشعور والإدراك ، هما حادثان أيضاً . إن للشعور واهبٌ أيضاً ومُعْطٍ . هذا الإدراك من أين جاء ؟ هل يمكن نسبته إلى المادة والقول بأنه تكامل المادة وإختيار الطبيعة الأصلح ؟ هل يقبل عقلك هذا الكلام ؟ الإدراك الذي للإنسان يمكنه أيضاً بلوغ المجرّات والأفلاك . . يمكنه الإحاطة علماً بالكثير من نواحي الوجود وهذا بذاته دليل على تجرُّد الروح .

الإحاطة العلمية دليل تجرد الروح

إن الجسم لن يمكن له في أي وقت من الأوقات أن يحيط علماً بمن هو مثله . إذاً فما هو هذا الإنسان الذي يمكنه أن يحيط علماً بالعالم كلّه . هل يمكن لهذا الجسم أن يحيط علماً ؟ ما هي هذه القوة التي تدرك بواطن الأشياء وخواصها وكيفية تحرُّكها ؟

هذه الإدراكات هي أكبر شاهد على تجرُّد الروح . فهذه ورقة الشجر

لا تعلم شيئاً عن الأراق الأخرى ، هذا الجسم ، الإصبع فيه لا يعلم شيئاً عن الإصبع الآخر ، خلاياه لاتحيط علماً ببعضها البعض .

يعرف من ذلك أن الإنسان هو غير هذا الجسم . إن فينا قدرة تتوزعنا من أم الرأس وحتى أخمص القدمين وهي تحيط علماً بأجزاء الجسم كلّها بل تحيط علماً بكل مكان طبعاً بالقوّة . هل يمكن لأحدٍ أن يُنكر علم نفسه ؟ هذا العلم هل هو مادي ؟ أي هل إن المادة هي التي وهبتك إيّاه أم ذلك الذي خلقك ؟ الإدراك الأشمل دليل على أن الإنسان ليس مادياً ، وعلى أنّ روحه مجرّدة ولهذا فإن الطريق أمامه ممهدة إلى عالم الغيب وما وراء الطبيعة إن هو أزال العوائق .

يقول الشاعر ما مضمونه : « إن الإنسان ليبلغ حدّاً لا يرى بعده إلا الله . فانظر إليه ما أسمى مقامه .

بناءً على هذا على الإنسان أن يستدّل من خلال إنتباهه إلى أصل خلقه . . . يجب أن يستدل إلى العلم والقدرة اللامتناهيين لله خالقه وخالق غيره الذي من فيض علمه ، علم الروح بالجسد وسائر الأشياء . إذاً فالله القادر يمكنه أن يعيد ثانية خلق هذا الجسم .

ليس للجسم في الآخرة آثار مادية

طبعاً الجسم يوم القيامة يختلف عن هذا الجسم الفعلي . من هذه الإختلافات أن الجسم في الجنة ليست له فضلات وأوساخ هي من لوازم الجسم المادي لا وجود للبول ، والغائط ، والشعر ، والظفر ، ليست له فضلات منها : التعب على أثر العمل ، وبذل الجهد الذي يحدث للجسم لا وجود له هناك ، لا يمرض ، الجسم هو نفسه هذا الجسم ولكن تشكيله وتركيبه على نحوٍ لا تكون له آثار التركيب المادي هذه ، ونحن مهما حاولنا تصوُّره على تلك الشاكلة فإنه ليس ميسراً لنا بالفعل لأن هذه الآثار هي من

اللوازم التي يمكن إنفصالها عن الجسم المادي ولا يمكننا تصوُّر غير هذا .

وطبقاً لذلك التشبيه الذي قاموا به فالطفل الموجود داخل بطن أمه مهما حاولوا إفهامه أن خارج بطن الأم هناك عالم واسع فيه من الفواكه ، والأطعمة ، والنباتات ، والحيوانات ، وغيرها فإن ذلك لن يكون مقدوراً إدراكه بالنسبة .

كذلك وضع الإنسان في بطن عالم الطبيعة بالنسبة إلى عالم ما وراء الطبيعة هو هكذا مهما حاولوا إفهامه أن عالم ما بعد الموت عالم ما أوسعه . . . نظام يا له من نظام ، فإنه لن يكون بمقدوره أن يدرك ذلك .

* * * * *

كما يقول القرآن : ﴿ **فلا يَعْلَمُ نَفْسٌ ما أخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرَّة أعْيُنٍ جَزاءً بما كانُوا يَعْمَلُون** ﴾[1] وهنا يجب الحديث عن علامة الآيات بالمعاد .

المنكرون لا يملكون أيّ دليل

﴿ **إنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ** ﴾[2] . الذين ينكرون المعاد فذلك مجرّد إستبعاد له فقط فهم ليس لهم أي دليل على عدمه إن ذلك مجرّد إعتراض فقط ، لأن الأمر هو ذاته بالنسبة إلى المبدىء تعالى . فقط لا أعلم كيف يمكن لعظام نخرة أن تُحيا مرة ثانية ؟ من أين لها ذلك ؟ إنه لأمر صعب . ما من دليل على العدم . إن أكبر برهان على المعاد هو : ﴿ **إنَّهُ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ** ﴾ . فمن أوجد من قطرة نطفَوِيّة هذا الجهاز العظيم يستطيع أيضاً

---

(١) سورة السجدة : الآية ١٧ .

(٢) سورة الطارق : الآية ٨ .

إيجاده من قبضة تراب بل كما يقول القرآن الكريم : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ . إعادة الإيجاد أهون من الإيجاد الأوّل . في سورة القيامة يوضح تعالى نُكْتَةً أخرى لطيفة . يقول : ﴿ بَلَى قادرينَ عَلَى أنْ نُسَوي بَنَانَه ﴾[1]

يكتب الطنطاوي وهو مفسّر مصري يقول :

حتى القرن الأخير لم يكونوا يدركوا السرّ الدقيق في هذه الآية وهي من جملة معجزات القرآن . لم يكونوا ملتفتين إلى أنّ رؤوس الأصابع لها خطوط متفاوتة . (٤,٥) مليار إنسان كل واحد منهم تختلف خطوط رؤوس أصابعه عن خطوط رؤوس أصابع الآخرين ، ولهذا أصبح البصم منذ زمن بعيد بدل الإمضاء ومن ثم تخصيص إدارة بحد ذاتها لبصمات الأصابع والكشف على الجريمة وتحديد المجرمين .

تمايز الوجوه والحناجر

في الوجه هذا الذي لا تتعدى مساحته شبراً واحداً ترون أنه لا يوجد شخصان متشابهان في كل شيء ، حتى التوأمان لهما ما يتمايزان به عن بعضهما البعض ، أو الحنجرة والأصوات ترون أنها ليست واحدة ، يعرف الطرف الآخر من لحن صوته وإلاّ فإن نظام العالم لا يستقيم إذا تشابه الأفراد .

كم من المظلومين كانوا سيؤخذون بدل الظالم ويعاقبون ؟ وكم من عمليات النصب والإحتيال كانت ستحدث ؟ وباختصار فإن الحياة الإجتماعية ما كانت لتستقر ! لهذا ترون كيف أن الخالق الحكيم راعى هذه الجوانب في ما خلق . هل ترون إلى العالم الأول هذا ماذا تفعل فيه قدرته ؟ لماذا لا يتذكرون العالم الآخر[2] حيث تتجلى قدرته بصورة أتم

(١) سورة القيامة : الآية ٤ .

(٢) ﴿ وَلَقَد عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأولى فَلَو لاَ تَذَكَّرون ﴾ الواقعة/٦٢ .

وأكمل وأشرف ، لأنه عالم أوسع وأفضل وأبقى[1] . إن المبدأ والمعاد ضروريان وبديهيان ومطابقان لحكم العقل والوجدان .

القدوم على قبور الموتى دليلٌ على قبول المعاد

كتبوا في أوضاع (ستالين) قبل موته أنه كان عندما يعجز عن حل بعض المشاكل بنفسه ، أو عن طريق المشورة مع الآخرين ، كان يذهب إلى قبر (لينين) ويبقى هناك مدة من الزمن حتى تُحل مشكلته . هذا الشخص المادي وجدانه يشهد أن الميّت لم يُعدَم وإلاّ فلماذا يذهب إذاً للوقوف على قبره وطلب المَدَدِ مِنْه !!

لماذا إذاً يقيمون قبر الجندي المجهول ويؤدون له الإحترام ؟! إن وجدان الإنسان يقول له : إنّ له إله ، له معاد ، له حياة بعد الموت . حتى لو لم يكن هناك وحي فإن هذا الأمر فطري عند الإنسان الإشكال هو هنا :

لماذا يُنكر أكثر أفراد الإنسان هذا الأمر الواضح والبديهي ؟؟

لقد أوضحت لنا الجواب على هذا الإشكال آية في سورة القيامة هي : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أمَامَه ﴾ ولهذا فهو يغض الطرف عن كلّ حقّ ، يريد أن يترأس، ولازمة ذلك أنه يتساهل في مسؤولياته ، وإلاّ إذا كان يعتبر نفسه العبد المسؤول والمقهور . . . إذا كان يعتبر أنه حتى تنفسه هو بيد الله فهل يبقى يقول بعد ذلك : أنا أنا . . . ؟

إن العُجب بالنفس والخضوع لله سبحانه وتعالى أمران متضادان لا يجتمعان . إذا إعتبر أحدٌ نفسه عبداً عاجزاً لا يمكن له أن يكون أنانياً مسترئساً يريد أن يتسلط على الآخرين . ولهذا فهو لأنه يملك إرادة الفجور والشهوات فإنه يدوس على الحق مهما كان واضحاً .

---

(١) سورة القيامة : الآية ٥ .

هارون والمأمون كانا يعرفان الأئمة

قيل إنه سئل المأمون : كيف أصبحت محباً للرضا (ع) ؟ قال : أخذت هذا الأمر عن أبي فلما دخلت مع أبي المدينة كان العظماء يأتون للقاء أبي وفي أحد الأيام دخل علينا رجل نحيف ، فرأيت أبي وقد تقدم واحتضنه ، ثم أجلسه بين يديه وأخذ يحادثه بكل أدب وإحترام .

في الليل سألت أبي : من كان ذاك الشخص الذي تواضعت له ذاك التواضع قال : هو موسى بن جعفر (ع) . قلت : ومن هو موسى بن جعفر ؟ قال : ذاك هو إمامي وإمامك . قلت : إذاً أنت لست على حق ؟ قال : لا ، إن الخلافة حق له .

قال المأمون : فقلت لأبي متجاسراً عليه : إذا كان الأمر كذلك إذاً فلماذا تفكر في حبسه وإبعاده ؟ قال : إنّ المُلك عقيم ، لا يعرف له حتى ولداً !! فلو كان قد نافسه فيه لكان قتله أو كان قلع عين ولده كما ينقل عن بعض الملوك مثل نادر .

القصد هو أن الإنسان حقير إلى حدّ أنه يلقي جانباً بكلّ حقّ حتى وإن كان واضحاً وضوح الشمس لأنه يريد العلو . . . يريد السيادة .

حب الدنيا أصل الذنوب

لا أنسى عندما أراد إمام الأمّة أن ينفّذ حكم رئاسة الجمهورية حتى يصبح رئيس الجمهورية مسؤولاً عن هذا المنصب قانونياً وشرعياً . . لا أنسى أنه قال يومها : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » . إنه إعلان خطر للجميع . إن الأمر لكذلك فحب الدنيا يسيطر على عقل الإنسان إلى حد أنه يصبح مستعداً لسحق كل حق . . . يحاول أن يزيل من أمامه كل من يُعيق تحركه .

إن هذه الأنانيـة وهذا العجب بـالنفس وهذا التقـديس للذات . . . هذه كلُّها أمور خطيرة . إذاً فقد اتضح الآن لماذا ينكر الكثـير الحق على مـا هو عليه من وضوح .

أولم يعرف المنافقون الإمام ؟

والآن ، كل إنسان منصف ما هو شعوره بالنسبـة لإمام الأمـة ؟ هل عنده إلاّ حب الخير للناس والخدمـة لخلق الله ؟ إنه شريـك المستضعفين في همومهم وقد قدَّم إمتحانه أكثر من مرَّة ألم تدرك هذه المجموعات هذا الأمـر بعـد ؟ هل يمكن إحتـمال ذلك ؟ من المتيّقن أنّهم أدركـوا هذا الأمـر جيـداً ولكنهم تركوا حقاً بهذا الوضوح . . . تركوا هكذا قائد وتوجهوا ويتوجّهون إلى أيّ أشخاص ؟ ذلك لأنهم لم يغضوا النظر عن أهوائهم .

إدراك عظمة الخلق يوجب تقوى القلب

النجـوم التي تـرونها . في هـذه المجـرة تـوجـد مـلايـين الشمـوس والكواكب ومثل مجـرّتنا هـذه يوجـد الكثير من المجـرّات التي لا ترى بهـذه العـين أصلاً . في المجـرّة الثانيـة إكتشفت نجمة قـطرهـا مليـار (أي ألف مليـون) وست مئة ألف كيلومـتر . لـو ظهـر ذلـك الكـوكب في منـظومتنـا الشمسية لغطى سدس سمائنا . ذلك الكوكب بتلك العظمة والسِّعـة التي له لو ظهر هنا لم يعد للأرض ليلٌ بعد ذلك وذلك لما كان لذلـك الكوكب من ضياء .

قلت هـذا كنموذج فقط ، فكم هـو عظيم نـظام الخلقة . كـل هذه الكواكب بهذه العظمة تدور بقدرة واحدة ، تتحرّك بـإرادة واحدة ، النـاظر واحد ، المدير واحد ، تفكّر في نظام حركات كـوكب الأرض هذا (يـا من نفذ في كل شيء أمره) ، كوكب بهذه العظمة لا يتخلف عن الحركة بمقدار

طرفة عين واحدة ، حتى كوكب الشمس ، بهذه العظمة ، لا يتخلف بمقدار طرفة عين ، إنه مطيع تكوينياً ما جعله عليه . يا من أعمارکم تبلغ الستين ، منذ أول العمر وحتى الآن هل لاحظتم تخلفاً ؟ هل ترى إلى هذا البرج الإثنا عشري . . . الله أكبر كلُّه لا يزال في مكانه . طول وقصر الليل والنهار يتكرر بشكل منظم ، كل سنة .

هذه الستون سنة التي مضت هكذا متهادية من عمرك .

الليالي تقصر حتى أوّل الربيع (الإعتدال الربيعي) يصبح الليل والنهار متساويين ، ثم بعد ذلك تبدأ النهارات تطول أكثر فأكثر ، إلى أن يأتي آخر الربيع فيحدث العكس .

منذ الشهر الأوّل من فصل الصيف منذ الأول من تموز يبدأ الليل يطول تدريجياً يوماً بعد يوم ، والنهار يقصر حتى أوّل الخريف ، حيث يتساوى الليل والنهار مرة أخرى (الإعتدال الخريفي) .

هذه الحركة المنظّمة مضى عليها ستون سنة وهي هكذا وليمضي عليها ستون ألف سنة أيضاً تبقى هكذا . قل (الله أكبر تبارك الله أحسن الخالقين ذلك تقدير العزيز العليم) .

الفيل والبعوضة . . . نظامهما واحد

البعوضة هذه التي هي بهذا الحجم الصغير ، تشبه في الخلق الفيل . فخرطوم الفيل وهبه الله للبعوضة أيضاً . في بعض الليالي عندما تحط على جسدك المبارك ، توقظك حتى تفهم ولكن لماذا لا تقول : الله أكبر إلهي ما هو هذا العُقُوص الذي يخرق جسدي . أي قدرة سمعٍ عجيبة قد وهبها لها فما إن ترفع يدك حتى تطير هي على الفور . كم هو قويٌ سمع هذه البعوضة فهي تسمع الصوت الذي لا تقدر أنت على سماعه (إدراك الأمواج على طريقة الرادار) يدك هذه عندما تحاول رفعها فإنها تُحدث صوتاً

خفيفاً إلى حدّ أنك نفسك لا تسمعه ولكن هي تسمعه .

إلهي . . ماذا خلقت . . وهبتها أذناً ، وعيناً ، ويداً ، ورجلاً ، وكذلك جناحين ، بينما الفيل ليس له جناحان . وإذا ما وجد مؤمن تعرف قلبه على الله رويداً رويداً ، وعلى أثر التفكُّر والتدبُّر وعلى أثر التقوى ، فإن ذلك سببه أنه ، وجدت عظمة إله العالم مكاناً في قلبه ، ومن آثار ذلك أنه أصبح يرجع كل ما هو عظيم إلى قدرة وعظمة الخالق ، وخالق خاتم الأنبياء « الذي هو سبب الوجود » محمد المصطفى (ص) . كم تكون قد عظّمت وجلّلت الله سبحانه وتعالى عندما تعظّم رسوله وخليفته في الأرض ، خليفة الله هذا الذي هو رشحةٌ من رشحاته جلّ وعلا ورحمة من رحماته سبحانه وتعالى .

الإمام الصادق (ع) عندما كان يذكر أسم جده . . عندما كان يقول: محمد (ص) كان يبدي له التعظيم إلى حدّ أن يده المباركة كانت تصل إلى قرب ركبته على الأرض . وعظماء الدين لم يكونوا يأتون على ذكر إسم محمد (ص) دون وضوء ولم يكونوا يلمسون إسمه المبارك . مما هو محرّم على كل مسلم هو أن يضع يده دون وضوء على إسم محمد المبارك (ص) . محرّم على كل مسلم هتك حرمة اسم محمد المبارك (ص) .

وهنا توضيح لما سبق ذكره فهذا الحكم يجري في حال أريد من هذا الإسم المبارك خصوص خاتم الأنبياء (ص) أما إذا أريد به شخص آخر . . . مثلاً محمد الكربلائي فإنه لا تجري عليه هذه الأحكام .

التدبُّر في الصفات والأفعال والأقوال

إذا ما تدبّر الإنسان في حالات آل محمد (ص) وتعرَّف إلى صفاتهم

الكمالية وأخذ بعين الإعتبار سلوكهم وأقوالهم وأفعالهم . هذا العمل يزيد الحب لهم لأن الإنسان مفطور على حبّ الكمال . كل إنسان مهما كان يحب الكمال وسواء أراد أو لم يُرِد فإن هذه المحبة تسري إلى صاحب الكمال .

مثلاً أنتم تحبون الكَرَم . لو أن شخصاً شرح لكم عن كرم (حاتم الطائي) فإنكم سوف تحبونه أيضاً لأنه صاحب كرم . إذاً اللازم التعبدي هو تذكّر هذه الأوصاف والكمالات . بناءً على هذا يجب التدبّر كثيراً في حالات أهل البيت (ع) . أولئك الذين لم يَردوا عالم الحب ، البعض منهم بسبب عدم إطلاعهم على كمالاتهم (ع) .

أهمية مجالس ذكر أهل البيت (ع)

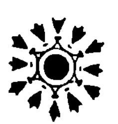
لهذا جاء في الروايات أن الله تعالى يحب المجلس الذي يُذكر فيه علي (ع) وأبناءه . في هكذا مجلس تملأ رائحة عطرهم الملأ الأعلى ويسأل سائر الملائكة من أين أتيتم بهذه الرائحة العطرة ؟ يجيبون : من الأرض ، من المجلس الذي كانوا يذكرون فيه فضائل محمد (ص) . القصد هو أنه على إثر سماع كمالاتهم (ع) تحدث المحبة وتزيد محبة الشخص لهم (ع) . إن الأهمية الفائقة للصلوات على محمد (ص) وآل محمد (ص) هي من أجل هذا لأنك تكثر بذلك من ذكرهم فيزداد حبك لهم أيضاً .

لنعرف قدر واسطة نِعَمِ الله علينا

السبب الثاني هو تذكّر النِّعم وأنواع الإحسان إلينا التي حصلنا وما نزال نحصل عليها بواسطة وبركة آل محمد (ص) .

ولأنّ « الإنسان عبد الإحسان » إذا أهدى أحدهم لك زهرة فإن حباً يظهر في قلبك لهذا الشخص وهنا يجب أن ندرك أن كل نعمة وهبنا إيّاها

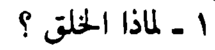
الله تعالى حيث ﴿ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾[1] كل هذه النعم هي ببركة أهل البيت (ع) وأيضاً كل بلاءٍ يُبْعَدُ عنّا فذلك ببركة هذه الشجرة المباركة .



(١) سورة إبراهيم : الآية ٣٤ .

الفصل الرابع

****



١ ـ لماذا الخلق ؟
٢ ـ تكامل الإنسان في المعرفة
٣ ـ البعوضة هي لإعجاز المتكبرين
٤ ـ القرآن والتفكّر في الخلق
٥ ـ التكامل الدنيوي نموذج عما بعد الموت
٦ ـ الإدراكات تزيد بالموت
٧ ـ الدليل العقلي على المعاد
٨ ـ عدم الخضوع من الجهل
٩ ـ التأدّب في مقابل الحاكم والله
١٠ ـ الذنب ، يذهب بالعقل الروحاني .

بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا الخلق ؟

إبتـدع الأشياء . . . إن الله أوجـد عالم الـوجود هـذا من العدم دون مـادة أو سبب . . . أنشأه إنشـاءً . . . أوجده دون أن يكـون عنـده نمـوذج يأخذ عنه .

أنشـأ الإنسان وأوجـده قبل أن يكـون له سـابقة صـوريّـة (من غـير حاجة . . .) أكان بحاجة إلى خلقك فخلقك حتى يَسُدَّ حـاجته بـك . . . أخَلَقَـك حتى تساعـده . . . أبـداً لم يكن بحـاجـة إلى خلقـك (ومن غـير فـائدة . . .) ولا حتى يؤدي خلقـك نفعاً للخـالق فهـذا محـال إذ لا يمكن للفقير المطلق أن يُصبح في وقتٍ من الأوقات نافعاً مطلقاً . نظام الخلق هذا ليس هو لرفع الحاجة ، ولا هو لإيصال النفع إلى الخالق ، الحاجة لا سبيل لها هناك عـلى الإطلاق . أو ربمـا كان مستـوحشا فـأراد رفع تلك الـوحشة بواسطة الخلق . . . أبداً لم يكن الهدف هو هذا .

*****

وهنـا يُسـأل : إذاً خلق المـوجـودات لمـاذا ؟ نـظام الخلق العـظيم ذاك . . . هذه المنظومة الشمسية وما تشتمل عليه لماذا ؟ هـذا سؤال عقلائي على كل شخص أن يلتفت إليه ويفهم جوابه أن ما هـو القصد من الخلق .

يجب عقلا على الإنسان أن يُدرك لماذا جاء إلى هـذه الدنيا ؟ وإلى اين هو ذاهب؟ وهل يُعدم بالموت؟ أم أن الموت هو تبديل في المنـزل؟ بدعـة أولئك الـذين يتركـون هذا العلم وهم في حالٍ من الجهـل والعمى . إن الجواب على هذا السؤال يجب أن يعطى عن طريق الوحي . . . لنأخذ الجواب عن لسان القرآن وأهل البيت عليهم السلام .

إظهار القدرة في الخلق

فـاطمة الـزهراء (ع) تشرح القـرآن وكلمات أبيهـا (ص) وتـذكـر في خمس جُمَلٍ هي في غاية الفصاحة والبلاغة الهدف من الخلق فتقول (ع) :

(تبييناً لحكمته وإظهاراً لقدرته وتنبيهاً على طاعته . . .)

دورة الخلق العـظيمـة هـذه هي لإظهـار القـدرة الـلامتنـاهيـة ، خلق الإنسان ومنحه الإدراك أيضـاً حينئذٍ أظهـر قدرتـه للإنســان (وسوف نذكر فيما بعد لماذا كان خلق الإنسان) .

خَلَق الإنسان المدرك للكُلّيات بإرادته (**يُدْرِكُ الكُلّيّـات إن هو أراد**) ثم أظهـر الحِكَمَ الإلهية ودقـائق الصنـع التي أحْـدِثَت في نـظام الخلق عـلى أوجهها كافة بحيث لو أمعنَ الإنسان النظر لَدُهش بالفعل .

نظرة إلى حركات الكرة الأرضية

إحسبـوا دورة واحدة من دورات الكـرة الأرضية . . . كـوكب بهـذه العظمة وهـذا الحجم مع مـاله من مسـافة كبـيرة تفصله عن الشمس . . . هـذه الحركـة المَنَظَّمـة سواء منهـا الوضعيـة حيث تدور فيهـا الأرض حـول نفسها، أو الإنتقالية حيث تدور خلالها الأرض حول الشمس، أو سواء منها حركتها من الشمال إلى الجنوب، دقيقة إلى حدّ أنها في كل يوم تتقدم بمقدار نقطة ، وفي اليوم التـالي بمقدار نقـطة أخرى من الشـمال إلى الجنوب إلى أن

تبلغ نقطة الإنتهاء حيث الخريف نهاية الحركة الشمالية لهذه الكرة ، ثم هي بعد ذلك تعود ، والليالي تطول ، والنهارات تقصر بالتدريج إلى أن تبلغ منتهاها . أول فصل الشتاء حيث نهاية هبوطها باتجاه الجنوب حيث شبَّهوا ذلك بالمَهْد . تحرُّكها من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب حيث (١٨٠) درجة ذهاباً و(١٨٠) درجة آخر إياباً وخلال ستة أشهر تتجه صعوداً وخلال ستة أشهر أخرى تتجه نزولاً .

في فصل الصيف ، ظهراً ، أنظر نحو السماء ، تر الشمس فوق رأسك مباشرة وبعد ستة أشهر أخرى تراها أمامك ، أي إنها ذهبت باتجاه الجنوب . كلامنا في الأساس هو عن مسألة النظام . فدون أن تتوقف ولو ليومٍ واحد . . إن هي توقفت في نقطة محدّدة من الأرض لمدة (٧) أو (٨) أيام لما وجدت هذه الفصول الأربعة: الربيع، الصيف، الخريف، الشتاء. إن لم توجد لما كانت وُجدت موجودات الكرة الأرضية ولما أمكنها الحياة . هذه الثمار ، حتى حياة الحيوانات لو لم يكن الربيع من أين كانت ستحيا موجودات كُرة التراب هذه .

تكامل الإنسان في المعرفة

الهدف هو إمعان النظر في الخلق الذي كلُّه إظهار للحكمة (تبييناً لحكمته) إن الله تعالى قد جعل هذا النظام طافحاً بالحكمة حتى يَظهر لك . . . حتى تتعرف إلى ذاته الأزلية بالقدرة والحكمة ، لتقول حينئذٍ ، عن يقين ، وعلم ، ومعرفة : الله أكبر .

إذاً الهدف من هذا النظام هو القوَّة العلمية والعملية وتكميلها في الإنسان . ولقد قلت مراراً إن الإنسان يُكمَّل هنا حتى يُصبح قادراً على إدراك قدرات هذا العالم جيداً طالما هو موجود على سطح كرة التراب والمادة هذه ، فتتولّد في ذاته من هذه الإدراكات الجزئية ، الإدراكات الكلّيّة لكي

يحصل على أنواع السعادة الأبدية في العالم الباقي إذا ما هو غادر هذا العالم بدنياً مزوداً العلم والمعرفة .

نظرة إلى الفيل والبعوضة

إن الله تعالى قد خلق الفيل بأي جثة عظيمة ، خرطومه محيِّر للعقول . أيُّ قدرة يملك في خرطومه هذا يلفه حول الشجرة يقلعها من مكانها . في مقابل ذلك خلق البعوضة لتقول : الله أكبر ، كل ما أوجده في ذلك الفيل بتلك القدرة العظيمة جعله أيضاً في هذا الحيوان الصغير . لا ينقصه شيء عن الفيل . تلك العظمة والقدرة الموجودتان في خرطوم الفيل موجودتان أيضاً في خرطوم هذه البعوضة .

في بعض الأحيان تغرس البعوضة إبرتها بسرعة وتسحب الدمَّ . أحياناً تدخل خرطومها الدقيق من ثقب الغطاء الرقيق الذي تجعله على رأسك ووجهك وتفعل فعلها وتسحب الدم وما إنْ تتحرك حتى تَفِرّ .

الله أكبر . . . أي إظهار للقدرة هو هذا ؟! خرطوم البعوضة هذا بهذه الدقة هو كالشعرة ، من الذي ثقبه من وسطه ؟ لو لم يكن وسطه مثقوباً لما استطاعت أن تسحب الدم . بأي مثقاب ثقبه ؟ ثم كم هي ذكية في الفرار . هكذا جعلها سبحانه وتعالى في عملها . ما إن ترفع يدك حتى تدرك أنها تتحرك . ما إن تحاول أن تتحرك حتى تكون قد فَرَّت . إنها أذكى منك وأفعل .

****

البعوضة هي لإعجاز المتكبرين

عندما ضايقت (منصور الدوانيقي)[1] ذبابة كانت تحط على وجهه وكان هو بدوره يتضايق من ذلك ، سأل الإمام الصادق (ع) : آه . . . ما هذا ؟أآلله خلقها ؟ قال الإمام (ع) : إن الله تعالى خلق هذا حتى يُفهِمَ المستكبرين عجزهم .

أيها الإنسان . . . إنّك لا تستطيع قهر حتى بعوضة فلا تبقَ إلى هذا الحد تقول : أنا أنا . . . ، أنظر إلى نفسك في مقابل نظام الخلق على أنك ضعيف إنك لا تستطيع قهر حتى بعوضة فماذا يعني قولك الدائم : أنا أنا . . .؟؟

(تبييناً لحكمته وإظهاراً لقدرته) حتى يُبرز حكمته لكي يعرف الإنسان بنور العقل الله الحكيم الذي هو (على كل شيء قدير) لكي تخشع بفضل هذا العلم .

القرآن والتفكّر في الخلق

القران الكريم يذكّر بأن على الإنسان أن ينظر إلى طعامه ، كيف أن يد القدرة جعلته على هذه الصورة[2] . أنظر إلى النخل ، أنظر إلى العنب ، أنظر إلى . . الحيوانات التي خلقها هي الأخرى لكم . (والأنعام خلقها لكم) إذاً خالقك أنت وهو والجميع واحد ، لأن هؤلاء كلُّهم لبعضهم البعض . إن الذي خلق جهاز جسم الإنسان المحيِّر ، هو نفسه خالق النباتات والحيوانات ليتحوَّل النبات إلى جزء من الحيوان ،

---

(١) أحد الخلفاء العباسيين البخلاء .

(٢) ﴿ فَلْيَنْظُر الإنسانُ إلى طَعَامه إنّا صَبَبْنَا الماءَ صَبّاً ثُمّ شَقَقْنَا الأرضَ شَقّاً فَأنْبَتْنَا فيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَفَاكِهَةً وَأبّاً ﴾عبس/٢٦ .

وجزء من الإنسان ، حتى يبلغ الإنسان الدرجات والمقامات العُلى ، حتى يشهد بوحدانية خالق الكون عن علم[٢] .

إذاً لُبُّ عالمِ الوجود هو الإنسان وما بقي هو القشر . بلى إن الأمرِ ليصل به إلى حدّ أن يقول مع ذاته الأزلية : « لا إله إلاّ الله » . إنه ليستدلّ على التوحيد عن علم ويقين من وحدة الصنع ووحدة الغاية ويقول عن علم : أشهد أن لا إله إلا الله . إن الشهادة من الشهود بمعنى الحضور أي إنَّ هذا المفهوم بديهي عندي ، واضح وضوح الشمس إذ إنني أشهد أنَّ خالق السماوات والأرض والكواكب واحد . المدير والمدبِّر للجميع واحد ، والجميع يدور بإرادة واحدة .

﴿ وَإِلٰهُكُم إلهٌ وَاحِدٌ ـ وَهُوَ الَّذي في السَّماء إلهٌ وَفِي الأرضِ ﴾[١] .

الشواهد على التوحيد لا متناهية

أَرَدْت أنْ يتضح معنى(إعزازاً لدعوته) . بكم من الشواهد أتى الله سبحانه وتعالى على توحيده ؟ أيُّ أمرٍ يريدون إثباته يأتون عليه بدليل أو دليلين أو مئة دليل أو قُل : ألف دليلٍ ! ولكن ربَّ العالمين أتى بشواهد على وحدانيته وصفاته الكمالية بعدد الأوراق على أغصان الشجر ، والأسماك التي تسبح في أعماق البحار . . بل جميع الموجودات هي شواهد على ذلك .

يقول الشاعر ما مضمونه : إن كل ورقة من أوراق الشجر الخضراء هي في نظر اللبيب دفتر من حكم ومعرفة الله سبحانه وتعالى .

إن كلَّ عرقٍ من عروق بدنك ، وكل عظم ، بل كل شعرة ، يشهد

---

(١) ﴿ شَهِدَ الله أنَّهُ لا إلهَ إلاّ هُوَ وَالمَلاَئِكَةُ وَأولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لا إله إلاّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ آل عمران/١٨ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٨٤ .

على الصانع وسائر الأعضاء الأخرى ، وأجزاء جسمي كُلُّها مصنوعة ؛ لقدرة الحق والحي الأزلي الذي هو عليم ، وقدير ، وحكيم . فَلْيَقُل الجميع بلسان حالهم : لا إله إلاّ الله . ﴿ قُلْ لَوْ كانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبّي لَنَفَدَ البَحْرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ (التوحيد والعظمة والكمال) رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾[1] .

الدعوة الأخرى التي قام بها الله سبحانه وتعالى هي الدعوة إلى الجنة وعالم الآخرة . « وَاللَّهُ يَدْعُو إلى دَارِ السَّلام » .

الشيطان يدعو إلى الدنيا ، يدعوك إلى نفسك ، وهواك ، وشهوتك . أما خالقُك فيدعوك إلى عالمٍ يظهر فيه أصل القدرة والسلطان الإلهيين . أنت خُلِقْتَ لهكذا عالم ، ولقد دَعَم الله سبحانه وتعالى الدعوة في هذه الدنيا إلى القيامة والجنة وباختصار . . المعاد بالعروض التي له سبحانه وتعالى في عالم الطبيعة .

التكامل الدنيوي نموذج عمّا بعد الموت

أنظر إلى النشأة الأولى هذه لتعلم أنك تتجه نحو الكمال . في البداية كنت نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم لحماً وعظاماً ، وحينئذٍ نفخت فيك الروح إلى أن جئت إلى هذا العالم ضعيفاً لا حول ولا قوة ، ثم كنت صغيراً قليل الإدراك ، فكَمُلَتْ قواك الحيوانية كلُّها بالتدريج فهل حدث أن توقف فيك هذا التكامل يوماً ما ؟

لقد رأيت أننا جعلناك تتكامل فاعلم أن هذه هي المرتبة الأولى من الكمال ودرجته الدنيا أمّا كمالك الحقيقي فيظهر بعد الموت .

(١) سورة الكهف : الآية ١٠٩ .

الإدراكات تزيد بالموت

في الحقيقة لم تكن تدرك شيئاً أوّل ما وُلِدْت ، ولكن سنة بعد سنة ، صارت إدراكاتك أكثر ، ورُشدك العقلي أكبر . إذاً فأنت تتجه نحو الكمال ولا تحصل وقفة في هذا الجانب بالموت . إن عُدِمْتَ بالموت فهذا خلاف الحكمة وأنت قد عرفت حكمة الله سبحانه وتعالى في كل أجزاء عالم الوجود . إذا عُدِمْتَ بالموت فخلقك لغواً إذاً ، ولكن لا يوجد عقل ، أو وجدان ، يقبل بهذا الكلام ، بل الموت هو أوّل مسيرتك التكاملية . . هو أوّل حصادك وإنتفاعك أو كما يقول العظماء : « المعرفة بذر المشاهدة » .

لقد عَمِلتَ هنا عمراً ، وتفكّرت حتى أدركت مقام علي (ع) وآله . إن بداية الموت هي وقت رؤية ما أدركت . إنها اللحظة التي ترى فيها طبق إستعدادك وفهمك أحقيّة عُلُوِ علي (ع) . هناك هو عالم الشهود ، كل ما حصَّلته من المعارف والحقائق المعلوماتية وتشاهده هناك بالعيان .

هدفي الإستفادة وترقي الإدراكات منذ الموت وإلى ما بعد ، حيث العلم يظهر بصورة شهود . ليس عجيباً أن يقول سبحانه : ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيد ﴾ ، مهما ترقى الإنسان يبقى هناك مع ذلك متسع من المكان ليتقدّم أكثر ، وتحصُلَ له إنعامات وأنواع من الإحسان جديدة ، وألطاف كثيرة . هنا لا وجود لمكررات هي مملة بعد الآن بل كلُّه « جديد بجديد ، حديث بحديث » .

إذاً رأيت كيف أننا في النشأة الأولى وجّهناك باتجاه الكمال . . . دعوناك إلى كمالٍ أعلى ، ومقامٍ أرفع من هو الذي يكون نصيبه في هذه الدنيا حياة سعيدة ؟ لا شكّ أن مكان السعادة الحقيقية هو عالم آخر .

نموذج من الدعوة إلى اللذائذ

البراهين الإلهية على الدعوة إلى الجنّة تفوق الحصر ، ولقد دعَّم الله

تعالى دعوته هذه بالأنعم التي لا تحصى ، نرجـو الله أن يصبح الإنسـان من أهل الفهم والعبرة . . فالذي يرى المثال على ذلك في هذا العالم بهذا الضيق الذي هو غير قابل لتجلي القدرة بتمامها جاهـل . إنكم تزرعـون في الأرض بذر بطيخ ، فتُعطيكم عدة بطيخات ، وعدداً من البذور .

هذا نموذج من التكامل في سائر المـوجودات ونمـوذج صغير عن النعم الأخروية اللذيـذة . هذه نمـاذج تهزّك لتتحـرك باتجـاه أصلها . . . لتحمـل نفسك إلى مضمونها[1] .

هذه قطرة من أصل الحلاوة التي خزينتها محفوظة عند ربّك . ما تراه من الجمال هو ذرّة من أصل الجمال الذي هو بعد الموت .

كان كلامنا عن أن الله سبحانه وتعالى قـد دعَّمَ بشواهـد لا حصر لها على الدعوة إلى توحيده . لقد أتى بالشواهد في نظام الخلق هـذا إلى حدّ أنّ التـوحيد هـو من أوضح الأمـور العقلية عنـد كل عـاقل . ثم الـدعـوة إلى المعاد ، حتى يعلم الإنسان أن لـه إلهاً أتى بـه ويأخـذه ونحن إليه راجعـون نحن ملك لله ونرجع إليه ، إلى العالم الأعلى ، إلى لقاء الله .

أيها الإنسان أنت بالموت لا تُعْدَم . إن الله سوف يمنحك الحياة مرّة أخرى وسوف يحقّق في أفعالك وأعمالك وسوف يوصلك إلى مقـاماتٍ حيث لاعـين رأت ولا أذن سمعت ، ولكي يـدعّم هـذه الـدعـوة ويثبِّت حجّتـه جعل الشواهد في هذا العالم إلى حدّ أن لا نهاية لها .

أنت يـا من تعجب كيف يمكن لإنسان أن يبعث حياً بعـد أن صـار تراباً أنظر كيف يجمع الجزيئات المتفرقة لتصبح على شكل نطفة . النباتـات التي تصـل إلى يدي ويـدك أولم تكن إلاّ جزيئـات ترابٍ متفـرقة جمعت مـع سائر المواد وهي تدخل أجسادنا على هذا الشكل بزيادة ونقص الأجـزاء بيد القدرة الإلهية .

---

(١) ﴿ وَإِن مِنْ شَيْءٍ إِلاّ عِندَنا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُوم ﴾ . الحجر/٢١ .

يوم القيامة يجمع المتفرّق أيضاً

العجيب أنها تتفرق مرة أخرى فعندما يعبر الأرز أو القمح بلعوم الأب فإنه يتوزع على كل أجزاء الجسم ، ثم تعود يد القدرة الإلهية وتجمعه في ظهر الأب . ويدخل بعد ذلك رحم الأم عن طريق أوعية المنيّ .

هل ترى كيف أننا جمعنا الأجزاء المتفرقة وصنعنا منها جسداً ثم هي بعد ذلك تتناثر لتعود فنجمعها مرة أخرى .

القرآن الكريم يُذكر مراراً وتكراراً بهذا الأمر : ﴿ **قُلْ يُحيِيهَا الَّذي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّة** ﴾[1] . نفس يد القدرة تلك التي جمعت الأجزاء المتفرّقة في الأنبياء هي التي تجمعها مرّة أخرى بعد أن كانت قد تفرّقت .

إنهم يبرزون المعاد أمام ناظريك على هذا النحو فهل تعجب بعد ذلك وتقول : ﴿ **إذا مِتْنَا وَكُنَّا تُراباً أإنّا لَمَبْعُوثُونَ** ﴾[2] .

حياة الأرض بعد موتها

إن كنت لا تزال متردداً ، ألق نظرة إلى الأرض من تحت وانظر كيف تكون ميتةً والنباتات يابسة في فصل الشتاء . ولكن مع مطلع الربيع فإن حياة جديدة تُفاض عليها ، تتلاحق منها آثار الحياة ، تظهر النباتات المختلفة ذات الثمار المتنوّعة . إنها الحياة بعد الموت .

النوم . . . شاهد المعاد الناطق

من الشواهد القوية التي جعلها رب العالمين في عالم التكوين ، والتي هي برهان ناطق على المعاد ، والحياة بعد الموت ، وليلاً نهاراً تحدث لكل

---

(١) سورة يس : الآية ٧٩ .

(٢) سورة الصافّات : الآية ١٦ .

شخص ، النوم ، الذي هو إلى حدٍّ ما ليس باختيار البشر . النوم هو بمنزلة الموت والإستيقاظ هو بمنزلة البعث لك .

كيف تتعجّب من الحياة بعد الموت في الوقت الذي تموت فيه وتحيا ، على الأقل ، مرةً واحدةً كلّ يوم ﴿ وَمِن آياتِهِ مَنَامُكُمْ باللّيل ﴾[1] .

وفي سورة الأنعام يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الّذي يَتَوَفّيكُم باللّيل . . . ﴾[2] . إن النوم والموت يشبهان بعضهما البعض إلى حدٍّ كبير . أثناء النوم تتعطل العين ، والأذن ، والذائقة ، والإرداة ، والتفكير ، عن العمل ، هناك فقط شعاع من روح مع هذا البدن . والذي على أثره تستمر تلك القوى النباتية في العمل ويبقى عمل الجسم مستمراً لجهة هضم الغذاء والتنفّس ودوران الدَّم .

في حالة النوم ، يحدُث إنقطاع جزئي في الوقت الذي يبقى فيه شعاع الروح على حاله . والميّت لا فرق بينه وبين الشخص النائم لجهة القوّة العاقلة وتدبير شؤون الحياة . إذاً (النوم أخ الموت) .

بعدما تستيقظ من النوم يعني ذلك أنك أحْيِيْتَ بعد الموت . فهل ما زلت تتعجّب من الحياة بعد الموت ؟

القيامة يحكم بها العقل

لنفرض أنه لم يكن لدينا أدلّة نقلية بأن الأنبياء جميعهم لم يأتوا ليقولوا للناس أن هناك قيامة وأنهم سيطالبون بما قالوا وفعلوا وإعتقدوا ، فإن العقل هو أكبر شاهد ودليل على أنّ دوران عالم الأفلاك والخلق الأوّل لكل موجود لن يكون دون نتيجة وغاية . كل عاقل إذا ما نظر حواليه فإنه يرى

---

(١) سورة الروم : الآية ٢٣ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٦٠ .

أنَّ الليـل يصبح نهاراً ، والنهـار يصبح ليـلاً ، يأكـل ، وينام ، ويتخـلّى ، ويقضي شهواته ، يكبرُ ، ويُصبح شـاباً ، ثم يصبـح شيخاً ، ثم بعـد ذلك يموت .

هذا النظام الـلامتناهي ، والـطويل ، والعـريض الذي يُـرى ، هل القصـد منه هـو هـذا فقط ؟! إذاً فقـد خلقـوا الإنسـان معمـلاً لصنـاعـة النجاسة ! هذا عبثٌ ولغو . من أجل الأكل وقضاء الشهوة هناك الحيوانات ولم يكن من حاجة لخلق الإنسان .

إن أولئـك الـذين ينكــرون الآخـرة لا يَقْبَلون الله عــلى أنـه حكيم (أستغفـر الله) لأن معناه أن هـذا النظام لغـوٌ وغـير ذي نتيجـة[١] ولكنهم أخـطأوا ففي أيِّ مكان وأيِّ شيءٍ نـراه فهـو مـترافق مـع آلاف الحِكَمْ التي يمكن للإنسان أن يتوصّل إلى عددٍ منها .

إن أقَـل الأشياء في عـالم الوجـود لا يخـلو من مصلحـة حتى الأشيـاء الزائدة ، كالشعر والظفر لا يخلوان من حكمة .

مثلاً من بين الحكم التي هي للظفر هذا العضو الصغير والمهمـل هي أنه بمنزلة المتكأ والدعامة لأصابع اليد فعنـدما يحاول الإنسان رفـعَ شيءٍ ما فإنه يرفعه بفضل هذا الظفر حيث أنـه يتحمل الضغط الـذي يحدث عليـه من جرّاء ذلك وإلاّ لما أمكن القيام بـذلك العمـل كما إذا قلّمتم الأظـافر في بعض الأحيان فإنه يشقُّ عليكم حينئذٍ رفع بعض الأشياء فكيف إذا لم يكن هناك ظفراً أصلاً .

ثم إن هذا الظفـر يُستعمل لحـكّ البدن ، بـالإضافـة إلى ذلك فـإن المواد الزائدة ، والقذرة ، يتمُّ دفعهـا عن طريق هـذا الظفـر نفسه ، ولهـذا أمرنا بتقليمها على الأقلِ مرة واحدة في الأسبوع (خاصة يوم الجمعة) .

---

(١) ﴿ أفَحَسِبْتُم أنَّما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأنَّكُمْ إلَيْنَا لا تُرْجَعُون ﴾ .

إنه لا يوجد حتى شعرة واحدة في الجسم لا تخلو من مصلحة . يقول الإمام الصادق (ع) للمفضّل :

إن بعض الجُهَّالِ قالوا : إنه لو لم ينبت الشعر في بعض أماكن الجسم لكان أفضل . إنّهم لم يعلموا أن تلك الأماكن هي محلٌ لتجمع السوائل ، والأوساخ ، ولو لم يتم دفع المواد الزائدة ، والقذرة ، على شكل شَعْر لكان مَرِض الإنسان[1] .

ولهذا فقد أُمِرنا أن نتعجل إزالته (كل أسبوعين كحدٍّ أقصى) .

إن أجزاء عالم الوجود كلّها إذا ما نظر إليها الإنسان فإنه يرى أنها غارقة في الحكمة . من المشهور إنه عندما إعترض (جالينوس الحكيم) على خلق جُعَلْ وقال : إنني لا أرى فيه أية فائدة تذكر ، فلماذا خلقه الله ؟ إلى أن ابتلي بألمٍ شديد في عينه ، ومع أنه نفسه كان من بين أفضل الأطباء ، واستعمل كل ما كان يعرفه من الأدوية ، إلاّ أنّ كلّ ذلك لم يُفِدْهُ . داواه الآخرون كذلك ، لم ينفع ذلك ، إلى أن جاءت إمرأة عجوز وقالت : أنا عندي رمادٌ يشفي ألم عينك ! فاستعمله وشُفيت عينه . سأل عن تركيبة هذا الرماد فأُعلم أنه كان خليطاً فيه شيء من جسم ذلك الجُعَلْ[2] .

لا توجد حتى ذرةٌ من ذرّات عالم الوجود دون حكمة فهل عالم الوجود نفسه دون حكمة؟! لم يُخْلَق حتى ولا جزء واحد من أجزاء الجسم دون مصلحة حتى الظفر والشعر . إذاً فهل جسم الإنسان نفسُه قد خُلِقَ دون غاية ومصلحة ؟! هيهات .

إن العلماء المحدثون يتفقون جميعهم على أنهم لم يطّلعوا على كلّ حِكَم وعِلَلِ نظام الخلق ثم بعد ذلك الله وحده يَعْلَم أيُّ عجائب

---

(١) لتفصيل أكثر فليرجع إلى كتاب (توحيد المفضّل) الذي نشر على شكل كرّاس .

(٢) دويبة صغيرة .

تُكْشَفْ . . . كما أنه فـي الثلاثين والأربعين سنة الأخـيرة كانـوا يظنـون في (أوروبـا) أن (الـزائـدة العـوراء) إضــافيـة في الجسم التي هي نفسهـا الـ « آپانديست » تلك ، ولهذا كان قد راج أنه أيضاً الأفراد السـالمين كـانوا يذهبون ، ويخضعون لعملية جراحية ، ويستأصلون هذه الـزائدة !! إلى أن أعلنوا أن الشخص المعافى لا يجب أن يقـوم بهذا العمـل ، لأنهم علموا أن هذه هي في حكم بوق الخطر للأمعاء (قد يكون لها حِكَمٌ عديدة أخـرى لم يُدركوها) .

إنـه لا يوجـد في الجسم حتى ولا سنٌّ واحد دون حكمـة فما تقـوم به الـطواحن لا يمكن للقواطـع أن تقوم بـه . من الـ « ٢٤٨ » عظماً لا يـوجد حتى ولا عظماً واحداً دون مصلحـة بمعنى أنه لم يكن فـالجسم يكون نـاقصاً وكذلك العـروق والأعصاب إذاً فهـل أن الجسم كلّه دون حكمة ؟! وبعـد أن اعتـبرنا أن خـالق الكون حكيم ، وأنّ أقـلّ شيء في عالم الخلق لا يخـلو من الحكمة . . حينئذٍ نتدبّر في الغـاية والحكمـة وأصل إيجـاد هذا العـالم ، نرى أن الغاية من إيجاد الجمادات والنباتـات والحيوانـات ، هي المنافـع التي تحصل للإنسان .

يقول الشاعر ما مضمـونه : إن الغيم والـرياح والقمـر والشمس بل والكـون كلُّه في عمـلٍ دائب لكي تحصـل عـلى خـبزك وتـأكله . إلهي إن الجميع حائرٌ لما تُنعِمُ عليه ، وهو لـذلك لـك مطيـع ، فليس من الإنصاف أبداً أن لا تكون مطيعاً أيها الإنسان .

هل إن الغاية من إيجاد الإنسان هو هذه الحياة الدنيويـة والماديـة على نحوٍ أنه يُقدّم بعد الموت ؟ إذاً حتى لو فرضنا ـ وفرض المحال ليس بمحال ـ أنّ حيـاة الإنسان في هـذا العـالم من أولها إلى آخـرهـا كلّهـا راحـة وعيش رغيد ، خالية من كّل ألم ونَصَبْ ، لكانت مع ذلـك عبثاً ولهـواً ، لأنها مهما كـانت حسنة فهي لن تكـون ذات اعتبار لأنها فـانية ومن المحـال أن يكون نظام الخلق هذا الذي هو بهذه السعة والعـظمة . . . من المحـال أن يكون

لغاية فانية في الوقت الذي فيه الحياة المادية البشرية مملوءة من أقصاها إلى أقصاها بالآلام ، والمصائب ، والمتاعب المختلفة وكما يقول « آسوده » (أي بمعنى مرتاح) :

لم أر في هذا العالم كلّه إلا شخصاً واحداً إسمه « مرتاح » مع ذلك فإن راحته هي في خلاصه منه .

وكما يقول شاعر آخر ما مضمونه : ليس في هذا العالم قلبٌ خالٍ من الغم وهو إن وُجد فلن يكون ذلك قلب إنسان .

حقاً إذا كان وجود الإنسان يُعدم بالموت وتكون حياته منحصرة بالحياة المادية الدنيوية التي هي ممزوجة بأنواع المكدّرات الجسمية ، والروحية ، والمصائب ، والمحن ، والأمراض ، والفتن ، والخسارة ، وغصب الأموال ، والمرض ، وموت الأبناء والأحبة ، وسائر المكدّرات ، فإن أصل الخلق والإيجاد سوف يكون عبثاً ومنافياً للحكمة ، والكرم ، وسائر الصفات الكمالية الإلهية .

وفي هذه الحالة فإن خلق الإنسان في هذا العالم يكون مشابهاً لأن يستضيف كريمٌ ما شخصاً في بيت مملوءٍ بالحيوانات المفترسة ، والمؤذية على أنواعها ، كالأسد ، والفهد ، والنمر ، والحية ، والعقرب ، والدبّور ، وما إلى ذلك ، وعندما يدخل يقدمون له الطعام ، ومع كل لقمة يأكلها تتجمع عليه عدة كائنات حية ، وتلدغه في يده ، ولسانه ، وحملة السيوف يقفون أمامه ، يهجمون عليه في كل حين ، وقبل أن يصل إلى الذي يريد الوصول إليه ، يقطعون رأسه .

إذاً لا بد أنه سيكون للإنسان في ما يأتي حياة أخرى وعالمٌ أفضل ، حيث تظهر فيه سعادته كلّها أي إنه ينتهي إلى نعيم لا يخالطه جحيم أبداً ، وإلى راحة لا يرى بعدها أية مشقّة ، وإلى سرورٍ لا يعترضه أي حزن ، أو

غمٍ أو ملالة أبـداً ، وإلى لذة وحظوَة ليس لهما فناء ولا زوال أبـداً . يقول الشاعر ما مضمونه :

مـا أجمل ذلـك اليـوم الـذي أرحـل فيـه عن هـذه الـدنيـا ، وهؤلاء الأحبة ، إنني بذلك أطلب راحة نفسـي ، واللحاق بمن أحب .

إذاً لقد تأكد بالبرهان العقلي القاطع أن الله سبحانـه وتعالى قـد خلق الإنسان لحياة خالدة ، وسعـادة ونعيم دائمين ، وهـو إنما استـوقفه في هـذه الحياة العاريـة ، حتى يؤمن مستقبله القطعي ، ولكي يـتزود من هذا العـالم لحياته الأبدية ، ولكي يطير من هذا العالم بجناحي العلم والعمل ، اللذين وهبهما له إلى العالم الأبدي ، ولو أن الإنسان حقاً راجع وجدانه ، وعقله ، وفطرته ، لأدرك أنه ربما يشك أو يتردّد في كل شيء ، ما عـدا مسألـة المبدأ والمعاد ، أي إنه ما من شكٍ أو ترديد في هـاتين المسـألتين : الإعتقـاد برب العالمين والإعتقاد بالحياة الأبدية بعد الموت وعالم الجزاء ﴿ وإن السّاعَةَ آتيَةٌ لا رَيْبَ فيها ﴾ . السائد هو أن أكثر الناس على أثر الغـرق في الشهوات ، والإشتغال بالمـاديات وارتكـاب الذنـوب . . . قد فقـدوا فطرتهم وامتـلأت قلوبهم بالريب والشك . ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسانُ لِيَفْجُرَ أمَـامَه ﴾ . إذاً بحكم العقل هناك غاية من خلق هذه الأفلاك والعوالم وجسم كل واحدٍ منّا يُعرف في اليوم الآخر . بناءً على هذا يجب أن نسعى وراء هذا العالم الآخر .

الصادقون يخبرون عن يوم القيامة

لأن الأنبياء هم أصدق الخلق وقيل إنهم هم لنا جميعنا حجة وبـرهان (كما ذكرنا ذلك بالتفصيل في بحث النبوة) قد أخـبروا بحلول يوم القيـامة وجميع متديني العالم من كل دين وأمة إعتقدوا ويعتقدون باليوم الآخر .

أساساً أُسُّ الديانة ومرجعها إلى أصلين إثنين : «المبدأ والمعاد» وفي أكثر آيات القرآن التي تتحدّث عن الإيمـان بالله تنتقـل على الفـور للحديث

عن الإيمان بيوم الجزاء ﴿ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَاليَومِ الآخِر ﴾ ، وجميع المذاهب والأديان هي في هذين الأصلين واحدة أي إن الكل مؤمن بالمبدأ أو المعاد .

إجمالاً المخبرون الصادقون ليسوا واحداً وليسوا عشرة . . . الألوف يخبرون بحلول يوم الجزاء (إذاً بحكم التواتر) يعترف العقل أنه لا بد من القبول بأن هكذا يوم سوف يجيء .

أفضل دليل هو « إمكان الوقوع »

كما قيل سابقاً قضية المعاد ليست محالاً عقلياً وعندما يقوم العقل بحساباته فإنه يحكم بأن القيامة أمرٌ ممكن ، إضافة إلى أن المخبرين الصادقين أي الـ« ١٢٤ » ألف نبي وأوصيائهم قد أخبروا بذلك بحيث أن كل واحد منهم يكفي لوحده لتصديق العقل السليم .

بعض الرسُل قد ألقوا الشبهة في أنّ (إعادة المعدوم مما امتنعا) أي أنه كيف يمكن لشيء صار لا شيئاً أن يصير مرة أخرى شيئاً طبعاً هم لا يملكون أيّ دليلٍ على هذا الإدعاء وهم يتمسكون فقط بالضرورة ويقولون : دليلنا هو كينونة هذا الأمر ضرورياً وواضحاً !! ولنفرض أن شخصاً إستطاع أن يأتي بالدليل فقط أعطي الجواب مسبقاً .

أولاً : كما يقول (المحقق الطوسي الخواجة نصير الدين) ـ عليه الرحمة ـ : « إنه ليس في المعاد إعادة للمعدوم بل هو جمع للمتفرّق » . وتوضيح قوله هو التالي : إن الجسم الذي هو مركّب من أجزاء وذرّات قد تفكك ، صار قطعاً صغيرة جداً ومتناثرة ، وعندما تحدث القيامة تجتمع هذه الذرّات المتناثرة بقدرة الله . إذاً فالمعاد يعني جمع الأجزاء وجمع الروح والجسد بعد الإنفصال .

إذاً فالمعاد ليس إعادة للمعدوم حتى يكون ممتنعاً أو غير ممتنع (إضافة إلى أن أصل الموضوع ليس صحيحاً) .

وثانياً : أكبر وأفضل دليل على إمكان كلّ شيء وقـوع مثله . فلو أن كل إنسان تفكّر في حالة جسدة الأوليّة فإنه سوف يدرك أنه في البداية كـان هنـاك جزئيـات متفرقـة لا حصر لها بعضهـا من التراب والهـواء والمـاء قـد تجمّعت بـالقدرة الإلهيـة القاصرة وظهـرت في شكل أنـواع من المـأكـولات كالخضار، والحبوب، والبقول، والحيوانات، ثم دخلت عن طريق بلعوم الأب إلى المعدة، وتفرّقت للمرة الثانية في جميع أجزاء جسم الأب حينئذٍ وأثناء هيجـان الشهوة ، تؤخـذ خـلاصـة الأكـل المهضـوم ومن ذرات الـرطـوبـة وتستخلص السـوائل المتفـرقة من كـل الأعضاء ، ثم وعن طـريق الأوعيـة المنوية تخرج من ظهر الأب لتستقرّ في الرحم ولهـذا وجب غسل الجسم كله بعد هذه الحالة لأن جزيئات النطفة قد أُخِذَتْ من الجسم كله .

وإجمالاً كل جسم كان في البداية أجزاءً متفرقة لمرتين حيث جمعتها يد القدرة أولاً في قلب التراب والمـاء والهواء ﴿ **إنـا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُـرَابٍ** ﴾ المرة الثانية في كل أجزاء جسم الأب وبعد مشاهدة هاتين المرّتين والعلم بهما هل يبقى هناك من عجب في جمع وتـركيب هذه الجـزئيات بـالنسبة إلى المـرة الثالثـة حيث تكـون قد تحلّل في القـبر وتفرّقت ﴿ **وَلَقَـدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأةَ الأولى فَلَوْلاَ تَذَكّرونَ** ﴾[1] . أي : أيها الإنسان ، أنت كنت تراباً ويد قدرتنـا هي التي جَمَعَتْكَ ، أي صِرْتَ على شكل مـادة غذائيـة هي جزء لا يتجـزأ من جسم الأب ، وبعد التوزُّع في أنحاء جسم الأب ، جمعناك مـرّة أخرى وأخرجناك من الأب على شكل نطفة ، وأقرَرْنَاك في رحم الأم .

لقـد رأيت هذا الجمـع والتفريق في هـذا العـالم إذاً فلماذا تتعجّب إذ يجمعونك للمرّة الثالثة بعد تفرّق أجزائك في أنحاء العالم؟ وأيضاً كثيـراً ما يحـدث الإحياء بعـد الموت فـأنتم تشاهـدون حياة النبـات في الربيـع حيث يبقى هناك من عجب في جمع وتركيب هذه الجزئيات بالنّسبة إلى المرة الثالثة الأشجار النباتيـة تعود إليهـا الروح بعـد الموت ، واليبـاس ، والأرض ، إذ تكون ميِّتة فتدب فيها الحياة مرَّة أخرى ﴿ **يُحْيِي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ ونفس

الإنسان حَدَثٌ أن أُحْيِيَ بعد الموت . . . إحياء الموتى على يد السيِّد المسيح (ع) وكذلك أئمتنا عليهم السلام فكثيراً ما إتفق أن أُدْرِجَ بعض ذلك في كتب الأخبار . وكمثالٍ على إحياء الموتى فلنذكر قِصّتين من القرآن الكريم :

عُزَير . . مات مئة سنة

يذكر الله سبحانه وتعالى قصة (عُزَير) في سورة البقرة حيث خلاصة الآيات وشأن النزول وتفسيرها هو التالي :

كان عزير من بين أنبياء بني إسرائيل ، وحافظاً للتوراة كلّها ، وكان معلماً ، وقدوة اليهود في بيت المقدِس .

عندما سافر بحماره كان معه كمية من الخبز والعنب . وصل إلى قرية كان أهلها قد هلكوا منذ سنوات كثيرة ولم يكن قد بقي منهم إلاّ عظام نخرة . عزير ، ومن باب الحيرة والتّعجُّب ، ألقى نظرة إلى هذه العظام وقال :

﴿ أنّى يُحيِي هذه الله بَعْد مَوْتِهَا ﴾ .

طبعاً كان ذلك من باب الدهشة والإستعجاب لا أنه كان قد أنكر القيامة والبعث .

الله سبحانه وتعالى ، وحتى يفهمه بالحس أن القيامة التي هي عندك محيّرة وعظيمة ولكنها بالنسبة إلى الله لا أهمية لها ، أماته في مكانه وهو كان قد بقي على حاله هذه مئة سنة أما حماره فقد كانت عظامه قد صارت هي الأخرى نخرة ، ولكن العجب هنا ! فالعنب الذي هو بتلك الرّقة ، بقي طازجاً .

وبعد مئة سنة أحيا الله عزيراً ، فرأى أمامه ملكاً على شكل إنسان فسأله الملك ، منذ متى أتيت إلى هنا ؟

قال عزير : منذ يوم أو ربما أقل .

فقال الملك : لقد مضى عليك مئة عام وأنت هنا .

فنظر إلى حماره فرآه قد صار عظاماً نخرة . حينئذٍ قال الملك :

أنظر إلى حمارك وشاهد ماذا يفعل الله !

نظر عزير فرأى أجزاء وذرات جسم الحمار تحركت لتوّها ، وتلاصقت ببعضها البعض . . . اليد ، الرأس ، الرجل العين ، الأنف ، وغيرها من الأعضاء ، إتصلت ببعضها البعض وفجأة صار هناك حمار كامل قام من مكانه .

ثم إنه قال لعزير : أنظر إلى هذا العنب الذي لم يفسد أصلاً ، وانظر قدرة الله سبحانه وتعالى فعلم أن الله على كل شيء قدير .

عاد عزير إلى بيت المقدس فرأى أن وضع المدينة قد تغير ، لم يرَ أولئك الذين كان يعرفهم ، جاء إلى منزله على العنوان الذي كان يملكه ، دقّ الباب فجاء الصوت من داخل البيت يسأل : مَن ؟

قال : أنا عزير .

قالوا : إنّك تمزح فعزير قد انقطعت عنّا أخباره منذ مئة سنة فهل أنت تملك العلامة التي كانت له (إذ كان عزير مستجاب الدعوة) وأنا خالتك وقد فقدت بصري فاطلب من الله أن يعيده إليّ .

فدعا عزير وعاد النور إلى عيني خالته .

فقصّ ما حدث له وصار عبرة لنفسه وللآخرين .

القصة الأخرى التي جاء ذكرها في القرآن الكريم تتعلق بالنبي إبراهيم (ع) الذي طلب من الله أن يرى كيف يحيي الموتى حتى يطمئن قلبه ، فأُمِرَ أن يأخذ أربعة من الطّير مختلفة الأنواع ثم : إذبحها ، وقطّعها قطعة قطعة ، وإجعل كل قطعة من هذه القطع على رأس جبل ، ثم

إدعُهُنّ فسوف يأتين إليك مسرعين(١) .

وفي التفسير أن إبراهيم (ع) أخذ رؤوس الطير الأربعة بيده ، ودعاهم واحداً واحداً ، فرأى أن أجزاء كل بدن على حِدة قد تلاصقت ببعضها البعض ، وكل بدن كان يتم تركيبه ، يُسرع باتجاه رأسه .

أراد أن يقوم باختبار ، فأخذ رأس أحدها ووضعه في مواجهة جسد طائر آخر فرأى أنه لا يتصل به بالنهاية ، إتصلت الأبدان برؤوسها ، ودبّت الحياة في الطيور الأربعة .

إن اللهقادرٌ على كل شيء

قد يخطر في البال أن الله وحده يعلم كم قد تغيرت وتبدّلت جزئيات الجسم ، وكيف تجتمع مع بعضها البعض . هذه الشبهة تكون على أثر الغفلة عن علم وقدرة الله سبحانه وتعالى . فعندما علمنا في بحث التوحيد أن الله تعالى قد ﴿ أحَاطَ بِكُلِّ شيْءٍ عِلْماً ﴾ وليس هناك ، حتى ذرّة واحدة من ذرات الوجود ، خارجة عن علمه ، ومن ثم فهو قادر على كلّ شيء ، لا يعود حينئذ لهذه الشبهة مكان .

فهذا الجسم يبقى لفترة ثم يتعفّن ويُصبح طعاماً للنمل ، والكائنات الحية التي تعيش في المقبرة ، أو إنه يبقى حتى يترمّم ، ويصبح تراباً تذروه الرياح إلى هذه الجهة وإلى تلك . . . يصبح جزءاً من القمح ، والشعير ، وسائر الحبوب . . . صحيح ذلك ولكن لا يُعدَم على كل حال ، ولا ينقص شيئاً في علم الله ، والله سبحانه وتعالى يستطيع ان يجمع هذه الأجزاء أينما

---

(١) ﴿ وإذْ قَالَ إبْراهِيمُ رَبِّ أرِني كَيْفَ تُحيِي المَوتَى قَالَ أوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أرْبَعَةً مِنَ الطَّيرِ فَصُرْهُنَّ إلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأتِينَكَ سَعياً ﴾البقرة/٢٦٢ .

كانت كما ذكرنا حيث أمِر النبي إبراهيم (ع) أن يقطع أجساد الطيور الأربعة ، ويجعل كل قطعة منها على رأس جبل .

إجمالاً إنّ الله سبحانه وتعالى عالم بالأجزاء والذرات ، وإن وُجد منها آلاف الأنواع ، وكذلك هو قادر على أن يجمع بينها مرّة أخرى فَيُثِيب أو يعاقب[1] .

ولنذكر عدّة شواهد مختصرة إظهاراً لقدرة الله سبحانه وتعالى وأنه قادر على كل شيء :

الماء والنار مجتمعان

﴿ الذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإذا أَنْتُم مِنْهُ تَوقِدون ﴾[2] . . . أي أنه يحيي العظام النخرة ذلك الإله الذي يخلق لكم من الشجر الأخضر ناراً ، إذاً فأنتم تشعلون النار من هذا الشجر الأخضر . شجر الصفصاف والدلّب إذا قُطع منها غصن فإنه يكون رطباً إلى حدّ أن الماء يقطر منه « إحداها ذكر والأخرى أنثى » أما عندما يضربونها ببعضها فإن النار تخرج منها .

وفي جزيرة العرب كانت هاتان الشجرتان مهمّتان جداً لأنه لم يكن لديهم كبريت وأحجار صوان ، فكانوا يستفيدون منها .

إنه لأمر عجيب وعجيب جداً فالماء يقطر منها دون أي جهد وإذا ما ضربوهما ببعضها البعض يعطيان ناراً .

كيف جمع الله سبحانه وتعالى بين هذين الأمرين المتضادين فإذا كانا

---

(١) وهنا ربما نخطر على الأذهان شبهة « الأكل والمأكول » التي قالوا بها فيما مضى وللجواب عن ذلك يُرجى الرجوع إلى كتاب « ٨٢سؤال » للسيد دستغيب ، الباب الخامس ، المعاد .

(٢) سورة يس : الآية٨٠ .

رطبتين فيجب والحال هذه (إلا أن تكونا يابستين) أن لا تعطيا ناراً . والحكماء يدّعون أن الأشجار كلها فيها نار ماعدا شجر العُنّاب . أو إله كهذا لا يستطيع أن يعيد الروح مرة ثانية إلى الجسد المتفرّق ثم المجتمع ؟!!

العظام النخرة كيف تُحيى

﴿ وَضَرَبَ لَنا مثلاً وَنَسيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحيِيهَا الّذي أَنْشَأهَا أوّلَ مَرّةٍ وَهُوَ بِكُلّ خَلْقٍ عَليم ﴾ .

جاء (أُبَيّ بن خلف) مجلس خاتم الأنبياء (ص) في الوقت الذي كان فيه يشدّ على عظم نَخر في يده حتى تفتت ثم ذرّه مع الريح وقال :

من الذي يعيد إحياء هذا العظم في الذي هو فيه رميم ؟

الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات يلوم قوله الجاهل هذا فهو يضرب لنا مثلاً في الوقت الذي نسي فيه خلق نفسه أي إنه أنت لم تكن شيئاً يُذكر ، وهو خَلَقَك من لا شيء فقل أيها الرسول :

كما أنشأها أول مرة فإنه يعيد إحياءها وهو بكل خلقٍ عليم .

في البداية لم تكن شيئاً يذكر أما الآن فقد صرت شيئاً (عظم نخر) إن أجزاء جسم المؤمن تمتاز كالذهب عن الأجزاء الأخرى فعندما يهطل المطر ينحّي التراب جانباً، وتلمع جزيئات الذهب ، وهنا ليس محل خطأ، فجزيئات كلّ شخص يعاد جمعها كما ذكرنا سابقاً في قصة إبراهيم (ع) والطيور الأربعة ، حيث أخذ غراباً ، وديكاً ، وحمامة ، وطاووساً ، وقطع رؤوسهم ، ودقّ أجسادهم حتى إختلطت ببعضها البعض بشكل كامل ، ثم قسّمها (١٧) قسماً جعلها في سبعة عشر مكاناً من الجبل ، ثم أخذ رأس الحمامة بيده ، وناداها ، فتجمعت أجزاؤها من كل مكان والتصقت

برأسها . نادى الطاووس فحدث له ما حدث للحمامة فجعل رأس الديك في مقابل جسد الطاووس فلم يلتصق به ، ولم يقبل رأساً غير رأسه .

إنّ هدفي مما ذكرت هو أن أقول : إنه لا يطرأ الخطأ على علم الله سبحانه وتعالى .

خلق الأفلاك أهم من خلق الإنسان

﴿ لَخَلْقُ السّمواتِ وَالأرْضِ أكبَرُ مِنْ خَلْقِ الإنسان وَلَكِنّ أكْثَر النّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

خَلْقُ السّمواتِ والأرضِ ، وَجَعْلُ نظام معين لدوران كل واحد منها ، والعناية بها ، وإدارة شؤونها ، أكبر أم خلق الإنسان !؟ . . طبعاً خلق الأفلاك . إذاً فذلك الذي خلقها ، ألا يستطيع أن يعيد إحياء الإنسان ومحاسبته[2] . طبعاً يستطيع ، فهو إذا ما أراد أن تقوم القيامة حتى تقوم على الفور ، وإذا أراد في لحظة واحدة أن يحيا الجميع فإن ذلك يحدث فعلاً[3] .

دفع الضرر المحتمل واجب عقلاً

إذا إحتملنا حدوث ضرر كبير لنا فإن العقل يحكم بأن نفكّر في طريقةٍ لتجنّبه مثلاً إذا عبرنا من الصحراء الفلانية ، أو من الطريق الفلاني ، فهناك إحتمال أن يفترسنا حيوانٌ مفترس ، أو أن يسلبنا اللّص كلّ ما نملك ، أي إن ضرراً ما سيتسبّب لنا وهو ضررٌ كبير .

---

(١) سورة غافر : الآية٥٩ .

(٢) ﴿ أوَلَيْسَ الّذي خِلَقَ السّمواتِ والأرضَ بِقَادرٍ عَلى أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الخَلاّقُ العَليم ﴾ .

(٣) ﴿ إنّما أمْرُهُ إذا أراد شَيْئاً أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ يس/الآيات الأخيرة .

ومع أنه ليس لـدينا يقـين بذلـك ، إلاّ أن العقل يحكم علينـا بأن لا نـذهب من تلك الطريق بـل نسلك طريقـاً هي يقيناً آمنـة . إذاً فالأخـطار تختلف فيما بينها فأحياناً يكون هناك إحتمال خطر الوقـوع في خندق بسيط ، أو مثلاً عثور الرجل بحجرٍ ما ، حيث لا يهتم الشخص بهذا الأمر كثيـراً ، ولكن في أحيانٍ أخرى هناك الوقوع في الهاويـة ، إلى أن يبلغ حدّ السقـوط في هاوية جهنّم .

وعنـدما يبلغ الخـطر درجة كبـيرة ، فإن مجـرد الإحتمال يكـون كافيـاً للإمتناع . أضرب مثلاً : إذا قال لـك طفل أن عقـرباً عـلى ثوبـك يذهب صعوداً . هل تقول له : أنت طفل ، لا تفهم ، وكلامـك لا اعتبار لـه !! لا أبدا لأن الخطر كبير . هناك عقـرب وليس فراشـة . إنّك تقلع معطفك على الفور وتبـدأ بالبحث[1] مـع أنك لم تستيقن ذلـك بل ربمـا لم تظن حتى إحتملت فقط ، ولكن العقل يهتم لهذا الإحتمال .

أو مثلاً يُريد السفر فيقـول أحدهم : لا يمكن الحصـول على المـاء في الطريق يأمرك شرطُ العقل والإحتياط هنا هو أن تأخذ إبريقاً وتملأه بـالماء ، ولكن إذا استطاع الحصول علي الماء في الطريق[2] فإنـه يُهرِق الإبـريق دون أن يكون أصابه الضرر أو لحق به العطش .

إنها القـاعدة العقليـة التي نعرفهـا جميعنا . وقـد قلنا أن مئـة وأربعـة وعشرين رسـولاً جاؤوا وأخـطروا الإنسان بلسـان واحد أن أيهـا الناس إن

---

(١) يقول الشاعر ما مضمونه : إذ قال لك طفل أن يا فلان ، إعلم أني رأيت عقربا في ثوبك . عند ما تسمع ذلك تقلع ثوبك على الفور وتأخذ بما يقول لك حتى ولو كان مجنوناً !!

(٢) يقول الشاعر ما مضمونه :

قال أحدهم : في مسير الثمانية أيام هذه لا وجود للماء بل هناك رمال حارقة فقط وقال آخر : إعلم ان هذا ليس صحيحاً إذ إنك تجد عينا صافية بعد كل مسافة محدّدة . إن الحزم في هذه الحالة أن تحمل معك قدراً من الماء حتى تكون في مأمن من العطش أثناء السفر . فإن وجدت ماءً في الطريق أهرقت الذي معك منه وإن لم تجد ولم يكن معك منه شيئاً فالويل لك مما إقترفته يداك .

أعمالكم وأقوالكم كلّها تسجّل ، كل عملٍ يصدر عنكم هناك ملَكان مكلفان بأن يسجّلوه[1] .

لنفترض أنّه لم يحصل لديكم يقين بيوم القيامة أو حتى ظن بيوم الجزاء ، إن كنتم تملكون عقولاً فإنها تحكم عليكم أن تحتاطوا على الأقل فأنتم تحتملون أن يوماً سيأتي فلا تجحفوا بحق بعضكم البعض . . لا تظلموا . . . لا تهدروا كرامة أحد . لقد أردت ـ على الهامش ـ أن يكون ما قدّمت موعظةً وتأكيداً للموضوع وأيضاً دليلاً عقلياً على المعاد . أي أن « الإعتقاد بالمعاد هو سبيل الإحتياط العقلي » .

في كتاب التوحيد ، أصول الكافي ، الحديث رقم ٢ ، وخلال توجيهات الإمام الصادق (ع) لابن أبي العوجاء قال (ع) :

إذا كان الحق ما يقول المتدينون والحق بلا شك هو ما يقولونه إذاً فقد أفلحوا وهلكتم هلاكاً شديداً ، وإن كان الحق هو ما تقولونه أنتم وهو بلا شك ليس كذلك ، في هذه الحالة تكونوا أنتم وهم متساوون .

قال إبن أبي العوجاء : أوَ مقولتنا ومقولتهم ليستا واحدة ؟

قال (ع) : وكيف تكونا واحدة ، بينما هم معتقدون أن لهم معاداً ، وأن لهم ثواباً ، وعقاباً ، ويعتقدون أن السموات عامرة بوجود ساكنيها ، وكلّها والأرض لها إله ، وأنتم تقولون أن السموات تزول وما من إله إلى آخر الحديث .

وكما تلاحظون فإن الإمام (ع) إستدل في هذه الفترة لإثبات الصانع بدليل الإحتياط هذا هو الحد الأدنى لإستدلالنا ، وإلاّ فيجب اليقين بيوم الجزاء ، والترديد ، والشك ، بل حتى الظن أيضاً ، ليس كافياً .

---

(١) ﴿ ما يَلفُظُ مِن قولٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ق/١٧ .

القيامة عظيمة

إننا نسمع عن القيامة ، ونعتبرها أمراً بسيطاً ، بينما عالم الدنيا الذي هو عندنا عظيم ومهم إلى هذا الحدّ يصفه رب العالمين في القرآن الكريم بأنه لعبٌ ، ولهو ، ولكنه يذكر القيامة على أنها ﴿ النّبأ العَظِيم ﴾[1] .

نعم إنّ القيامة عظيمة جداً . إنها اليوم الذي يجتمع فيه الأولون والآخرون . هكذا إجتماع عظيم ، الكُلّ فيه متحيّرون ، ومتضايقون من نتائج أعمالهم . . . الكلّ جزعون ، خائفون ما عدا قلّة سوف نذكرهم فيما بعد. (عمرو بن معدي الكرب) الذي هو من شجعان العرب المشهورين، وينسبون إليه فتوحات كثيرة في تاريخ الإسلام ، عندما كان لا يزال مشركاً أتي رسول الله (ص) فدعاه إلى الإسلام وقال :

إنه إنْ يؤمن يكن في أمانٍ من الفزع الأكبر يوم القيامة .

قال : يا محمد (ص) ما هو الفزع الأكبر ، إنني جريء إلى حدّ أنني لا أخاف أي شيء مخيف .

قال (ص) : يا عمرو! إن الأمر ليس كما ظننت ، إنه يُصاح على الناس صيحة لا يبقى بعدها ميّت إلاّ وقد حيِيَ ولا حيّ إلاّ وقد مات ما عدا أولئك الذين لم يُرد الله سبحانه وتعالى أن يموتوا ثم يُصاح لهم صيحة أخرى حتى يَحيوا جميعهم ، ويصطفّوا ، وتتشقق السماء ، وتزول الجبال ، وتتناثر ، فلا يبقى ذو روحٍ إلاّ وقد انخلع قلبه ، وتذكر ذنبه وانشغل بنفسه ، إلاّ من سلّم الله فأين أنت يا عمرو من كل هذا . . .

باختصار ظَلّ (ص) يقول ويقول إلى أن أصابت عمرواً رجفة وقال :

ماذا أفعل لذلك اليوم ؟!

---

(١) ﴿ عَمّ يَتَساءَلُونَ عَنِ النّبأ العَظِيم ﴾ النبأ/١و٢ .

قال (ص) : قل لا إله إلاّ الله . ومنذ ذلك الوقت أسلم عمرواً وقومه .

في ذلك اليوم نظر الشخص هناك إلى ما يخيفه . حال الأرض يتغيّر بشكل كامل ، وإضافة إلى الأمور التي ذكرناها فإن أرض القيامة تُدرك وتشعرُ وهي ذات حياة وتكون هادئة وبيضاء ولامعة تحت أقدام المؤمن ، ولكنها تكون قطعة من نارٍ حارقة تحت أقدام الكافر . لا يبقى هناك لا شجر ، ولا جبال ، ولا سدود ، ولا ما يعيق الرؤية ، الكُلّ يرون بعضهم البعض ، الكلّ بَشَر ولكن الأشكال تبدّلت . في الدنيا الكلّ متساوون ، شكلهم واحد ولكن يوم القيامة تختلف الأشكال بحسب الأعمال والعقائد .

عدم الخضوع ، من الجهل

وبعد أن عرفت القدرة اللامتناهية للمبدأ ، فإنّك تضع رأسك في التراب سواء أردت أو لم تُرد. هؤلاء الذين تراهم لا يُصلّون لأنهم لم يعرفوا الله وإلاّ فمحال أن يتعرف أحَدٌ إلى خالق العالم ولا يقول : الله أكبر . . . لا يضع رأسه في التراب . إن هذا كلّه من الجهل . من الذي يعرف الله سبحانه وتعالى بقدرته اللامتناهية ثم لا تأخذه هيبة الحق[1] .

الزهراء (ع) عندما كانت تقف للصلاة كان جسدها يرتجف حيث يقول عنها الرسول (ص) :

إن الله يباهي الملائكة أن أنظروا إلى أمَتي الزهراء كيف ترتجف من خوفي . أنتم تتصورون أن الإرتجاف هو من خوف نار جهنّم ! ولكن خوف أهل المعرفة أرفع بكثير من هذا الكلام .

نعم إن وُجد خوفٌ في قلوبنا فهو من نار جهنّم ، ولكن هم يخشعون

---

(١) من الذي يعلم ما أنت فلا يهابك . . . (دعاء الصباح) .

بـواسـطة أعـمالهم . أولـئـك الـذين تمكّنت عـظمـة الله تعـالى في قلوبهم ، يرتجفون[1] إذا رفعـوا رؤوسهم إلى السماء ، إذا رأوا مـظاهر القـدرة ، فإن الهيبة تسيطر عليهم .

التأدب في مقابل الحاكم والله

يقول الشيخ (الشوشتري) :

أتيت مسافراً إلى طهران فرأيت بعض أقارب السلطان تأخذهم الهيبة في مقـابله فيقفـون كـالتـماثيـل في مـواجهتـه . يقـول الشيـخ : يـا لنـا مـا أحقرنا . . . ! هل وقفنا في عمرنا كلّه ولو ليوم واحدٍ هكذا في مقابل الله ؟

إن الهيبة لتسيطر عليك من مخلوق كهذا في الـوقت الذي أنت تـدرك فيه عظمته وقدرته كم هما . . . فـماذا يحدث لـك إذاً عندمـا تدرك القـدرة اللامتناهية لله خالق العالم . يا أصحـاب العقول إعلمـوا كم نحن بعيدون عن العلم .

الذنب يذهب بالعقل الروحاني

رُوِيَ عن الرسول (ص) أنه قال :

« إذا اقترف العبد ذنباً فارقه عقلٌ لم يَعُد إليه أبداً » .

إن أسباب المتاعب كلها هو الذنب إن الذنب قد جعلك غير عـارفٍ بالله . أن أي ذنبٍ يصدر عن أيّ كـان فإن إدراكـه يزول . . . إنّ فهمـك يَقِلّ . . . الويل لك إذا ارتكبت ذنباً بعد ذنب ، هـل تستطيـع بعدئـذٍ أن تدرك عظمة الله ؟

---

(١) ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ﴾ (الرحمن/٢٦) .

إنك ترى عظمة الله وليس عظمة نظام الخلقة ، تريد أن نتأمّن أمور دنياك فمتى تدرك عظمة الله ، متى تحصل على ركعتي صلاة وأنت حاضر القلب ، إنه لمحال ، فهما لا يجتمعان .

طالما أنت مُتَلَهٍ بنفسك ، من أين لك أن تدرك عظمة الله . . . ! من أين لك أن تعرف خالقك حتى تأخذك الهيبة منه ! نعم الزهراء (ع) هي التي تأخذها الهيبة من الله عندما تقف في محراب العبادة . فالخشية ما هي إلاّ خوف مع التعظيم . إن الهيبة إذا سيطرت على أحدٍ ما ثم تبدّلت إلى خشية فذلك ينبع من إدراك وفهم العظمة .

الخشية هي نتيجة للعلم

في الآية الكريمة لا يقول : إنما يخاف . . بل يُعبّر بـ﴿ إنّما يخشَى . . ﴾ . إن الخوف أو إدراك العظمة الذي يُعبّر عنه بالخشية يختص بأهل العلم محمد (ص) وآل محمّد (ع) والشيعة . . يختص بأولئك الذين تضيء قلوبهم من ينبوع آل محمد (ص) . إنه حقاً يصبح عارفاً للعظمة . . . يصبح مدركاً لله وعظمته فقط حينئذٍ يصبح شبيهاً بالزهراء والعظماء .

لقد سمعنا جميعنا تكراراً أنّ علي (ع) كان في بعض الأحيان يُغشى عليه في منتصف الليل ، لأنه كان يدرك العظمة ! إنها فوق فهمي أنا وأنت ومن هم أمثالنا . فأين نحن وأين هذه الأمور ؟! نحن نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون لدينا على الأقل خوف من نار جهنم . إننا بلا خوف إلى حدّ أننا لا نخاف من جهنم أو ليلة القبر الأولى أو حتى عذاب البرزخ بل نحن لا نفكّر بهذه الأمور بتاتاً حتى نعمل لتجنّبها .

روایة عن خشیة الزهراء (ع)

يقول (ص) : إن ابنتي الزهـراء عندمـا تقف في محراب العبـادة فإنها تمنح السموات ضياءً ، كما تمنح النجوم أهل الأرض . ويأتي النداء :

أيهـا الملائكـة أنظروا كيف وقفـت الـزهراء أمتي للصـلاة وجسـدهـا يرتجف من خوفي (إنّ لفي هذه الرواية بشارة) . أيها الملائكـة إشهدوا أني قد غفرت لشيعة الزهراء بحقّها .

ثم يقول في هذه الرواية :

وكـأنني أرى الزهـراء (ع) التي قد كَمُلَتْ عِـزّتها قـد إغتصبوا حقّهـا ومنعوها عن إرثها وأسقطت جنينها وكسروا لها ضلعهـا ، وبعدي تنـزل بها الهموم والغموم إلى أن تَرِدَ عليّ مقتولة !!



الفصل الخامس

****

١ ـ جعل الله الأرض قابلة للحياة .
٢ ـ الحركة المذهلة للأرض .
٣ ـ ما هي الدنيا ؟
٤ ـ ثمار الأرض .
٥ ـ شبه النخل بالحيوان .
٦ ـ التلاقح بين ذكر النخل وأنثاه .
٧ ـ النباتات العطرة .
٨ ـ الحسن والحسين (ع) ريحانتي الرسول (ص) .
٩ ـ بحر النبوة وبحر الولاية .
١٠ ـ الحياة من مياه الشفه واعتدال الهواء من المياه المالحة .
١١ـ بحر العقل وبحر الهوى .
١٢ـ الدنيا والآخرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الله جعل الأرض قابلة للحياة

يقول الله جلّ وعلا في السورة المباركة « الرحمن » ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمواتِ والأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ .

الغني المطلق هو الله ، ما عداه كلّه محتاج إليه بدءاً بمحمد بن عبد الله (ص) وكذلك عالم العقول ، والنفوس الكلّية ، والمجرّدات وانتهاءً بالماديات . ثم إن رغبة الجميع مجابة طبعاً فيما يتعلق بالمطالب الحالية والتكوينية .

الحيوان البحري بحاجة إلى وسيلة سمع ، وهذا مطلب لسان حاله ، لهذا فقد منحه إياها عزّ وجلّ[1] .

الحيوانات البريّة ، مع أنه عليها تأمين مؤونتها عن طريق السعي ، فإن لها قوائم ، ومع أنها آكلة العشب ، فقد منحها أسناناً خاصة بذلك ، ومنح لآكلة العظام أيضاً أسناناً تناسب ذلك .

الله الذي وهب كلّ شيء خَلَقه اللازم له ، وهداه إلى كيفية الإستفادة مما وهبه إيّاه .

---

(١) ﴿ إنه الّذي أعْطى كُلّ شيء خَلْقَهُ ثُمّ هَدَى ﴾ طه/ ٥٠ .

الله جعل الأرض قابلة لحياة الخلائق

﴿ وَالأرضَ وَضَعَهَا لِلأنَـام ﴾ . خلقها مناسبة لحياة الموجـودات ، الموجودات الموجودة على الكرة الأرضية . « أنام » جمع لا مفرد لـه وهو بمعنى الخلائق . أزال العوائق التي تحول دون حياة مـوجودات الأرض ، وجعلهـا كـالمهد لسـاكنيها . الأرض هي واحـدة من كواكب العـالم التي لا حصر لها والتي بإتفاق القدماء والمحدثين يغطي الماء أكثر من ثلاثة أرباع سطحها .

فيما يتعلق بمساحـة البحار يقـول صاحب كتـاب « أنيس الأعـلام » المرحوم فخر الإسلام : مئة وأربعة وأربعون مليون وسبعمئـة وخمسون ألف ميـل مربـع هي مساحـة ميـاه سـطح الأرض وأعـماق المحيـطات مختلفـة ، وأعمقها يصل إلى حدّ الستة آلاف قـدم أي ما يقـرب من عشرة آلاف متر كما ذكر أيضاً .

تأثير الجزر والمد على شرائط الحياة

كيف لا تغـطي هذه الميـاه سـطح الأرض كلّهـا مـع وجـود الحـركـة المـذهلة للكـــرة الأرضية ؟ جَـزْرُ وَمَدُّ البحـر يَرْفَـعُ بنظام محـدّد الرمـال ، وفتــات الصخـور ، من قعـر البحـــر ، ويصنــع لنفســه تلة إلى جــانب الساحل . المرتفعات القريبة من البحر أحدثها ماء البحر نفسه وجعـل منها حائطاً إنـه لا شعور لـديه ولكنـه الوحي التكـويني الإلهي الذي جعـل المدّ والجـزر يفعـل هـذا الفعـل . إذا واحـدة من خـواص الجـزر والمـد ، هي إحداث الحيطان على جوانب البحار حتى تعيش موجودات اليابسـة في رفاه كامل . إضافة إلى ذلك لو كان ماء البحر ساكناً لكان فسد وخاصـة ملوحة ماء البحر لها غاية الأثر في هذا الموضـوع أي أن ماء البحـر لو كـان ساكنـاً وحلواً لما أمكن العيش لرائحته الفاسدة .

إننا لا ندرك حركة الأرض المذهلة

هذا ما ذُكر في كتاب (دائرة المعارف) عن الحركة الوضعية للأرض حول نفسها وهو أن بعض المكتشفين يعتقدون أن الأرض تتحرك في كلّ ثانية ثلاثين كيلو متراً أي في الدقيقة الواحدة ألف وثمانمئة كيلو متر ، كالمسافة من (شيراز) إلى (مشهد) عن طريق (طهران) فإن الكرة الأرضية تقطعها في ظرف دقيقة واحدة وفي (٢٤) ساعة تقطع مسافة تعادل ما يقرب من خمسمئة ألف فرسخ ، وحسب هذه القاعدة فإن موجودات الأرض يجب أن تكون قد فقدت إستقرارها وتلاشت ولكن لا وجود لكائن على الأرض يشعر بحركتها أصلاً .

إذا كنتم جالسين في السفن الضخمة فإنكم تلاحظون أن السفينة تتحرّك ولكن سكانها يذهبون ويجيئون وينامون وإلخ . . . ولا يشعرون بحركتها (إلا عندما يحدث طوفان وتتلاطم أمواج البحر) . إنه تعالى جعل أرضه لراحة موجوداته أي أنه جهزها لهم بكل ما من شأنه أن يؤمّن راحتهم ورفاههم . الثمار والنخل وغير ذلك مما يبيّنه في الآيات التالية ويلفت الإنسان إلى الآيات الأرضية .

الجبال سبب استقرار الأرض وخزائن لها

الجبال تبعث على إستحكام واستقرار الأرض حيث هي كالمسمار تصل سطحها ببعضه البعض بإحكام ، وتصل أصول الجبال من تحت البحار ، واليابسة ببعضها البعض وتؤمن إتصالاً محكماً لسطح الأرض لتحول دون براكينها الداخلية .

إضافة إلى ذلك فقد جعل الجبال خزائن لثروة الأرض إذا أراد أحدٌ أن يحفظ ثروته فإنه يجعلها في أكثر الأماكن إحكاماً ، والله هو الآخر خبّأ المعادن التي هي كنوز الأرض في قلب الجبال . معادن الذهب والفضة

والنحاس والعقيق والفيروز والمرمر وأنواع المعادن الأخرى هي في أوساط الجبال . في (دعاء الجوشن الكبير) نقرأ كذلك : « يا من في الجبال خزائنه » .

المغارات والكهوف التي في الجبال تُعتبر ملجأ الكائنات الحية وبيوتاً طبيعية قد صنعها الله لهم .

سطح الأرض لا هو رخو ولا صلب جداً

سطح الأرض جعله على نحوٍ يمكنه فيه البناء والزرع وليس رخواً حتى يمكن القرار عليه ولا صلباً جداً فلا يمكن حتى البناء والزراعة عليه .

قبل كل شيء لأقول هذه العبارة : « تعرف الأشياء بأضدادها » . كل شيء يُعرف بفضل ضده ، مثلاً لو لم يكن الليل لما عُرِفَ قدر نعمة ضياء النهار . لو لم يكن المرض لما عُرفَ قدر نعمة الصحة والعافية . . . إذا لفحت ريح بسيطة خاصرتنا سلَبت منّا القدرة على القيام والقعود . وعلى سطح الكرة الأرضية يوجد إمتداد بالإلتفات إليه تتضح نعمة كينونة سطح الأرض العادي هذا مناسباً للحياة .

الأرض السبخة ، والرمل والأرض الرملية غير المناسبة للحياة ، والأدغال ، والجبال ، وخاصة البراكين ، والوديان ، والغابات ، والمستنقعات وغيرها[1] . . . أنظروا إلى كل ذلك وأنظروا أيضاً إلى السطح العادي للأرض كيف جعله سهلاً يمكن حفره للوصول إلى الماء والذخائر الأخرى ولغرس الأشجار والتنعُّم في أفيائها ، وللزراعة والإستفادة من الثمرات التي تحصل بها ، وللبناء ، ومن ثم العيش في هذه الأبنية . طالما لم يلتفت الناس إلى مسألة الأضداد هذه فإنهم لن يعرفوا للنعمة قدراً .

---

(١) سورة الرعد : الآية ٤ .

حركة المنظومة الشمسية باتجاه نجمة (Voga)

إن حركة الشمس المذهلة ومنظومتها باتجاه نجمة (Voga)التي ثبت اكتشافها في الإكتشافات التي أجريت مؤخراً لمدهشة ، الشمس هذا الكوكب الضخم الذي يبلغ حجمه مليوناً وثلاثمئة ألف مرة حجم الكرة الأرضية التي إن فرضناها بحجم حبة المشمش كانت الشمس بالنسبة لها ككرة بقطر مئتي متر ، وهي ترى صغيرة إلى هذا الحدّ لأنه تفصلها عن الأرض مسافة تسعين مليون ميل ، لها مسير محدّد وقَدْرٌ معين في الحركة بحيث أنهم قاموا بعملية حسابه فوجدوا أنها تقطع مسافة عشرين مليون كيلو متراً في الثانية ، أي في الدقيقة الواحدة تقطع مسافة ألفٍ ومئتي مليون كيلو متر ، وهي تحمل معها منظومتها أيضاً : الأرض ، عطارد ، المريخ ، المشتري ، زُحل ، الزهرة ، أرانوس ، نبتون . . . تحمل معها كل هؤلاء باتجاه كوكب يسمونه «Voga»وقد أشار القرآن إليه في سورة «يس»[1][2] .

باختصار . . . إن الله خلق الشمس بقدرته القاهرة وجعلها تجري . كم هو عظيم وقادر الله الذي لا حصر لمخلوقاته ، الشمس بهذه العظمة وبهذا السير السريع والحركة المنظمة بحيث تقطع مسافة عشرين مليون كيلو متر في الثانية بالضبط لا عشرة ولا ثلاثين .

الأهلّة . . . مظهر مذهل من مظاهر القدرة

إن القمر بتغييره لشكله من هلال إلى بدر ، ومن بدر إلى محاق ، حيث يصطلح على تسمية ذلك بـ« الأهلّة » هو بحق يثير إعجاب كل مراقب فأيُّ حسابٍ دقيق ومنظّم هذا ! وأي تقويم عامٍ وجذّاب بالنسبة

---

(١) ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ يس/٣٦ .

(٢) في تفسير سورة « يس » الذي طبع تحت عنوان « قلب القرآن » وهو من محاضرات السيد المؤلف المحترم ، تم شرح هذا الأمر بالتفصيل فليُرجع إلى ذلك الكتاب .

للنـاسّ جميعـاً سـواء المتعلّم منهم أو الأميّ ! فهـو يكـون كـالخيط في الليلة الأولى ، ثم يكـبر أكثر في الليلة الثـانية ، وهكـذا يكـبر ، ويكـبر ، إلى أن يصبح بدراً في الليالي الثالثة عشر والرابعـة عشر والخامسـة عشر حيث يبدو قـرص القمر فيهـا كامـلاً يبث نوره في كـل إتجاه ، ثم هـو بعد ذلـك يبـدأ بالصِّغر شيئاً فشيئاً إلى أن تأتي الليلة السادسة والعشرون ، والليلة السابعـة والعشرون ، حيث يعـود فيهـا هـلالاً كـما كـان ، وفي الليلة الثـامنـة والعشرون ، والتاسعة والعشرون ، يصبح محاقاً أي أنّه يمحّى ولا يعـود إلى الظهور . ثم وفي الليلة الأولى من الشهر التالي يعود إلى الظهور على صورة هلال .

لقـد حـدّد سبحـانـه وتعـالى بفضـل هـذه الأهلة حسـاب الأشهـر القمـرية . . . أشهـر العبادة . . . رمضـان ، وذو الحجة ، وعيـد الفطر ، والأضحى ، وفق نـظام طبيعي يفهمـه الجميـع حتى يقـدروا عـلى تحـديـد الأشهر الحُرُم[1] . منذ بدء الخليقة وإلى الآن كان الوضع عـلى هذه الحـالة وسيبقى كذلك إلى أن يُريد الله سبحانه وتعالى فتقوم القيامة .

النباتات الزهرية والأخرى ذات السيقان (جمع ساق)

ثم هـو بعد ذلـك يذكـر آيتـين أو نعمتـين من الأدنـين : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسجُدان ﴾ .

إن أحد معاني النجم ربما يكون ما أُريد من العبارة التالية : « النجم مـا ينجم من الأرض وما يـطلع منها » أي الشيء الـذي يخرج أو ينبت من الأرض أو هو يفترشها ، ثم يُزهر فيها بعد كالكوسى . والخيار ، والبطيـخ ،

(١) ﴿ إنَ عدّة الشُّهُور عِنْدَ الله إثني عَشرَ شهراً في كتاب الله يَومَ خَلَقَ السّمـواتِ والأرْضَ مِنْهَا أرْبَعَةٌ حُرُمٌ . ذلك الدّينُ القيّم ﴾ سورة التوبة/٣٦ .

والشّمام الأخضر وإلخ . . . أي النبات الذي ينبت من الأرض ويكون سطحها بمثابة الحاضنة له .

القسم الثاني من النبات ذلك الذي ما إن يُطل برأسه من الأرض حتى يجد لنفسه ساقاً وأساساً مُحكماً ، ثم أغصاناً وأوراقاً ، ثم هو بعد ذلك يُثمر كشجرة التفاح ، والرُّمان ، والبرتقال وغيرها . القسم الأول يقال له في لغة العرب : نجم والثاني : شجر .

بالمناسبة . . . إن لفي هذه الآيات فصاحة وبلاغة مذهلتين فأولاً أنظر إلى فوقك وشاهد الشمس ، والقمر ، ونظام مسيرهما ، وأفهم مدى عظمتها ثم تحوّل بنظرك إلى الأرض ونباتاتها . . أنظر إلى النباتات التي إفترشت الأرض ، والأشجار ذات السّوق ، فالإثنان يسجدان لله . . ﴿ والأرضَ وَضَعَهَا للأنام فِيهَا فاكِهَةٌ والنّخلُ ذَاتِ الأكْمَامِ والحَبُّ ذو العَصْفِ والرّيحَانَ فبأيّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبان ﴾ .

الأرض زائلة هي الأخرى

قلنا إنّ الله تعالى ومن أجل رفاه الخلائق ، جعل الأرض على نحوٍ تكون فيه مناسبة للحياة والراحة ، لا صلبة بحيث لا يمكن الزراعة والبناء فيها ، ولا رخوة إلى حدّ أن الرّجل لا تقرّ فوقها بتاتاً ، بل جعلها مناسبة لحياة موجوداتها .

إن كل حادثٍ فانٍ ومن كلمة « الوضع » في هذه الآيات يستفاد أن الأرض حادثة وهي ستزول في النهاية كما يُصرّح بذلك تعالى في الآية المباركة من سورة « والفجر » : ﴿ كَلّا إذَا دُكّتِ الأرْضُ دَكّاً دَكّاً ﴾[1] .

(١) سورة الفجر : الآية ٢ .

وفي علم الهيئة الحديث استنتجوا كذلك أن للأرض أجلاً إذا ما بلغته حلّ موتها وفناءها .

هذا وقد وضعوا إحتمالات عدّة لكيفية زوال الأرض ، أهمّها ثلاثة إحتمالات :

تَبَرُّد الأرض أو الإصطدام بكوكب سيّار أو . .

الإحتمال الأول: هو تبرُّد الأرض كما يتبرّد جسم الحيوان عندما يحلّ أجله . فالنار التي في جوفها والتي تذيب الحديد فوراً ، يأتي يوم تخمد فيه وربما يحدث ذلك متزامناً مع قيام القيامة ، وحدوث انفجارات داخل جوف الأرض ، واشتعال البحار[١] . ثم بعد ذلك تبردّ أي أنها تكون قد ماتت في الحقيقة[٢] .

الإحتمال الثاني : هو أن يحلّ موتها بالتصادم مع كرة أرضية أخرى .

الإحتمال الثالث : هو أن تكون الشمس في طريقها إلى الشيخوخة فيقل أو ينتهي نورها وحرارتها وتزول بالتالي جاذبيتها أيضاً وهكذا تتلاشى الأرض كذلك لأنها كغيرها من كواكب المنظومة الشمسية متعلقة بالشمس .

هذه الإحتمالات قدّمها علماء الهيئة أمّا ما هو مُهم بنظرنا فهو ما يقوله القرآن الكريم من أن الأرض تتبدّل[٣] وبتعبير الإمام أمير المؤمنين : تبدّل بأرض لم يُعصى فيها الله أبداً[٤] .

---

(١) ﴿ وَإذا البِحَارُ سُجّرَتْ ﴾ التكوير /٦ .

(٢) لمزيد من الشرح والتفصيل فليرجع إلى كتاب (المعاد) للمؤلف .

(٣) ﴿ يَوْمَ تُبَدّل الأرضُ غيرَ الأرض ﴾إبراهيم/٤٨ .

(٤) بحار الأنوار : المجلد رقم ٣ .

إذاً فكما أن جسم الإنسان لا يبقى كذلك محلّ إستراحته والمكان الذي ظهر فيه وإتخذ لنفسه فيه محلاً وأفرح قلبه به ، لا يبقى أيضاً :

ما هي الدنيا ؟ وما هي ملذّاتها ؟

قال أحد علماء الأخلاق : رأيت في المقبرة عالماً ينظر إلى القبور نظرة متحيّرة ، ثم ينظر إلى الجهة الأخرى حيث كانوا ينظفون الحمامات والمزبلة التي بقربه ، فتقدّمت إليه وقلت :

بما تفكّر .

قال : إني أفكر في الدنيا ونعمها فهذه هي نِعمتُها تَسكُن تحت التراب ، وهذه أيضاً نعمتها هي الأخرى ، وهي نجاسة ، وأوساخ ، وثياب ممزّقة ورثّة .

وذلك هو مضمون رواية ذكرتها لكم في وقت من الأوقات والآن أعود وأذكركم بها . تقول الرواية :

الدنيا جيفة طلّابها كلاب وعامروها مخرّبون وهناك مَلَكٌ ينادي كُلّ يوم : يابن آدم لِدْ للموت وابن للخراب .

طبعاً لا يظن أحدٌ أن القصد هو أن يُعمّر الإنسان البيوت بل القصد هو أن لا يعمل على أن ترسو سفينة حياته في مرفأ الدنيا ولا تغادره . لا تتصور أنك باقٍ إلى الأبد لتغفل بعد ذلك عن آخرتك .

متى تنطلق قافلة الأموات ؟

جاء في (كشكول) الشيخ البهائي : إن أحد وزراء (هارن الرشيد) رأى (بهلول) في إحدى المقابر فقال له :

يـا بهلول كيف حَدَثَ أن تـركت المدينـة والنـاس وجِئت لتستقـر في المقبرة ؟

قـال البهلول : إني جئت إلى عنـد قـــوم ٍ لا يؤذونني ، أتكلم معهم حيث لا غيبة ، وتهمة ، ولا كذب .

سأل الوزير : وهل يكلمونك ؟

قـال البهلول : نعم ، ومن ذلك أنني عنـدما سـألتهم : أيها القـافلة المحملة إلى متى تبقين هنا ومتى تنطلقين ؟

أجابوا : نحن ننتظركم لننطلق معكم .

بـــلى ﴿ إنّ الأوّلـــينَ والآخـــرين لَمَجْمُـــوعُـــونَ إلى مِيقــاتِ يَـــوم ٍ مَعْلوم ٍ ﴾[1] .

نسأل الله أن نكون قـد فكّرنـا بزاد السفـر وإلا فالقيـامة مهما تأخّـر موعدها آتية لا محالة .

نسأل الله أن تنـزع قلوبنا من الدنيا ونعلّقها بالآخرة .

فواكه الأرض هي من نعم الله

﴿ فِيها فَاكِهَةٌ ﴾ بعد أن ذَكَرَ تعالى نعمةَ خلْقِ الأرض وجعلها مناسبة للحياة تطرّاً ـ جلّ ذكرُه ـ لمجموعة من النعم حتى يكـون ذلك بمثـابة زيـادة لبصيرة واعتبار العموم .

يـذكر أولاً نعمـة الفاكهـة لنتفكّر كيف أنـه يوجـد من التراب والمـاء أنواعـاً وأقساماً من الفواكه مع كل ذلـك التباين الـذي بينها . فهـو يوجـد

---

(١) سورة الواقعة : الآية ٥٠ .

الثمار مرّة الطعم ، وحلوه ، وحامضه ، مع أنها جميعها تنبت من تراب واحدٍ وتسقى بماءٍ واحد[1] ، هذا مع الإختلاف في درجات الطعم . إنّ بعض الفواكه يؤكل لبّه كالرمان ، وبعضها الآخر يؤكل لبّه وقشره كالثمر والمشمش . إنه تعالى خلق كل هذه الأشياء ﴿ لِيَعلَمُوا أنّ الله عَلى كلّ شيْءٍ قَديرٌ ﴾[2] .

حلاوة العنب وحموضة الحصرم من أين أتيَتَا ؟

خذوا بعين الإعتبار فاكهة ظريفة كالعنب مثلاً . حاولوا أن تذكروا حموضة الحصرم ومن ثم صيرورته حلو الطعم بالتدريج . هذه الطعوم من أين أتت ؟ كيف حَدثَ أن صار حامضاً ثم أين ذهبت هذه الحموضة ؟ كيف إنقلبت إلى حلاوة ؟ أوليس من اللائق أن يشكر من يأكل العنب صانعه ؟ .

يروى أن رسول الله (ص) كلما كانت تصل إلى يده للمرّة الأولى فاكهة قد نضجت لتوّها ، كان يأخذها ويقبّلها ثم يضعها على عينه ويقول : « أللهم كما أريتنا أوّلَهُ في عافية أرِنا آخرهَ في عافية » . حقاً إذا لم ترافق العافية هذه النّعم لا تكون لذيذة .

إنه من اللائق أن يضع المؤمن العنب والرّمان حبة حبة في فمه وهو حاضر القلب وقور ذاكر لله تعالى ويتلذّذ بنعمة الله . خاصة ما جاء عن أكل الإمام (ع) للرّمان .

فقد روي أن أمير المؤمنين علي (ع) كان يفرش قطعة من القماش

---

(١) ﴿ يُسقى بماءٍ واحدٍ ﴾ . الطلاق/١٢ .

(٢) سورة الطلاق : الآية ١٢ .

حتى لا تضيع حبّات الرّمان ثم يأكلها جميعها[1] . وروي أيضاً أن نور الرّمان يبقى في القلب مدة أربعين يوماً فيما يتعلق بالذي يأكل الرّمان يوم الجمعة وإذا أكل إثنين يبقى حتى ثمانين يوماً وهكذا . [2] من البديهي أن الإنتباه، وحضور القلب كله له تأثير في نورانية القلب وإلاّ فالكافر والمنافق لم يبقوا لأنفسهم قلوباً حتى يشرق فيها النور .

فيما يتعلق بالتفاح والإجاص جاء في الأثر أيضاً أنهما من فاكهة الجنة (أصلهما من الجنة وفيها وهذا نموذج مصغّر عنهما) وليس فيهما أي ضرر خاصة الإجّاص .

إغسلوا الفاكهة وكلوها وأنتم تذكرون الله

بشكل عام فيما يتعلق بالفواكه فقد أمَروا أن يغسلوها ثم يأكلوها وكذلك أن لا يتركوا قول « بسم الله الرحمن الرحيم » أثناء تناولها .

فيما يتعلق ببعض الفواكه فقد رُوي أيضاً أنه إذا أكلها الشخص على أنها كانت مستحسنة من قبل رسول الله (ص) فإنه لا يصيبه أي ضرر (بفضل أكله لتلك الفاكهة)[3] مثلاً أمير المؤمنين (ع) ورسول الله (ص) كانا يحبان الرُّطب[4] .

ولهذا فيما يتعلق بالرُّطب خاصة فإنه تعالى بعد ذكر مطلق الفاكهة ، يذكرها ويقول : «والنخل» .

التمر .. خبز وطعام ودواء وفاكهة

﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ﴾ من بين الفواكهة الأرضية، النّخلُ الذي

---

(١)و(٢) سفينة البحار/المجلد رقم ١/ص٥٢٥ .

(٣)(٤) من أكل التمر على شهوة رسول الله (ص) لم يضرّه (سفينة البحار/ج١/ص١٢٥) .

هو ذات أكمام . الأكمام : جمع كم بمعنى الغلاف . فالنحل قبل أن ينضج يكون لا يزال تحت غطاء. كيف تتجلى عظمة القادر فأنتم لم تكونوا قد زرعتم أكثر من نواة تمر واحدة . والآن انظروا بكم واحدة تعوّضون ؟ خشب الشجرة وما يفرّع منها لإشعال النار ، وثمرتها الحلوة واللذيذة التي هي في نفس الوقت خبز وطعام ، غنيّة بالمواد الغذائية وخاصة كم هي نافعة لإزالة الرطوبة والبلغم . فالشرع المقدّس أمرَ أن نأكل سبع حبات من التمر قبل النوم ثم لا نأكل بعد ذلك شيئاً حتى ننام ، ومن يفعل ذلك فقد فاز فإنه قاتل للدود وكذلك يُزال بلغمه[1] . إذاً التمر هذه الفاكهة اللذيذة هي في نفس الوقت طعام ، ودواء ، والإستمتاع والتنويع . وهي تعطي بدل نواة واحدة آلاف مثلها من أجل إكثار هذا النوع .

﴿ والأرضَ وَضَعَهَا للأنَام فيها فَاكِهَةٌ والنّخلُ ذَاتُ الأكْمَام ﴾ .

شبه النخل بالحيوان

ذِكْرُ النخلَ بعد ذِكرِ الفاكهة هو ذِكْرٌ للخاص بعد ذِكرِ العام . لقد أوجد سبحانه وتعالى في الأرض أنواع الفاكهة من بينها النخل الذي له غلاف . وذكر النخل بالخصوص هو للإمتياز الذي له ، وقد أُعمِلَت القدرة فيه أكثر .

من بين إمتيازات النخل عن غيره من الأشجار ، هو أنه أقرب منها جميعها إلى الحياة الحيوانية . في الرواية المنقولة عن الإمام الصادق (ع) في المجلّد (١٤) من بحار الأنوار أنه (ع) عبّر عن النخلة بالعمّة[2] أي إنه مع

---

(١) ومن أكل سبع تمرات منها قتل الديدان في بطنه وفي حديث آخر : يذهب بالبلغم (سفينة البحار ج١ ص ١٢٥ .

(٢) عن أبي عبد الله (ع) : إستوصوا بعمّتكم النخلة خيراً فإنما خلقت من طينة آدم ألا ترون . من الشجرة تلقح غير ما استوصوا أي إقبلوا وصيتي . (بحار الأنوار/ج١٤/باب التمر) .

أنها أقل درجة من الحيوان لكن يكاد بالإمكان رؤية جانبٍ حيواني في هذا النبات .

إن يقطع رأس الحيوان ، يمُت كذلك شجرة النخل إذا آصاب رأسها مكروه يبست .

تلقيح ذكر النخل لأنثاه والعشق المتبادل بينهما

من خصائص النخل تلقيح ذكره للأنثى . ففي باب توالد وتناسل الحيوانات من اللازم أن يتم التلقيح ، ولكن شجرة النّخل ، حتى تحمل ، يلزمها التلقيح مثل الحيوانات فيها الذكر والأنثى ، وأهل الإطلاع يعرفون جيداً كيف يتم التلقيح بواسطة اللقاح الخاص للشجرة الذكر .

الخصوصية العجيبة الأخرى هي العشق المتبادل بين ذكر وأنثى هذه الشجرة وهي من خصائص الحيوان . إن الله سبحانه وتعالى قد أعمل قدرته وجعل هذه الخاصية في هذه الشجرة نقل بعض الموثوقين أنه كان في بستان النخيل مسافة عشر خطوات على سبيل المثال بين الشجرة الذّكر والشجرة الأنثى . بعد ستة أشهر شقوا الأرض واقتربوا إلى بعضهم البعض بحيث لم تعد المسافة التي تفصل بينهم أكثر من شبر واحد .

أحياناً يُقرّبوا رؤوسهم ويضعوها على بعضها البعض وأحيان أخرى يلقون بأغصانهم على بعضها البعض **﴿ لِتَعْلَموا أنّ الله عَلى كلّ شيءٍ قَديرٌ ﴾** .

الحبوب تجبر ما يتحلل من الجسم

﴿ وَالحَبّ ذُو العَصف والرّيحانِ ﴾ .

هذه الآية معطوفة على الآيات السابقة أي : وفيها الحبّ . . . بعد أن قال إنه جعل في الأرض الفواكه بشكل عام ، وبعد أن ذَكَر خصوص

النخل يذكر تعالى بعد ذلك كله الحبوب التي تحتوي على المواد الغذائية بكمية وافرة وهي في نفس الوقت مغذيّة وموجبة لتلذذ الإنسان والحيوانات .

الجسم هو تركيب ماديّ مقرون بالحركة والحرارة ، وأجزاؤه تتحلل باستمرار، وهو بحاجة دائمة إلى ما يُجدُّهُ ويجدد له قواه ، وهو بمثابة المصباح الذي يجب مدّه باستمرار بالنفط ، أو الزيت ، أو الكهرباء ، حتى يبقى منيراً ولا ينطفىء . وجسم الإنسان أو الحيوان إذا بقيت المواد الغذائية لا تصله لمدة من الزمن فإنه يموت .

أثناء المرض لماذا يضعف الجسم ؟ لأنه إذا هبط المزاج عن حدّ الإعتدال يفقد الشهية إلى الطعام أو أن الطعام لا يُهضم بشكل جيّد فإن لم يكن هناك تغذية سليمة ، يُخفُ الجسم ويضعف .

إن الجسم في طريقه إلى التحلل ولذلك يجب أن يُعوّض ما يفقده من هذه الحبوب والفواكه واللحوم خاصة وأن في الحبوب ما يصطلح على تسميته بالمقويات التي لا وجود لها في أشياء أخرى . إن الأرز ، والقمح ، والشعير ، والذرة ، تحتوي على مواد غذائية لا نظير لها ، وقد اهتمت روايات أهل البيت (ع) بذلك وللمثال :

رُوي عن الإمام الصادق (ع) أنه قال : إن في كل شيء داءً وشفاء ما عدا الأرز الذي هو شفاء من دون داء[1] .

واحدٌ من أهل العراق ، تشرف يوماً بحضرة الإمام الصادق (ع) . ناقل الرواية هو نفسه وهي رواية طويلة نكتفي منها بمقدار الشاهد :

يقول : كانوا قد طبخوا أرّزاً في منزل الإمام (ع) فقدم إلي منه لآكل

---

(١) بحار الأنوار/ج١٢/باب أرز .

وقال : أنا أكلت . ثم قال : إن أفضل هديّة يأتون بها إليّ ليلاً في العراق هي الأرز[1] .

الشعير غذاءٌ غنيٌ بالبركة وهو طعام الأنبياء

من الحبوب التي إهتّم بها في روايات أهل البيت (ع) : الشعير . ويُروى أن الرُّسُل (ع) دعوا إليه لبركته وبركة آكله[2] ولم يوجد رسولٌ لم يأكل خبز الشعير[3] .

في كتب الطب القديم كتبوا أنه يُسبب النفخ . طبعاً يمكن علاجه بأكل التمر . إجمالاً الشعير هو غذاء نوراني يُسبب تنوُّر قلب المؤمن .

العدَس أيضاً هو من الحبوب التي ذكرت لها فوائد جسمية وروحية . منها أنه يسبب رقة القلب وزيادة دمع العين .

أحد الأنبياء شكا إلى رب العالمين من قساوة قلبه، وقلة بكائه، فأُمر أن يأكل عدساً[4] ويُروى أن النبي يحيى (ع) كان يأكل العدس كثيراً وبكاء يحيي (ع) مضرب مثل .

من الحبوب الأخرى الممدوحة : اللوبيا . وقد ذكره المرحوم المامقاني (ره) في الآداب والسُّنن .

من الحسن أن يأكل المؤمن مقتدياً في ذلك بمحمّدٍ (ص) وآله (ع) ومن باب أنه ممدوحٍ من قبل أهل العصمة والطهارة (ع) . مثلاً

---

(١) بحار الأنوار/ج١٤ .

(٢)و(٣) عن الرضا (ع) قال : فضل خبز الشعير على البُرّ كفضلنا على الناس ، وما من نبي إلاّ وقد دعا لآكل الشعير وبارك عليه ، وما دخل جوفاً إلاّ وأخرج كل داء فيه ، وهو قوت الأنبياء ، وطعام الأبرار ، أبى الله أن يجعل قوت الأنبياء إلا شعيراً (سفينة البحار/ج١/ص٣٧٥) .

(٤) بحار الأنوار/مجلد رقم ١٤ .

قالوا (ع) : كُلُّ من يأكل السفرجل ، فإن الله ينوّر قلبه أربعين يوماً[1] . لو أخذنا بنظر الإعتبار الشرح المختصر الذي قلته في الليالي الماضية ، فذلك لا يحدث لأي شخص كان بل يحدث للمؤمن الصالح فقط إذا قصد التبرك والإقتداء بالإمام ، وكذلك الإفادة من نعمة ورحمة الله تعالى إذا وُجدت . فإن لذلك بركة مادية ومعنوية كذلك .

يجب عدم تناول الثمار غير الناضجة

قاعدة عامة أيضاً رويت عن أهل البيت عليهم السلام وهي أنه يجب أن لا تؤكل كُلُّ ثمرة أو أي نوعٍ من الحبوب إذا لم يكن ناضجاً فأكله مكروه . والشاهد على هذا الأمر إستفادة الإمام (ع) من القرآن الكريم هناك حيث قال : « كُلوا من ثَمِرِه إذا أثْمر »[2] . إذاً فالثمرة غير الناضجة لا تملك تلك المنفعة المرجوّة بل ما أكثر الضرر الذي تسببه .

فيما يتعلّق بالباذنجان يقول : إذا صار الطقس حاراً ونضج التمر فما به من ضرر[3] أي بوقته شرط أن لا يُسرف فيه : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾[4] . التخمة تسبب قساوة القلب حتى في العدس الذي يسبب قليله رقة القلب . فإذا أكل كثيراً لا تعود المعدة قادرة على هضمه ، فيفسد بالتالي ، ويصعد البخار الفاسد إلى الدماغ ، ويفسد الإدراك هو الآخر .

رواية لطيفة لضمان السلامة

رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : من ضمن لي ثلاثة

(١) (سفينة البحار/مجلد رقم١/ص٦٢٩) عن الصادق (ع) : من اكل السفرجل أنطق الله الحكمة على لسانه أربعين يوماً .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٣١ .

(٣) بحار الأنوار/ج١٤ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٣١ .

أمور ضمنت له السلامة (مضمون الرواية مع شرح لها) :

الأول : أن لا يـأكـل طـالمـا لا يشتهي الأكـل فـالأكـل دون شهيـة مكروه .

الثاني : توقف عن الأكل قبل أن تشبع ولو بلقمة واحدة فـإن ذلك أفضـل مـع أنهم يعملون عكس ذلك عـادةً ويقولـون : الشبعان يبقى لـديه مجال ليأكل أربعين لقمة أخرى .

الثالث : أن يمضغ جيداً اللقمة التي يضعها في فمه أي أن لا يعجل ويبتلعها فكلما بقيت في الفم أكثر ، وإختلطت بالبصاق ، ومضغت بواسطة الأسنان ، كان هضمها سهلاً على المعدة ، وبالعكس فأحياناً قـد يتم دفعها قبل أن تهضم جيداً بحيث أنها تكون مضرة بالإضافة إلى عدم إشتمالهـا على المنفعة وعندمـا لا يُهضم الطعـام جيداً فـإن كل قـوى الجسم تتأذى لـذلك وتتضايق .

من المستحب أن يناول اللقمة صغـيرة في حجمها ، ويبقيهـا في فمه لفترة زمنية طويلة نوعاً ما[1] .

إساءة الإستهلاك مجلبة للضرر

من بين الأمور التي تُعد كفراناً بالنعمـة ، أن يأكـل الشخص طعامـا ثم يقـول : لقد أضرّني هـذا الطعـام[2] . إن الطعـام لم يضرّك ، بل أنت الذي أخطأت بأكله . يجب أن تكون على علمٍ من وضع مزاجك أن لمـاذا

---

(١) قال أمير المؤمنين للحسن ابنه (ع) : لا تجلس على الطعام إلاّ وأنت جائع ، ولا تقم عن الطعـام إلا وأنت تشتهيه ، وجوّد المضغ ، وإذا نمت فأعرض نفسك عـلى الخـلاء ، فـإذا استعملت هذا استغنيت عن الطب (بحار الأنوار/ج١٤/باب : جوامع آداب الأكل) .

(٢) عن الصـادق (ع) : كَفْرٌ بـالنّعم أن يقـول الـرجـل أكلت كـذا وكـذا فضرّني ! (سفينـة البحار/ج٢/ص : ٥٩٩) .

أكلت دون شهية ، أو بلا مُبَرِّر ، أو أكثرت من الطعام ؟ فهل الشمّام الأخضر ، والبطيخ ، أو العسل ، أو اللبن أغذية سيّئة ؟

إذا كنت قد أكلت اللبن فيجب أن لا تأكل البطيخ خاصة الشخص الكبير في السن يجب أن لا يكون كالأطفال يأكل كل ما يصل إلى يديه. إن الله تعالى خلق فأحسن خلقه . . . خَلَقَ ما هو عديم الضرر ولكن طالما لم يُحسن إستعماله فإنه يؤدي إلى الضرر . فكل ما هو سيّء هو لعدم رعاية الإعتدال . فأعدلوا . . . لا تفقدوا العدل من أيديكم . إجعلوا كل شيء في محلّه فالمصاب بالزكام عليه ألا يأكل العسل .

كثرة النوم نتيجة للتخمة

قال شخص للإمام (ع) : أنا أنام كثيراً . فأمره (ع) بالإقلال من أكل الطعام لأنه من أكل لقمة أكثر شرب ماءً أكثر ، ومن فعل ذلك إزداد نومه لأن سوائل الجسم تزداد . بالمناسبة الإكثار من شرب الماء ليس جيداً لأنه مثل الشجرة تماماً إذا ما أكثروا من صب الماء بالقرب من جذعها فإنها تعطي نتيجة عكسية .

على كل حال فإن التخمة وبالتالي الحرمان من فيض التهجد سببه الإكثار من الأكل خاصة في الليل . يمضي السحر وقافلة المستغفرين تمضي معه ، وهذا المسكين لا يزال نائماً . نداء الملك : « هل من سائل ! هل من تائب ! هل من يستغفر ! » لا يزال مرتفعاً وذلك الذي لا يزال نائماً يكون قد حَرَم نفسه من هذه البركات .

فيما يتعلق بشُرب الماء فالمستحب القيام بذلك على نحو المصّ ، وبرَوِيّة ، بل القيام به على دفعتين وقول « الحمد لله » ما بينهما ، وإذا ما أتى على ذكر شفتي الحسين (ع) العطشى في آخر ذلك كان له مئة ألف

حسنة خاصة إذا فعل ذلك وهو يشرب ماءً بارداً وعذباً في طقس حارّ وهو عطشان . . .

البذر الواحد يمكنه أن يعطي سبعمائة بذرة

﴿ وَالحَبّ ﴾ . وجعل في الأرض أصناف الحَبّ المتعدّدة . الحبوب المتنوعة التي هي المادة الغذائية للإنسان والحيوان من قبيل القمح ، والشعير ، والأرز ، والعدس ، والحمّص ، واللوبيا ، والكرسنّ (ماش) ، والذرة كل من هذه الحبوب له خصائصه الخاصة به يطلق عليها في عصرنا الحاضر إصطلاح المقويات التي هي ضرورية وذات منفعة كبيرة لجسم الإنسان والحيوان وفقدانها يسبب الإمراض العديدة .

العَصْفُ وهو يعني الورق والتبن ويُزرع بذراً ويُعطي محصولاً من سبعين إلى سبعمئة ضعف أو أكثر ، وإذا أمدّه الله ببركته فإن له قابلية أن يعطي ضعفي ما أعطى كما يستفاد من مضمون الآية الشريفة[1] بالرغم من أن البركة تقل بالمعصية وعدم إعطاء الزكاة .

فساد الإنسان مؤثر في الطبيعة أيضاً

جاء في رواية عن أهل البيت (ع) إنه لولا وجود المعصية لله في الأرض لما وجدت عليها شجرة غير مثمرة ، ولما وجدت شجرة ذات ثمر مُرّ الطعم أو فيه شوك[2] . هذه المشقة كلّها ناشئة عن فساد البشر الذي يؤثر قهراً في فساد الطبيعة وهو ما رأته عين النبوّة والإمامة وأخبرت به ، مع أنه لا يمكن إدراكه بالعين المجرّدة ، ولكن لا يمكن إنكاره أيضاً يقول القرآن

---

(١) ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِأَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (البقرة/٢٦١) .

(٢) ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ (الروم/٤١) .

الكريم في هذا المجال : ﴿ وَلَو أنّ أهْلَ القُرى آمَنُوا وَاتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأرضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1] (الذنوب) ولانتزعنا منهم البركات فبعد غرس البذر وإعطائه للمحصول أضعاف أضعاف ذلك البذر الذي غرس ويعطي عَلَفاً وتبناً للحيوانات أيضاً . . . بِذْرٌ للإنسان وتِبْنٌ للحيوان[2] . إذاً إلى هنا فإن ﴿ وَالحَبُّ ذُو العَصْفِ ﴾ تعني أنه تعالى جعل في الأرض حباً ينتج تبناً .

النباتات ذات الروائح العطرة يسمونها ريحان

﴿ وَالرّيحان ﴾ الريحان لها معنى عام فيقال لكل نبات معطّر ريحان سواء أكانت أغصانه وأوراقه معطرة أو فقط أزهاره . إذاً فالريحان يشمل جميع النباتات العطرة بأنواعها المختلفة . كم نوعاً من الزهر خلق الله ؟ هو نفسه يعلم أفضل منا وكل زهرة لها رائحة خاصة ، أشهرها وأكثرها ربما الزهر الأحمر الذي تعتبره إحدى الروايات نموذجاً عن الزهر في الجنة ، بل نموذجاً للرائحة المحمّدية (ص) وأصله في الجنّة وإن شاء الله في المقام المحمود في جوار محمد وآل محمد عليهم السلام .

روى في (بحار الأنوار) عن الإمام الصادق (ع) أنه من وصلت إلى يده زهرة فليشمها وليضعها على عينه ويقول : اللهم صل على محمد وآل محمد ، فما أن يضعها على الأرض حتى يغفر الله له .

وعن الإمام الحسن العسكري (ع) أنه قال : من وصلت إلى يده زهرة حمراء فشمها ، ووضعها على عينه ، وصلّى على محمّد وآل محمّد ، عندما يضعها على الأرض ، يغفر الله له ذنوبه وإن كانت بعدد حبّات الرّمل ويضاف إلى حسناته بنفس ذلك المقدار .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٩٦ .

(٢) ﴿ مَتَاعاً لَكُمْ وَلأنْعَامِكُمْ ﴾ النازعات/٣٣ .

والآن وقد وصل بنا الحديث إلى هنا أذكر بالمناسبة رواية أخرى من (بحار الأنوار) وذلك حتى تتكحّل بنورها أكثر فأكثر عيون القلوب :

يقول عبد الله بن سنان : وقف شخص على باب منزل الإمام الصادق (ع) يطلب الإذن في الدخول .

سأله الإمام (ع) : من تكون ؟

قال : شخص أتيت من بلاد الصين .

فأعطاه الإمام إذناً في الدخول وسأله : أويَذكر إسمنا في بلادكم أيضاً ؟ (طبعاً كان الإسلام قد تقدّم إلى حدود الصين ولكن بواسطة الحكومات المتتالية لبني أُميّة وبني العبّاس لم يكن يؤتى على ذكر الأئمة والتشيع ولم يكن لديهم أيُّ معرفة بمذهب أهل البيت . عندما نرى وبعد مضي أربعة عشر قرناً ، حال المسلمين وعدم علمهم بمذهب أهل البيت (ع) نعرف حينئذٍ كيف كان في زمن الإمام الصادق (ع)) .

قال : بلى إن في مدينتنا معرفة بولايتكم فهناك شجرة تحمل أطباقاً من الورد مكتوب عليها بخط واضح أثناء الصباح : « لا إله إلاّ الله محمد رسول الله » وعند الأصيل ينتقش عليها هذا الشعار : « لا إله إلاّ الله علي (ع) خليفة رسول الله » .

هناك نماذج عديدة ومطوّلة من مثل هذه الحوادث والخطوط التي خطّتها يد القدرة على خلاف مجرى الطبيعة شوهدت وسُمعت ولا يجب الإنكار أو إستبعاد حدوث مثل ذلك[1] .

(١) في كتاب (القصص العجيبة) بقلم المؤلف المحترم ذكرت نماذج من هذه الخطوط التي خطّتها يد القدرة والحوادث التي هي خلاف الطبيعة فعلى من يريد الاطلاع أن يرجع إلى هذا الكتاب الشريف .

الكلام هو عن الريحان . أنواعٌ عديدة من الروائح العطرة التي جعلها الله سبحانه وتعالى في النباتات . وآية من آياته اللامتناهية حيث أنه تعالى جعل الشاهد فينا لنشم ونتعرف بذلك إلى قدرته الأزلية . لقد منحنا نور العقل لنتعرف بواسطته إلى صانع هذه الزهور والروائح ونمتدحه تعالى .

الحسن والحسين (ع) ريحانتي الرسول (ص) :

بمناسبة ذكر كلمة (رَيْحان) في الآية الشريفة فإن من ألقاب الحسنين عليهما السلام الريحانتين . وكنية علي (ع) هي هذه أيضاً أذكر حديثاً في هذا المجال :

دخل علي (ع) يوماً على رسول الله (ص) وسلّم فرد عليه الرسول(ص) قائلاً : السلام عليك يا أبا ريحانتي .

الرسول (ص) لا يقول جزافاً . . . يشُمُّ الحسنين . إن رائحة الجنة تفوح منهما . عندما كان (ص) يحتضر كانا يجلسان على صدره وأراد علي (ع) أن يرفعهما عنه فقال له : دعهما فإني أُريد أن أشُمَّهما وأتزوَّد منهما[1] .

نعم إنّه من الأفضل للحسينيينّ أن يفضلوا الحسين (ع) على الجنة والحور غداً يوم القيامة . طوبى لأولئك الذين يشتمون رائحة الحسين (ع) حين إحتضارهم ويسلمون الروح وهم ذاكرون له . يقول الشاعر ما مضمونه :

يحضرني الموت وأنا في شوقٍ إليك وإني لأسلم الروح على أمل أن أكون تراب المكان الذي تسكن فيه .

---

(١) بحار الأنوار/ج٦ .

﴿ وَمَـرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَـانِ بَيْنَهُمَا بَـرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَان فَبِـأيِّ آلاءِ رَبُّكُـمَا تُكَذِّبَان ، يَخْرُجُ مِنهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ ﴾[1] .

الماء العذب والماء المالح منفصلان في الوقت الذي هما فيه مختلطان

من بـين الآيات الإلهيـة العظيمـة ، والشـواهـد عـلى قـدرتـه تعـالى اللامتناهية ، أن من نعمه الكبيرة أيضاً البحر ذي المياه المـالحة والآخـر ذي المياه العذبة . فسطح الكرة الأرضية بهذه السعـة التي له فإن أكثر من ثلاثة أرباعه تغطيه المياه . البحار متصلة ببعضها البعض ، المياه العذبة الأخـرى المـالحة متـلاصقـة ومتـواصلة ببعضهـا البعض ، ومـع أنّها متصلة ببعضهـا البعض ولكن إلى الآن لم يسبق أن غلب أحـدهما عـلى الآخر دفعـة واحـدة فغلب المـاء المالـح الماء العـذب أو العكس الماء المـالح جعـل المـاء العـذب مالحاً . لم يطغ أحدهما على الآخـر بحيث يقضي عليه . حقـاً إن ذلك لمن آيات الله العظيمة .

﴿ مَـرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَـانِ ﴾ البحرين : أي البحـر ذو المياه المـالحة والبحر ذو المياه العذبة . في سورة الفرقان أتى سبحانه وتعالى على ذكر هذا المعنى . يقول جلّ وعلا : ﴿ وَهُوَ الَّـذي مَرَجَ البَحْـرَيْنِ هَذَا عَـذْبٌ فُراتٌ وَهَـذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَـلَ بَيْنَهُمَا (مـع وجود الإختـلاط) بَـرْزَخـاً وَحِجْـراً مَحْجُوراً ﴾[2] . هذا البرزخ والحائل جعله تعالى حتى لا يطغى أحدهما على

---

(١) سمعت أبـا عبد الله يقـول في قول الله تبـارك وتعالى : ﴿ مَـرَجَ البَحْرَينِ يَلْتَقِيَـانِ بَيْنَهُمَا بَـرْزَخٌ لا يَبْغِيان ﴾ . قال : عـلي وفاطمـة بحران عميقـان لا يبغي أحدهمـا على صـاحبه . ﴿ يَخْـرُجُ مِنْهُمَا اللّؤْلؤ والمَرْجَان ﴾ قال (ع) : الحسن والحسين (تفسير نور الثقلين/ج٥/ص : ١٩٠ .
إن البحرين علي وفاطمة ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ محمـد (ص) ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُـمَا اللّؤلؤ والمرْجـان ﴾ الحسـن والحسين عليهما السلام .(مجمع البيان) .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٥٣ .

الآخر . في هذه السورة المباركة يذكر تعالى هذا الأمر أيضاً ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ ﴾ . في الوقت الذي بين الإثنين حائل ومانع أو جدته يد قدرة الحق تعالى حتى لا يتعدى أحدهما على الآخر . لا يبغيان : أي لا يتجاوزان لا الماء العذب يغلب على الماء المالح ، ولا الماء المالح أيضاً بالنسبة إلى الماء العذب .

التفسير الثاني المحتمل للبحرين في الآية الشريفة هو بحر الروم وبحر فارس حيث كان هذين الإثنين يتصلان ببعضهما البعض دون أن يغلب أحدهما على الأخر .

غالباً ما رأيتم نظير ذلك نهري (دجلة) و(الفرات) يسيران معاً جنباً إلى جنب ليصبان في الخليج الفارسي . ماء هذين النهرين عذب ومستوى سطحيهما متساوٍ مع مستوى سطح البحر . يلتقي الماء المالح بالماء العذب لعدة فراسخ دون أن يغلب أحدهما على الآخر والأعجب من ذلك أنه مع وجود المد والجزر واختلاطهما الشديد ببعضهما البعض إلا أنه تبقى الحدود بينهما على ماهي عليه .

مياه البحار لا تغمر ما تبقى من اليابسة

كتبوا أيضاً أن عمق البحار والمحيطات قد يصل في بعض النقاط إلى ستة آلاف قامة كل هذا الماء الذي هو في حركة مستمرة ، أمواجه كالجبال ، يرفع معه في بعض الأحيان الوحل من أعماق البحر . الرياح الشديدة التي تتسبب في إيجاد الطوفانات المرعبة وفي اصطلاح الملاحين يُجن البحر ويصبح له لوناً بلون الوحل .

من جهة أخرى تعلمون أن أكثر من ثلاثة أرباع الأرض تغمره المياه مع هذا العمق الزائد وهذه الطوفانات كان يجب أن يغمر الماء الربع المتبقي ولكن يد القدرة حالت دون ذلك .

ولهذا فقد فسّر بعض المفسرين ﴿ لا يَبْغِيَان ﴾ بـ: « لا يبغيان على سطح الأرض » وليس بـ « لا يبغيان على أنفسهما » أي أن البحرين ، المالح والعذب ، أو بحري الروم وفارس ، لا يبغيان على سطح الأرض . بناء على التفسير الأوّل الذي مضى ذكره ﴿ لا يبغيان ﴾ يَعني « لا يبغيان على أنفسهما » ولكن بناءً على هذا التفسير تعني « لا يبغيان على سطح الأرض » بحيث لا يبقى شيء من اليابسة إلاّ وتغمره المياه .

إنكم تشاهدون أن الماء أثناء حدوث المدّ والجزر يتجاوز الشاطىء إلى ما يليه ولكنه يعود وينحسر . وتشاهدون أيضاً كيف أنه عندما يأتي السَّيل يأخذ معه كل ما يقف في طريقه ، ولكن الويل كل الويل إذا ما طغى البحر كما يحدث في بعض الأحيان إذ يدعه الله تعالى يطغى حتى يعرف الناس قدر العافية . إنكم لَتَسْمَعُون أنه في بعض الأحيان يطغى البحر على سواحل الهند فكم من البيوت هدّم ! وكم من الأنفس قد قضى عليها .

كم من الجُـزُر موجودة في أواسط البحار والمحيطات ؟! في بعض الأماكن كأندونيسيا وغيرها توجد أكثر من ألف جزيرة ، بين كبيرة وصغيرة ، يعيش الناس فوقها في الوقت الذي هي فيه وسط البحر والبحر لا يغمرها بمياهه .

بناءً على هذا فإن البحار لا يبغي بعضها على الآخر ولا تبغي بدورها على سطح الأرض ، ويبقى الماء العذب على حاله من العذوبة حتى بعد إختلاطه بالمالح لمسافة قد تبلغ فراسخاً عدّة وفي هذه الحدود يكون الماء ذا طعمين ، إذ ربما يكون ذلك هو الحائل ، والبرزخ الذي تحدَّث عنه القرآن ، ثم هو بعد ذلك يُصبح مالحاً .

أو ربما يكون القصد من البرزخ هو القدرة الإلهية التي حالت وتوسطت بين هذين البحرين حتى لا يلتقيان . إنهم يسمون الفترة التي تفصل بين الموت والقيامة بالبرزخ وهو لهذا السبب حائل ومتوسّط بين الدنيا والآخرة .

عيون المياه العذبة وسط البحر المالح

إن مياه البحار عـادة وفي أغلب الأحيان تكـون مالحـة حتى لا تتعفّن ولو كانت عذبة لكانت تعفّنت ولكانت ماتت الكائنـات الحية العـديدة التي تعيش فيها ولقد ذكروا للملوحة الطبيعية لمياه البحار أسراراً عـديدة منهـا : أنه يوجـد في أعماق البحـار جبال من الأمـلاح الطبيعيـة التي تسبب ملوحة مياهها ، ومن حهة أخرى فإن عيون المياه العذبة تنبع من وسط هذه الجبال أو نظائرهـا حيث أن بعض الغواصـين يعرفـون أمكنتها ، وهم يستعملونها ليرفعوا بمائها ثقل العطش عن كواهلهم .

لقد سمعت أن الأنجليز وجدوا عيوناً للمياه العذبة بالقرب من بحـر (البحرين) وهم يجرّون مياهها العذبة إلى اليابسة بواسطة الأنابيب[1] .

إن البحار نعمة فلا تكفروا بها

﴿ فبأيّ آلاءِ رَبّكُما تُكَذّبان ﴾ أي : فيا أيها الجن والإنس بأي واحدة من نِعَمِ ربكم تكذّبون وتكفرون .

إن البحار ذات المياه المالحة والأخرى ذات المياه العذبة هي نعمة من الله تعـالى لا يبغي أحدهمـا على الآخـر ، وكـذلـك لا يبغـون عـلى سـطح الأرض . إن كـل واحد من هـذه البحار هـو شـاهـد عـلى حكمـة وقـدرة خـالقهم اللامتنـاهية ، لمـاذا لا ترون نعمـة رحمـة الحق تعـالى التي منعتهم ووفقت بينهم لئلا يطغوا أو يبغوا . الويل من عدم عرفان الإنسان بـالجميل إذ أنه يرى كل هذا اللطف والرعايـة من قبل الحق تعـالى ويرى كـل نعمة هـذه التي لا تنتهي فبدل أن تـزداد معـرفتـه ويتعـرف إلى ربّـه أكـثر تـزداد غفلته . والآن فلنُشِر إلى الآية التالية . يقول تعالى :

---

(١) أثناء تفسير هذه السورة المباركة من (٢٥) سنة مضت كانت البحـرين ما تـزال مستعمرة إنجليـزية وكان الإنجليز يقومون بإدارتها رسمياً .

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾

إن من آيات الله العظيمة إخراج المجوهرات الكبيرة والصغيرة منها من بين المياه المالحة والعذبة . ومما هو مسلّم به أنهم يستخرجون الدُّرّ ، أي اللؤلؤ والمرجان من المياه المالحة . يُعبّر هنا بـ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾ . . . من كل من البحرين يخرج اللؤلؤ والمرجان . لا بد أنّ في هذا التعبير حكمة أو عدة حكم وقد ذكرت لذلك وجوه عدة منها أن المشهور بين الغوّاصين أن مركز اللؤلؤ يكون حيث يلتقي الماء العذب بالماء المالح وبناءً على هذا يصبح معنى ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾ أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من محل إلتقاء الماء العذب بالماء المالح .

ولقد ثبت في الأكتشافات الحديثة أن اللؤلؤ والمرجان لا يختصان بالماء المالح فقط .

يكتب الطنطاوي المصري في تفسيره : أن اللؤلؤ استخرج من المياه العذبة في أميركا والصين . إذاً وبناءً على هذا فإن الله سبحانه وتعالى يُخرج اللؤلؤ والمرجان من المياه المالحة (طبقاً لما هو مشهور ومعمول به) كما يُخرجه من المياه العذبة .

بحر الولاية وبحر النبوّة

أريد هنا أن أتحدث قليلاً عن تأويل وباطن هذه الآية الشريفة فلقد ذكروا لها مصاديق عديدة بل حتى إن بعض مفسري العامة أيضاً ذكروا أن : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ تعني بحر النبوة وبحر العصمة والطهارة . . . بحر الولاية فبزواج أمير المؤمنين (ع) من فاطمة الزهراء سلام الله عليها إلتقى بحر الولاية ببحر الطهارة النبوية . . . بحر الوفاء ، وبحر الحياء ، وبحر السخاء ، وبحر الطهارة ، إلتقت جميعها ببعضها البعض .

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَان ﴾ ـ أي محمد (ص) ـ بين البحرين محمد (ص) واسطة هذين البحرين ـ خاتم الأنبياء (ص) . لا يمكن بأي وجه من الوجوه أن يطغي هذين الإثنين على بعضهما البعض . إن علياً والزهراء (ع) هما كروح واحدة في جسدين . إن تمكين الزهراء (ع) من علي (ع) مُخرس للألسن فهي لم تتمنّ عليه في يومٍ من الأيام شيئا خوفا من أن يكون غير قادرٍ عليه فيتسبب له بالإحراج . لقد تحمّلت عليها السلام كل هذه المشقة في بيت علي (ع) ثم هي في أواخر أيام حياتها تطلب منه أن يُحلّها .

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللؤلؤُ وَالمَرْجَان ﴾ ـ الحسن والحسين ـ يقول الشاعر وصال الشيرازي ما مضمونه : إذا ما غُصت في بحري النبوة والولاية فلن أجد مرجاناً أحسن من الحسن (ع) ولن أطلب لؤلؤاً أحسن من الحسين (ع) .

﴿ مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَان بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ اللُّؤلُؤُ وَالمَرْجَانُ فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان ﴾ .

إستمرار الحياة سببه وجود المياه العذبة ونقاء الهواء سببه المالحة

خلاصة الآيات التي ذكرت في الليلة الماضية أن الله تعالى مَرَجَ البحرين ، العذب والمالح ، وخلطهما ببعضهما البعض ، وجعل بينهما حجاباً من قدرته حتى لا يبغيان على بعضهما البعض أو على سطح الأرض .

﴿ لا يَبْغِيَانِ ﴾ من مادة بغْي بمعنى التعدي . . . تعدي الماء العذب على المالح أو بالعكس أو تعدي الماء المالح والعذب على سطح الأرض .

وهناك إحتمال أن تكون من البغي بمعنى الإبتغاء الذي هو بمعنى

البحث والطلب أي إنّ هذين البحرين لا يطلبان إلاّ ما قد قدره الله لهما . . الحدّ الذي جعله لهما الله لا يطلبان أكثر منه بل هما قانعان به .

إن الله لم يُرد أن يطغى الماء العذب على الماء المالح أو المالح على العذب فيقضي أحدهما على الآخر وهما أيضاً ليس لديهما طلب كهذا .

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فبأيّ من نِعَمِ ربّكما تكفران ؟ بالماء العذب أم بالمالح ؟ لو أن الماء العذب لا وجود له فكيف تتأمّن حينئذٍ حياتكم وإنه ببركة الماء المالح تتحقق نقاوة الهواء . إنها هذه الملوحة نفسها هي التي لا تدع العفونة تحبط بهواء الأرض كلّه . لو لم تكن ملوحة البحار لكانت إنقرضت جميع الكائنات الحيّة التي تعيش في أعماقها وذلك على إثر الأوساخ التي ترمى فيها .

اللؤلؤ والمرجان هو نتيجة للتلاقح الذي تم بين الماء العذب والماء المالح

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللّؤلؤ والمَرْجَانَ ﴾ يخرج من هذين البحرين الدُّرُّ الكبير والصغير .

قال البعض : إن الفرق بين اللؤلؤ والمرجان هو على هذا النحو أن الدُّرُّ الصغير الحجم يقال له لؤلؤاً ، والكبير الحجم يقال له مرجاناً .

في الليلة الماضية ذكرنا عدة وجوه لهذه الآية ولنَذْكُر الليلة أيضاً وجهاً آخر .

إن الماء العذب هو بمثابة اللقاح للماء المالح بحيث يحدث بنتيجة ذلك الدُّر الكبير والصغير كما أن وجود الطفل هو نتيجة للتلاقح بين الذكر والأنثى أو كما أن وجود التمر هو نتيجة للتلاقح بين ذكر النخل وأنثاه .

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ هذا اللؤلؤ والمرجان كم يُفيدان

النـاس ؟ كم من الأشخاص الـذين يـرتـزقـون ويؤمّنـون معيشتهم بـبركـة الغوص وراءهما ، وإستخراجهما ، ومن ثم المتاجرة بهما من قبل الآخرين .

من الـوجـوه الآخـرى التي ذكـرت لهـذه الآيـات مـا نقـل عن أمـير المؤمنـين (ع) حيث يقـول : **البحـرين** : تعني بحـر الأرض وبحـر السـماء ـ البحـرين المالـح والعذب ـ الغيم فـوق رؤوسنا هـو الآخـر بحـر متحـرك حفظته يد القدرة على هذا الشكل. إنّه البحر العذب الذي يقع فوق البحر المـالح وأثنـاء هطول المـطر يلتقي الإثنـان ببعضهـما البعض ، والعجيب أن البحر الفوقاني هو الآخر ناتـج عن هذا البحـر ، عن مياه البحـار المالحـة ، يُرسِل المطر العذب من إنعكاس ضوء الشمس بتبخّر ماء البحـر ، ويرتفـع في السماء ليهطل فيـها بعد مـاءً عذبـاً . بينهما بـرزخ ـ لقد جعـل تعالى بـين البحرين مسافة فاصلة لتكون البرزخ بين البحرين وتلك هي الغيوم .

﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ من المشهـور أن الصدف الـذي هو حيوان بحري صغير عندمـا يهطل المـطر يأتي من قعـر البحر إلى سـطح الماء ويفتح فمه ويبتلع قطرة من المطر ويعود قطرة المـطر هذه تتحـوّل إلى لؤلؤ . وبـالمناسبـة فإن أشعـاراً كثيرة تتحـدث عن هذا المـوضوع ! والتجربة تؤيّـد الحـال . ففي السنة التي يقـل فيها هـطول الأمـطار يكـون اللؤلؤ قليـلاً إذاً فاللؤلؤ الصغير والكبير يخرج من الماء العذب الذي يكون مطراً والماء المـالح الذي فيه الصدف .

بحر العقل وبحر الهوى

بمـا أن البحر واسـع فإنهم يقـولون مجـازاً لكل شيء واسـع بحر ففي الإستعارة والتشبيه يُعَـبَّر عن كل شيء كثـير وزائد بـالبحر مثـلاً عندمـا يملأ الجـراد الصحراء يقـولون : أتـوا كمـوج البحـر ، أو عن سخـاء الإنسـان الكريم يقولون : هو بحر جود ، هو بحر كرم .

بعد هذه المقدّمة ، من الوجوه التي لهذه الآية طبعاً معناها غير الظاهر والتأويلي هو « مرج البحرين : بحر العقل وبحر الهوى » . من مظاهر قدرة الله تعالى في البشر أنه جعل فيه بحراً عذباً الذي هو العقل منشأ الخيرات والبركات وكذلك جعل فيه بحراً مرّاً ومالحاً الذي هو بحر هوى النفس منشأ النكبات والشر والشقاء . هذان البحران موجودان في كل فرد منّا وهما بحق واسعان . . . . واسعان جداً .

بين هذين البحرين جعل حاجباً بحيث لا يمكن للعقل أن يزيل بشكل كامل ظلمة الهوى ، ولا الهوى يمحو بشكل كامل نور العقل . إذا الشخص أزال هوى نفسه يصبح ملاكاً ، أو في رديف الملائكة ، وإذا أزال العقل تماماً يصبح حماراً وبقراً وغراً . لقد جعله هكذا ليبقى الإثنان دون أن يزيل أحدهما الآخر . والحقيقة الإنسانية هي الأخرى تعني إقتضاءين متضادين . إنه لمن لطف الله بالإنسان أن أبقاه هكذا بين هاتين القوّتين .

التقدم المعنوي على إثر القوّتين المتضادتين

ببركة نور العقل ومرارة الهوى يخرج من بينهما جوهرتين ثمينتين . ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ التوفيق والعصمة وهما الجوهرتين الثمينتين هما التوفيق والعصمة . من الألطاف الإلهية توفيق الإنسان إلى الخير . من يوفّق الله ؟ ألحمار والبقر أم الملائكة ؟ سواء وفّق كلّاً منهما فإنه ليس فيهما قوّتين متضادتين . فالملائكة لا يملكون شراً وهوى ، والحيوانات لا وجود للتقدّم المعنوي فيها ، بل إنه الإنسان ، الذي هو محل ظهور هذا الأمر الإلهي .

العقل يريد أن يتسلّط على الهوى ، والهوى يريد أن يتغلب على العقل ، ذاك يأمر أنه يجب أن تقوم بالعمل الفلاني ، والآخر ينهي عن القيام به ، ويأمر بتركه .

إنـه لمن التصادم بـين نور العقـل ووسـوسـة النفس والهـوى يحصـل التـوفيق للمؤمن بـالنتيجـة ينتصر العقـل ويتّبـع المؤمن أمـره ـ إذا قـدّر الله توفيقه ـ فإنه يزداد حيث أنه يُعـبّر عن تلك الدرجـة الرفيعـة التي في الأنبياء والأئمة (ع) بالعصمة ، وأتباعهم أيضاً يتمتعون بدرجات أدنى منها . يصل به الأمر إلى حدّ أنه يصبح من المحال أن يصدر عنه الـذنب مرّة ثـانية ـ إذاً أحد وجوه التأويل في هذه الآيات صار التالي : التـوفيق والعصمة ينتجـان عن إلتقاء بحر العقل ببحر الهوى .

الدنيا والآخرة والمُلْك والملكوت

الوجه الظريـف الآخر من بـطون الآية الشريفـة ـ بحرين ـ أي بحـر الدنيا وبحر الآخرة ـ الله سبحانه وتعالى ،حرّك عالم الإمكان في بحري الدنيا والعقبى عـالم المُلك والملكوت ، ظـاهر وبـاطن البحرين متصـلان ببعضهما البعض وقـد خلق بينهما عـالم برزخٍ هـو حـائـل بين الـدنيا والآخـرة فطالما الشخص موجود في الدنيا يكون غافلاً عن الآخرة ولا يراها وليس له سبيل إليها ، وبعد الموت لا تعود الرجعة إلى الدنيا ميسّرة بعـد ذلك[١] لا الـدنيا ترجح عـلى الآخرة حتى تغلب عليهـا ، وتزيلهـا من الوجـود ، ولا الآخرة هي الآخرى ترجح على الـدنيا . من التقـاء وإتصال هـذين العالمـين يخرج لؤلؤ العقائد الصالحة ومرجان الأعمال الصـالحة .

إن من بركة الحياة في هذه الدنيا أنـوار عقيدة المؤمن ، أين اللؤلؤ من نور إيمان المؤمن ؟ يُروى أنّ نور عقائد المؤمن يسطع من جبهته يوم القيامـة

---

(١) من ضرورات المذهب الجعفري موضوع الرجعة حيث يرجع إلى الـدنيا عـدد من الأشخاص قبـل قيام القيامة ، وذلك لا يتنافى مع الوجه الذي ذكرنـاه وكذلـك لا يتنافى مـع الآية الشريفه ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَـالِحاً فيـما تَرَكْتُ كـلا . . . ﴾ وللتعرّف إلى الـوجوه التي لم تـذكر في هـذا الكتاب فليرجع إلى كتاب « ٨٢ مناجاة » للمؤلف الذي جُدِّد طبعه مؤخراً .

ويمتد إلى الحد الذي تبقى فيه العين قادرة على الرؤية ونور أعمـاله الصـالحة أيضاً يسطع من جنبه الأيمن .

﴿ وَمَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَان بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان ﴾ .

الدُّرُّ الكبير والصغير يتكون على أثر هطول قطرات المطر

كان الكلام يدور حول هذه الآيات الشريفـة ، ﴿ مَرَجَ البَحْـرَيْنِ ﴾ المالح والعـذب ومع أنهما يختلطان ببعضهـما البعض إلاّ أنه لا يبغي أحـدهما على الآخر لأن الماء العذب ضروري لـرفع العـطش ، وكذلـك الماء المـالح ضروري للحؤول دون حدوث التعفّن ، وحتى تتمكن الحيوانات من البقاء حيّة .

من هـذين البحـرين يخـرج اللؤلؤ والمـرجـان اللذين همـا دُرٌّ كبـير وصغير ، وَرَدَ في تفسير كيف أنّ بعض حبّات الدُّرّ كبـيرة ، والبعض الآخر صغيرة ، يقال أن ذلك يكون باعتبار قطرة المطر حسب كبرها وصغرها .

كما ذُكر سابقاً فإنّ الصدف ، هـذا الحيوان البحـري ، عندمـا يهطل المطر يأتي من قعر البحر إلى سطح الماء ويفتح فمه ويبتلع قطرة مطر وقـطرة المطر هذه تكون مادة وجود الدُّر داخل الصدف ، فـإن كانت كبـيرة تتحوّل إلى لؤلؤ ، أي دُرّ كبـير الحجم ، وإن كانت صغـيرة تتحوّل إلى مـرجان أي حبّة دُرّ صغيرة الحجم .

نور الأعمال الصالحة في قبر المؤمن

من وجـوه التأويـل ، التي ذكرت سـابقـاً لهـذه الآيـة الشريفـة ، أن البحـرين هما الـدنيا والآخـرة ، وعالم الـبرزخ هو الفـاصل بينهـما ، ويخرج

بالنتيجة نور عقائد المؤمن وأعماله الصالحة . بهذه المناسبة أذكر هنا رواية شريفة بشكل مختصر جداً :

يُروى أنه عندما يوضع المؤمن في القبر فإنه يشاهد خمسة أنوار : نور من فوقه ونور من تحته ، ونور عن يمينه ، ونور عن شماله ، ونور من أمامه ، تلمع كالكواكب الدُّرّيّة . فَيُسْأل : ما هذه الأنوار ؟ فيقال له : النور الأعلى هو نور الصلاة والنور عن اليمين والآخر عن الشمال هما تباعاً نور الصوم والحج ، والنور الأسفل هو نور الزكاة ، وأما النور الأمامي الذي يطغى على كل الأنوار الباقية فهو نور ولاية محمد (ص) وآل محمد (ع) .

الخوف والرجاء بحران في وجود الإنسان

من بين وجوه تأويل الآية الشريفة : ﴿ مَرَجَ البَحْرَيْنِ ﴾ : الخوف والرجاء . فرب العالمين جلّ وعلا قد أجرى في الوجود الإنساني بحرين عظيمين : البحر المالح : الخوف ، والبحر العذب : الرجاء ، فبنار الخوف وبرودة الرجاء يحدث في الإنسان حالات متنوعة ومتضادّة من إنقباض وانبساط وهيبة وأُنس وغير ذلك .

إن الخوف والرجاء موجودان في كل فردٍ منا بالفطرة . والخوف إذا وجد في أيّ قلب كان فإنه يضعفه . . . يشعله ناراً . أمّا الرجاء فهو بمثابة الماء البارد والحلو والعذب الذي لا يدع نار الخوف تقضي عليه .

وجود الإثنين في قلب كل إنسان مؤمن ضروري ولطف الحق تعالى هو الحائل بينهما بحيث لا يطغى أحدها على الآخر لأنه إذا قضي على واحد من هذين الإثنين فإن الشخص ينجر إلى ورطة السقوط . فإذا مثلاً غلب خوفه بحيث لم يبق له أمل ، فإنه ييأس ويتصور نفسه من أهل جهنّم ، وأنه قد قُضي عليه ، إذ لا يمكن بعد ذلك الخروج منها . هذا اليأس من رحمة

الحق يجرُّ إلى التفكُّر والشخص اليائس لا يسعى بعد ذلك وراء العمل الصالح .

من جهة أخرى : إذا غلب بحر الرجاء العذب فإنّ الغرور يصيبه ، يبلغ به الأمر حدّاً لا يعود معه يخاف من إرتكاب أيّ ذنبٍ كان . فالخوف إذا ما فارق القلب فإنه يتجلّد فلا يصلي النافلة ، ولا ينفق ، والنتيجة واحدة فيما إذا غلب الخوف على القلب . إن الغرور يؤدي إلى خسران الدنيا والآخرة معاً .

ترك الذنب وإتيان الطاعة هما نتيجة للخوف والرجاء

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ من بحري الخوف والرجاء هذين يخرج لؤلؤ التقوى وترك المعصية ، ومرجان الطاعة .

ببركة الخوف لا يعود يذنب . . . من يُصدّق بأنه سيحاسب على أعماله حتى وإن كانت مثقال حبّة من خردل فإنه سيخاف بعد ذلك أن يحوم حول الذّنب .

في نفس الوقت لأنه يأمل لطف وإحسان الحق تعالى فإنه لن ييأس كذلك أبداً بل دليل رجائه هو أنه يسعى أكثر وراء الخيرات ، والعبادات ، والأعمال الصالحة . . . الإثنان ضروريّان بقدرٍ معتدل ﴿ لاَ يَبْغِيَانْ ﴾ ببركة الخوف يتقّى ، وببركة الرجاء لا يقصرِّ في أعمال الخير .

دَعْ عبدنا

ينقل (السيد الجزائري) رحمة الله عليه : أنّ شاباً مبتلا بغرور الشباب والمعصية مَرِض ، ووقع في فراش الموت ، وعندما علم أنه ميّت لا محالة قال لأمّه على سبيل الوصيّة : إنني أريد منكِ عندما أموت أن تربطي حبلاً وتسحبيني وتقولي : أيها المذنب أسود الطلعة .

وعندما مات لم يطاوع قلب أمه أن تفعل به ما قال لها ولكن لأنه وصّاها بذلك ربطت رجله وأرادت أن تسحبه فطرق سمعها صوت يقول : دَعي عبدنا !!!

روحي فداء لذلك القلب الذي فيه خوف وفيه رجاء . . . فيه الإثنان وقد نقل مثل ذلك في تفسير (منهج الصادقين) : أحدهم أثناء نزعه عندما إنتبه أن عمره قد أشرف على نهايته أطلق آهة من صميم قلبه وقال :

« يا من له الدنيا والآخرة إرحم من ليس له الدنيا والآخرة » .

فجعل الله تعالى آهته هذه وقوله المليء بالأسى مقدمة وواسطة لرحمته ومغفرته وغفر له .

نِعْمَتَيَ الخوف والرجاء والحسنَيْنِ بابَيْ رحمة الحق

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان ﴾

ـ فَبِأيٍّ من نِعَمِ ربكما تكذبان أيها الجن والإنس ـ بنعمة الخوف أو الرجاء اللتين جعلهما في قلوبكم ، حيث ببركة هاتين النعمتين ، والبرزخ الذي هو الفاصل ، ولا يدع أيّاً منهما تزول من الوجود ، صرتم سعداء ! فاتقوا واعملوا العمل الصالح . هذان الأمران التوفيق والعصمة ، أو الخوف والرجاء ، أو سائر الوجوه الأخرى ، كلّها نعم الله التي يجب الشكر عليها لا الكفران .

من وجوه تأويل اللؤلؤ والمرجان التي أشيرَ إليها في الليالي الماضية : الحسن والحسين عليهما السلام كما في سورة الحديد ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ فقد فسّرت بالحسن والحسين عليهما السلام . إنهما بحق بابان واسعان من أبواب رحمة الحق الواسعة حيث يجب شُكْرُ هذه النعم لا أن تكفروا بها .

سيّئة الحظ هي تلك المجموعة التي بدل أن تشكر هذه النِّعَمَ الإلهية العظيمة حاربتها فجعلت الحسن (ع) يستشهد بسُمٍّ الجفاء والحسين (ع) يستشهد وهو عطشان .

﴿ وَلَهُ الجَوارِ المُنْشَآتِ في البَحْرِ كَالأعْلَامِ فَبِأيّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانْ ﴾ .

السفن العظيمة الهيكل الجارية هي لله تعالى

من الآيات الإلهية العظيمة السفن التي تجري في البحار . ﴿ الجَوَارِ ﴾ كانت في الأصل « الجواري » وقد حُذفت الياء والكسرة تدُلُّ عليها و« الجواري » : جمع « جاري » و« جارية » بمعنى المتحرك والمتقدّم فوق سطح الماء وهو إسم للسفينة ومرادف للفُلْك (بضم الفاء) وباختصار فإن السفينة والفُلك والجارية كلُّها لها معنى واحد ، ولكلٍّ منها وجه شَبَه ومناسبة خاصة به . إذاً معنى الآية الشريفة إلى هنا صار على النحو التالي : ﴿ وَلَه الجَوَارِ ﴾ : أي ولِلّهِ تعالى السفن الجارية .

﴿ المُنشَأتِ ﴾ : وقد قُرئت على نحوين : بفتح الهمزة أي أسم مفعول بمعنى : مرفوعات في السفن الشراعية كانوا ينصبون في وسطها أعمدة خشبية مثبتة تثبيتاً جيداً ، وكانوا يربطون إليها أشرعة لكي يحدث الريح عليها ضغطاً ، ويدفع السفينة إلى الجريان في الماء . إذاً المنشأت هي إشارة إلى السفن الشراعية التي رُفِعت أشرعتها .

القراءة الثانية أتت بكسر الهمزة : ﴿ المُنشِآتِ ﴾ : تعني : البادؤون بالحركة « منشِآت في الحركة والسير » . السفن الجاهزة للجريان . ﴿ كَالأعْلَامِ ﴾ : أعلام : جمع علم بمعنى الجبل المرتفع . الله سبحانه وتعالى شبّه السفن الجارية في البحار بالجبال المرتفعة إنه تعالى يريد أن يقول : كما أن الجبال في اليابسة بادية من بعيد عن بعد عدة فراسخ ،

كذلك سارية السفينة بادية من بعيد ، تبدو كقمة الجبل .

هنا يجب الإلتفات إلى وجه التناسب القائم بين الآية الشريفة والتشبيه الذي ذكره تعالى وكينونة ذلك آية من آياته تعالى .

المركّبات من العناصر الأربعة

سبق لكم أن عرفتم أنّ أركان عالم الطبيعة أربعة أمور يُقال لها العناصر الأربعة ، والمركّبات جميعها توجد من هذه الأربعة أمور : الماء ، الهواء ، التراب ، النار . هذه هي الأركان الأربعة لموجودات عالم الطبع . طبعاً اليوم قد اكتشفوا أن المواد الأولية التي تتكوّن منها الموجودات يصل عددها إلى ثمانين وربما أكثر ، ولكن أصولها الأولية هي هذه الأربعة أمور ، لأنهم في العلم الحديث قد جزّأوا الماء والنار والهواء والتراب وهم يقومون بدراسة العناصر البسيطة .

في الآيات السابقة كان الحديث يدور عن خلق الإنسان من التراب . هذا العنصر هو المادة الأولية لخلق أعجب وأشرف المخلوقات .

ثم دار الكلام عن خلق الجن من النار ، ثم أتى على ذكر الماء ، فخلط العذب والمالح منه ببعضه البعض ، دون أن يفقد كلٌ منهما خاصيته ، ويخرج منهما اللؤلؤ والمرجانِ . بقي من العناصر الأربعة : الهواء الذي يُشار إليه هو الآخر في هذه الآية وذلك عندما يأتي على ذكر الريح التي تجري ببركتها السفن الضخمة كينونة الهواء ، وبركاته نعمة ، ليست خافية على أحد . دوام حياة الإنسان وجميع حيوانات اليابسة به ، كذلك النباتات تحتاج في حدودها الخاصة إلى الهواء . أمّا ما أُشير إليه في هذه الآية فهو حركة السفن الشراعية ومن ضمنها نعمة الهواء . ولهذا هناك حاجة إلى مقدمة ما :

لقد ثبت بالتجربة أن كل جسم كان حجمه أخف من الماء فإنه لا يغرق فيه ، وإذا كان أثقل فإنه يغرق ، أي إنّ كل جسمٍ طبّق لحجمه ،

لنأخذ بنظر الإعتبار حجم الماء ، أقل من حجم الماء يبقى فوق سطح الماء وإلاّ فإنه ينزل تحته . إنكم تلاحظون أنه إذا ألقيتم إبرة في الماء فإنها تغرق ولكن السفينة التي تزن عدة أطنان تبقى فوق سطح الماء لأنه لو جعلوا الماء طبقاً لحجم الإبرة فإن الإبرة تكون أثقل ولهذا فهي تغرق في الماء . أمّا خُلَلْ وفُرَجَ السفينة فكثيرة ، وبين أعطافها يوجد قدرٌ كبير من الهواء هو في مجموعة أقل من حجم الماء ولهذا فهي تبقى فوق سطح الماء .

إذاً فالله سبحانه وتعالى هكذا قد جعل الهواء خفيف الوزن ، والماء ثقيلة ، طبعاً إذا ما وزنّاهما بالنسبة إلى بعضهما البعض يكون الهواء أخف من الماء ، ذلك لا يتنافى مع ما إذا كان كل منهما على حِدة أخف أو أثقل بالنسبة إلى شيء آخر .

الأسماك الكبيرة في المحيطات والبحار تنتقل بسرعة من قعر البحر إلى سطح الماء وتعود بسرعة يقال أنها تستفيد من هذه الخصوصية أي إنه في قسم البطن والحنجرة منها يوجد شيء ما يشبه حوصلة الدجاجة إذا أرادت أن تصعد تملأه بالهواء حتى يزداد حجمها ، وتصبح أخف وأثناء النزول تجمعه على بعضه البعض . ﴿ **ذَلِكَ تَقدير العزِيز العلِيم** ﴾ .

إذاً صار واضحاً إلى هنا أن قوام السفينة في الأساس هو بالهواء ، ولو لم يكن الهواء لما استطاعت السفينة أن تأخذ مكانها فوق سطح الماء أو أن تجري بل كانت ستغرق . إضافة إلى ذلك فإن إبحار السفينة الشراعية كان رائجاً منذ عدة مئات من السنين مضت ، وذلك قبل أن يتم اكتشاف الآلات التي تعمل بالبخار ، أو بالبنزين ، أو بالكهرباء ، وكان ذلك مرتبطاً بالهواء ومجرى الرياح ، وحتى الأن لا تزال توجد سفن شراعية يوجهون أشرعتها في الإتجاه الذي يريدون الذهاب فيه فتجري فيهم هذه السفن بسرعة الريح .

حالة الإلتجاء في السفينة الشراعية

طبعاً السفينة الشراعية لها أخطار كثيرة فقد يغرقها الطوفان والأمواج العالية ، ولهذا فإن سكان السفينة نوعاً ما يلجأون في تلك الحالة ويتوجهون إلى الله سبحانه وتعالى ، يطلبون منه السلامة ولكن ويا للأسف يكون ذلك مؤقتاً فعندما يصلون سالمين إلى اليابسة ينسون الله كما يقول في القرآن الكريم : ﴿ وَإذا رَكِبُوا في الفُلْكِ (ووقعوا في أيدي الأمواج الخطرة) دَعُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمّا نَجّاهُم إلى البَرّ (وخلصهم من خطر الأمواج) إذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[1] .

كلّنا هكذا ، أثناء الشدة والصعاب نلتجيء إلى الله ونعاهده أنْ يا رب إذا خلصتنا من هذه الشدّة فلن نحوم بعد ذلك حول الذنب أبداً . . .

سنصبح عباداً خُلّصاً لك وأشياء من هذا القبيل . ولكن عندما ننجوا ونتخلّص من تلك الشدائد ، نعود مرّة ثانية إلى حالنا السابق الفاسد وننسى ما كنا قد عاهدنا الله عليه . ولهذا فإن البلاء والمصائب هما هدية الله إلى عبده المؤمن .

رُوي عن الإمام موسى بن جعفر (ع) أنه قال : كما أن أحدكم يهدي إلى أخيه هدية ، كذلك الله سبحانه وتعالى يهدي البلاء إلى عبده المؤمن . نعمة ظاهرة : مصيبة وشدّة إما باطنه : فلطف . إنه بهذا البلاء يبقي عليه في دائرة الله سبحانه وتعالى . إن لحالة الإلتجاء والتضرع إلى الله قيمة كبيرة .

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ٦٥ .

الفصـل السـادس

****



١ ـ الأزواج خلقها من الأرض .
٢ ـ التلقيح بواسطة الريح والنباتات .
٣ ـ فلق الذرة أثبت زوجية الأشياء .
٤ ـ العالم الأكبر مطوي في وجود الإنسان .
٥ ـ الجاذبية العامة سبب حفظ الكائنات .
٦ ـ سخر البحر للبشر .
٧ ـ الأنعام خلقها لكم .
٨ ـ الإستدلال على مبدأ الحق تعالى من النطفة .
٩ ـ يا من في السماء عظمته .

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزواج خلقها من الأرض

﴿ سُبْحَانَ الّذي خَلَقَ الأزْوَاجَ كُلّهَا مِمّا تُنْبِتُ الأرْضُ وَمِنْ أنْفُسِهِمْ وَمِمّا لا يَعْلَمُون * وَآيةٌ لَهُمُ اللّيلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النّهَارَ فإذَا هُمْ مُظْلِمُون وَالشّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقرٍّ لَهَا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيْم وَالقَمَرَ قَدّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيم . ﴾[1]

هذه الآيات هي في بيان شواهد القدرة والحكمة ، وكذلك معرفة الله ومعرفة المعاد ، والعلم بالقدرة والحكمة ، الإلهيين .

﴿ سُبْحَانَ الّذي خَلَقَ الأزْوَاجَ ﴾ ظاهر الآية يعني : منزّهٌ ومجرد عن أي عيب ونقص ذلك الإله الذي خلق الأزواج مما ينبت من الأرض من أنواع النباتات ومن أنفسهم من نفس تلك الأزواج ومما لا يعلمون حتى الآن لم يبلغه إدراك البشر . القدماء من المفسرين كانوا يؤولون الأزواج ويأخذونها على أنها بمعنى الأصناف والأنواع . الأصناف والأنواع هكذا قد خلقها . بعض آخر يقول : تركيب جوهر وَعَرض المادة مع الصورة .

---

(١) سورة يٰس : الآية ٣٦ .

التلقيح في النباتات بواسطة الريح والحشرات

هذه التعابير هي على أثر عدم العلم بغرض نظام الخلق المهم الذي كان الإنسان إلى الآن غير عارفٍ به وهو مسألة تزاوج الكائنات . في السابق في غير الحيوان كانوا يعرفون أن النخل فقط فيه ذكر وأنثى ، ولذا يجب أن يلقح الذكر منها الأنثى حتى تحمل وتثمر تمراً ، ولكن مؤخراً صار من المسلم به قطعاً أنه ليس فقط شجرة النخل بل كل الأشجار بحاجة إلى تلقيح . أولاً أزواج : بمعنى أصناف وأنواع ليس صحيحاً بل زوج بالفارسية يعني « جُفْتْ » : أي المذكر والمؤنث . يقال للذكر والأنثى زوجين .

إن الله تعالى يريد في هذه الآية الشريفة أن يُعلن أن نظام الخلق كله زوج ولا يختص ذلك بالحيوان أو بشجر النخل فقط بل في كل الأشجار يجب أن يصل أثر من الذكر إلى الأنثى . الرياح هي واسطة التلقيح(١) فهي تحمل من الشجرة الذَّكَر ذرّات هي السبب في حمل الشجرة الأنثى . ومن بين اللواقح ، الحشرات فهي بحطِّها فوق الشجرة الذُّكَر تأخذ ذرات اللقاح وتوصلها إلى الشجرة الأنثى .

فَلْقُ الذَّرَّة أثبت زوجية الأشياء

﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُون﴾ - ربما يكون إشارة إلى ما علموه مؤخراً عن نظام الذرّة. هذه الذرّة التي كان يقال لها في السابق الجزء الذي لا يتجزأ. . . كانوا يسمونها بائعة الجوهر . . . أخيراً فَلَقَها الإنسان بواسطة الأجهزة العلمية وكشف عنها هذه الذرّة هي الأخرى زوج . فيها فاعل ومنفعل

(١) أرسلنا الرياح لواقح . الحجر/٢٢ .

ألكترون وبروتون . إذاً إحدى المعاجز العلمية للقرآن هي أن الإنسان لم يكن يستطيع أن يصدق أن الأشياء كلها زوج فكيف إذا بلغ الأمر حدّ الجوهر الفرد (الذرّة) ولهذا كانوا يؤولون الأزواج بالأصناف والأنواع ولكن اخيراً إتضحت هذه الحقيقة أنه ﴿ سُبحان الذي خَلَقَ الأزْوَاجَ كُلّها ﴾ الأزواج كلها : أي الأشياء كلها لأن كل شيء هو زوج ﴿وَمَن كُلّ شيء خَلَقْنَا زَوْجين ﴾[1] ومن أنفسهم : فيما يتعلق بالمذكر والمؤنث فإنه يحتاج إلى تأمل وتفكّر كثيرين .

الإمام الصادق (ع) في أحد مجالسه مع المفضّل يذكر هذا الموضوع نفسه أن أمعن النظر في الأعضاء التناسلية وطريقة التزاوج وإنعقاد النطفة فكلما زاد التأمل كلما زادت الدهشة .

الليل آية الله ومنافع كثيرة

﴿ وآيَةٌ لَهُم اللّيل نَسْلُخُ مِنْهُ النّهارَ فَإذا هُمْ مُظْلِمُون ﴾ أمعنوا النظر في الآيات وشواهد القدرة الإلهية . مما يحصل في الليل والنهار ؟ إستناداً إلى الحسّ يحصل من حركة الشمس حول الكرة الأرضية وإستناداً إلى الواقع من حركة الأرض الوضعية حول نفسها ، (٢٤) ساعة يحدث الليل والنهار . إنتبهوا إلى دقائق الأمور هنا : ﴿ وآيَةٌ لهم اللّيْلُ ﴾ إذا ما حلّ الليل يُذهب بالنهار لكي يكون آمناً وراحة للكائنات ، يستريحون ببركة ظلمة الليل . « نسلخ » قال بعض المفسرين : إنها بمعنى « نخرج » لأنه جاء بعدها « منه » وإذا كان السليخ يعني النزع يجب حينئذ استعمال « عن » إذاً يصبح المعنى « نخرج منه النهار » أخذنا الضياء ونأتي بالظلمة . . . أخذنا ضياء الجو جاءت الظلمة ﴿ فَإذا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ لو لم تكن تلك القدرة القاهرة تحرّك الكرة الأرضية لظل النهار مثلاً نهاراً دائماً ولما

---

(١) سورة الذاريات : الآية ٢٩ .

حصلت تلك المنافع التي لليل ، ثم لو أن الشمس بقيت مشرقة لمدة (٢٤) ساعة مستمرة فوق منطقة واحدة لكانت أحرقتها بنحوٍ من الأنحاء .

الشمس باتجاه مستقرها نجم فوغا (Voga)

﴿ والشّمسُ تَجْرِي لِمُستَقَرٍ ﴾ قال البعض « لمستقر » تعني « إلى مستقر» . الشمس هي في حركة دائبة لا هذه الحركة التي نشعر بها تدور حول الأرض خلاف الواقع . إن الشمس تتجه بمنظومتها كلها إلى كوكب عظيم يسمونه « نسر » ومؤخراً أسموه « فوغا » . وعندما تصل إلى ذلك الكوكب يصل عمر المنظومة الشمسية إلى نهاية المستقر أي مستقر الشمس وهو ذلك الكوكب العظيم وعندها تقوم القيامة في علم الهيئة الحديث قيل أيضاً إن المنظومة الشمسية هي في عمر الشيخوخة ﴿ إقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ عندما تتوقف عن السير . ينتهي نورها مثلنا نحن عندما يبلغ عمرنا نهايته ، تنتهي آثار الحياة . هذا السير ليس أبدياً حتى تصل الشمس إلى مستقرها . ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَليم ﴾ .

﴿ وَالقَمَرُ قَدّرْنَاهُ منازِل ﴾ («٢٧» منزلاً) للقمر . تابعوا سير القمر ليلاً بليل .

كتب الزمخشري في (ربيع الأبرار) في شرح الصحيفة ينقل عنه : كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر قام الإمام السجاد (ع) أثناء السّحر للتهجّد جعل يده المباركة في وعاء الماء للوضوء رفع رأسه فوقفت عيناه على القمر ، فبقي رأسه مرفوعاً هكذا إلى أن قال المؤذن : الله أكبر[1] .

« يامن في السماء عظمته » أنظر عظمة الله تعالى في السموات . الجبال العظيمة خاصة إذا ضُمّت إليها الإكتشافات الجديدة إنها بحق مدهشة .

---

(١) ﴿ إنّ في خَلْق السّموات وَالأرضِ واخْتِلاَفِ الليْلِ والنّهارِ لآياتٍ لأولي الألْبابِ ﴾ آل عمران/ ١٩٠ .

العالم الأكبر مطوي في وجود الإنسان

إشارة إلى تطابق الآفاق والأنفس : بقول علي (ع) :

أتزعم أنك جرم صغير وفيك إنطوى العالم الأكبر

أتظن أنّك جثّة صغيرةبينما فيك إنطوى العالم الأكبر . إن كل ما هو موجود في العالم الخارجي موجود في النفس الأنسانية . في وجود نفس الإنسان هناك نهار ، وهناك ليل وإليكم أمثلة على ذلك :

الجاذبية العامة سبب حفظ الكائنات

﴿ لا الشَّمْسُ ينبغي لَهَا أن تُدْرِكَ القَمَرَ ﴾ :أمعن النظر في نظام الليل والنهار وأنت في السنة الخمسين من عمرك هل تغيّر الليل والنهار في نظامهما . دون أن يخرجا ولو لدقيقة واحدة عن نظامهما أسرع أو أبطأ من المقرر، لا الشمس تغلب على القمر ولا القمر يغلب على الشمس، جاذبية الشمس العظيمة التي تجذب الكرة الأرضية وغيرها عن بعد ملايين الفراسخ ، كوكب القمر مقهور للكرة الأرضية والتعادل في هذه الكرة ومدارها قد وجد لماذا ؟

الأهلة من أجل التاريخ القمري

في الليلة الأولى يكون القمر كالخيط ، يكون هلالاً . الليلة الثانية يصبح ضعفين وحتى الليلة الثالثة عشرة والرابعة عشرة حتى يظهر القرص كلهِ ، منذ الليلة السادسة عشر فما بعد يتناقص ، وحتى الليالي الأخيرة من الشهر حيث يصبح ـ كما هو مصطلح عليه ـ محاقاً يختفي القمر حتى يُعرف بذلك حساب أيام الشهر[1] .

---

(١) ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَاب ﴾ يونس/ ٥ .

﴿ كَالعُرْجُونِ القَدِيم ﴾ : جريد النخل في القسم المقوّس منـه يكون أصفر اللون هزيل كذلك أنظروا إلى القمـر في آخر الشهـر تروَن أنـه يتجه إلى الزوال .

كأواخر أعـمارنا أنـا وأنت . إن التوبـة ذات قيمة في الـوقت الحاضر وليس عندما لا يبقى هناك أمل في الحياة .

في الجسم والروح

في الجسم : المفسّر (الطنطاوي) يشرح ذلك جيداً . نظام تـدفق الدم في كـل الجسم ، من أمّ الرأس وحتى رؤوس أصـابع الأقـدام تـدفق الـدم متصـل بالقلب يصفى فيـه ويتدفق الـدم النظيف في العـروق ، ويصل إلى كل أجزاء الجسم ، ولكن إلى أي مكان يصل فيه الدم يأخذ الدماء المتلوثـة ويصبهـا في القلب وتصفى . إنّ نصف الجسم فيه عـلى الدوام دم أسـود ، ونصفـه الآخر فيـه دم نظيف . كـل دقيقة تتكـرر هذه الـدورة الدمـوية في الجسم ١٦ مـرة . الدم الأسـود هو بمثـابة الليـل والنظيف منـه هـو بمثـابـة النهار .

نهار الروح ذكر الله وليلها الغفلة

إن روحك هي الأخرى ذات ليـل ونهار ، ليلها الغفلة عن الله . . . مـظلمة هي لاتـرى الحق ، والحقيقة والـويـل ، إن كـان ذنبـاً فهـو ظلمات مطلقة كالليل الغـائم تمامـاً[1] كما أن نهارهـا هو ذكـر الله . إن تلك الحقبة الزمنية من عمرك التي قضيتها بذكر الله تكون منيرة .

عند الموت يتضح هذا الأمر ، حقيقته تتضح فيما بعد . الويـل لذاك

---

(١) ظلمات بعضها فوق بعض النور/ ٣٠ .

الذي يصل ليله بيوم القيامة فإن أخلاقه الذميمة ، وعقائده الباطلة ، تضيّق عليه إلى حدّ أنه كما يقول القرآن الكريم : ﴿ إذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراهَا ﴾[1] : بينما يأتي في مقابل ذلك : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيدِيهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ .

محمد (ص) الحق ، وأبو جهل الباطل

الشيخ (الشوشتري) ـ رحمة الله عليه ـ قال في هذا المجال إن كل ما هو موجود في العالم الصغير أي وجود نفس الشخص يقول : في وجودك محمّد موجود وأبو جهل موجود ، في وجودك هابيل وقابيل موجود ، ويعطي لذلك تطبيقات جميلة . أبو جهلك هو جهلك وغرورك نفسه ، والخضوع للحق في وجودك هو محمّد فإيّاك أن تحكم أبو جهلٍ بمحمد . محمد يعني العدل والحق ، وأبو جهل يعني الظلم والطغيان ، فإيّاك أن تحكم الظلم بالعدل والحق .

الغفلة عن الدين على إثر الشغل الحرام

أحد الرفاق كان ينقل حلماً عن نفسه قال : رأيت إمام الزمان وقد عمِيَت عينه اليمنى أولاً حُلُمُ إمام الزمان غير إمام الزمان الواقعي فما أكثر أن يكون مجرد خيالات وأوهام أو ربما يكون له تفسير. رأيت أنه إن لم أجبه فقد يظن أن في الأمر إمام الزمان ، ولهذا قُلت : هذا إمام الزمان في وجودك ، دينك أعور ، إنه الشغل الحرام الذي تشتغل به ، وهو ليس بشغل صالح ولأقل وأنا على المنبر : لقد أعماك . لهذا ذهب وإستعفى من ذلك الشغل الحرام أحياناً ربما هذا الشخص المسكين يغلبُ جهله عليه يصبح إبن ملجمٍ ثانٍ يسيطر على وجوده الكره والنفور من الحق .

---

(١) سورة النور : الآية ٤٠ .

سخّر البحر للبشر

من بين الآيات الدالة على نعم الله : تسخير البحر للبشر ، رب العالمين جعل البحر بهذا العمق وبهذه الحيوانات المهولة التي فيه . . . جعله مسخراً للإنسان هذا البحر الذي بحق عندما ينظر إليه الإنسان يهوله أمره ، الأمواج وهي تتحرك فيه فعلاً إنه لأمر مخيف ولكنه تعالى سخّره للإنسان حتى يتنقّل فوق الماء للتجارة والسياحة ويطويه ، لقد صنع السفينة ليركبها بقلبٍ قويّ ويبتعد بها في البحر فراسخ عديدة ، يصطاد السمك وغيره ، يستخرج المرجان ، وفي هذه الأيام يستخرجون المعادن من البحر ﴿ **الفُلْكِ المَشْحُون** ﴾ السفينة المليئة بالركاب تعبر فوق الماء .

الجمل سفينة الصحراء والطائرة هي الأخرى من الله

﴿ **وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ** ﴾ : خلقنا لكم من مثل السفينة في البحار ، مثل الجمل الذي هو سفينة البر سفينة الصحراء كما يقول المفسرون الجُدُدْ . هذه الطائرات هي الأخرى من صنع الله ، مثل السفينة : كهرباؤها وبخارها من الله ، الإنسان عليه إكمالها وتركيبها ذكاؤه وقدرته أيضاً الله وهبهما له ﴿ **إن نَشَأ نُغْرِقْهُم فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُم يُنقذون** ﴾ : إذا أردنا نحن فإنا نغرق السفينة بركابها بموجة واحدة . الحافظ هو الله لا السفينة ، السيارة والطائرة هما كذلك سواء في البحر أم في الصحراء أم في الهواء الحافظ هو الله إن هو أراد الإهلاك لا يبقى مجال للنجاة ﴿ **إلاّ رَحمةً مِنّا وَمَتَاعاً إلى حين** ﴾ : إلاّ رحمة منا فالله يحفظها طالما لم يأتِ أجلها .

إذاً فكونوا عقّالاً إذ إنكم مقهورون لله

﴿ **أفلا تعْقلون** ﴾ التعقل الأوّل الواجب على الإنسان هو أن يستيقن

من أمر الإنتكاس هذا أنه مخلوق ، مقهور . إنك ترى بأم عينك أنه تعالى إلى أين أتي بك من المهد ثم بعد ذلك أيضاً أعادك مرة أخرى إلى الضعف . إذاً فاعلم أنك محكوم لآخر هو الذي يمنح قوة الشباب ثم يستبدلها بالشيخوخة ، يمنح القوة ثم يسلبها . ليس الأمر بيدي أو يدك .

مطالب الأمير الثلاثة من الإسكندر :

يذكرون قصة عن الإسكندر أنه قال لأحد أمراء إحدى الممالك التي كان قد أخضعها لحكمه : إبق ملازماً لي فأعطيك كل ما تريد. قال: لي فقط حاجات ثلاث أمّنها لي: الأولى أن تحفظ لي شبابي، قال: أنا لا أستطيع أن أحفظ شبابي بنفسي، الثانية: إحفظ لي عافيتي، الثالثة: إضمن لي بقائي قال : هذه الأمور التي تطلب لا أتمكن منها ولا يتمكن منها أي إنسان ، هذه الأمور مقدورة فقط لمبدأ القدرة إن الأطباء كلهم بجميع الوسائل التي يملكون لا يمكنهم الحؤول دون الموت . إذاً فليعلم الإنسان أنه ليس إلاّ مجرّد عبدٍ مقهور مملوك[1] .

حصّلوا الملكات الجيّدة حتى سن الأربعين

لا تتعقلون من انتكاس عمركم حتى تعلموا أن الجالب والآخذ ، الحافظ ، واهب القوة وسالبها هو هو فقط . دَع قول « أنا أنا » جانباً ، وكما أنك عبدٌ فعلاً لِتَكن سبيلك وطريقتك سبيل وطريقة العبد . نُكتة أخرى ، إنكم لا تتعقلون من هذا الإنتكاس أن العاقبة هي إلى الفناء . بناءً على هذا طالما لم تبلغ حد الإنتكاس جِدّ لنفسك رأس مال ، وتعالى في العمر المتبقي لك ، وجد لنفسك على وجه السرعة نوراً أو مصباحاً نفطياً

---

(١) ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء النحل/ ٧٥ .

آخر أو نفطاً حتى يكون لديك إذا ما انطفأ المصباح الذي يشرف على الإنطفاء ، شيء تستغني به عنه ، طالما العمر لم ينفذ بعد فافعل لنفسك شيئاً ما ، ولهذا قالوا : طالما لم يبلغ سنكم الأربعين فاجهدوا في اكتساب الملكات الحميدة حتى تبلغوا درجات العبودية والعرفان .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوا أنَا خَلَقْنَا لَهُم مِمّا عَمِلَتْ أيْدِينا أنْعاماً فهُمْ لَهَا مَالِكُون وَذَلّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رُكُوبُهُم وَمِنْهَا يَأكُلُونَ وَلَهُمْ فِيْهَا مَنَافِعَ وَمَشَارِبُ أفَلا يَشْكُرُونَ وَاتّخَذُوا مِنْ دُونِ الله آلِهَةً لَعَلّهُمْ يُنْصَرُونَ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدُ مُحْضَرُونَ فَلاَ يَحْزِنْكَ قَولُهُمْ إنّا نَعْلَم مَا يُسِرّون وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

الأنعام خلقها لكم

تدبّروا في هذه الآيات الشريفة : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوا أنّا . . . ﴾ أو لم يروا هذا الإنسان الذي أعطاه الله العقل ألا يرى ما خلقنا له مما عملته أيادي قدرتنا ، الملائكة المنتشرون في جميع أجزاء العالم ، ماذا خلقنا أنعاماً هو مالكها ، أولاً كيف خلقنا ثم كيف جعلنا الإنسان مالكاً لها جعلناها مُلكاً له ، هكذا إقتضت قدرة الله وإلاّ فهل هناك غيره خالق للحيوانات . إن المالك الحقيقي لها هو نفسه الخالق لها والله تعالى لو لم يجعلها ملكاً للإنسان لما استطاع أن يستفيد منها ، إن الله خلق الشاة لكي يستفيد منها الإنسان من جوانب عديدة ، لكي يأكل من لحمها ، لكي يستفيد من حليبها وصوفها . ليس في هذا الحيوان حتى عضو واحد ليس فيه فائدة للإنسان . حتى العظام وحتى أظلاف قوائمها يستعمله في صنع الأصباغ المختلفة .

نعمة الركوب والإستفادة من الحليب واللحم والصوف

﴿ وَلَكُمْ فيهَا مَنافِعَ وَمَشَارِبَ ﴾ أيُّ شرابٍ أظرفُ من حليب هذه الأنعام أي منافع أسمى من إمتطائها والإستفادة من لحومها وأصوافها .

﴿ أفَلا يَشكرون ﴾ . . . ألا يجب أن يشكروا . طالما لم يصبح الإنسان عارفاً لقدر النعمة ومنعمها عليه ، فأي فرقٍ بينه وبين الحيوان . إنهم يشتركون فيما بينهم في النواحي الحيوانية من أكل ، ونوم ، وتخلّي ، وشهوة جنسية ، وغضب . في الصناعة ، وغيرها بعض الحيوانات ماهرة أيضاً مع أن ذلك يزول بالموت وهو ليس ذا قيمة خالدة إلا إذا كان ذا هدف إلهي وأخروي . مثلاً يجدُّ حتى يصبح طبيباً يخدم الناس . إذا كان الهدف من ذلك مادياً فأجره هو ذاك . على كلّ كل ما هو إنساني وذي قيمة خالدة بكل معنى الكلمة فهو عرفان بقدر النعمة وقدر المنعم وشكر له .

الطواغيت كانوا يؤلهون أنفسهم متسترين وراء الأصنام

﴿ وَاتَّخذوا مِنْ دُون الله آلِهَةً لَعَلّهُم ينصرون ﴾ :

هذا الإنسان الذي أنعمنا عليه بكل هذه النعم . . . وضعنا في تصرفه الجمل والبقر والشاة ، لتكون مركباً له أيضاً ، الجمل أي مركب هو إنه سفينة الصحراء . بدل أن يكون الإنسان أكثر عرفاناً لله وشكراً له . . . بدل أن لا ينسى الله ينحت لنفسه بدل رب العالمين آلهة وهمية، وفي رأس آلهة الباطل ، طواغيت الزمان حتى يقال إن عبادة الأصنام في الأذهان تتجه إلى الصنم الحجري والخشبي . الحقيقة هي أن هذه الأصنام هي درع للطواغيت . إن الطواغيت كانوا يؤلهون أنفسهم متسترين وراء الأصنام وهي ومعابدها لم تكن إلاّ مجرّد عُذر . في زمن فرعون كانت الأصنام وعبادتها منتشرة بكثرة وهو كان يستغفل الناس بصفة إله الآلهة .

كل الجبابرة هكذا ! الشرك كله في مواجهة الله . كل ما يطلبه الله من الناس يطلبه الطواغيت منهم والله سبحانه وتعالى طلب من الإنسان أن يطيع أمره . . . . أن يقبل بكل ما أمر به ، والسلاطين أيضاً هم هكذا . الأمر الملوكي في مقابل أمر الله . ﴿ لَعَلّهُمْ يُنْصَرُون ﴾ رجاء أن يُعانوا .

الجيوش المجهزة ليست لها القدرة على المعونة

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحضرون ﴾ الذين يميلون إلى غير الله رجاء معونتهم فإنهم لا يملكون القادرة على المعونة ، إنهم جَيْشُكُم المحضر ولكن لا يمكنهم فعل شيء ، كالثورة الإسلامية في إيران حيث عدة آلاف من المستشارين الأمريكيين مع كل هذه الأسلحة الحديثة ، جيش مؤلف من نصف مليون جندي مجهزون للحفاظ على سلطنة (محمد رضا) للمحافظة على منافع أمريكا، ولكن عندما يريد الله لم يعد ينفعه كل ذلك . مع أن هذا الجيش جاهز للخدمة مساند للإمبريالية إلّا أنه لا يملك قدرة معونة (بهلوي) .

﴿ فَلَا يُحْزِنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّون وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ :

إذا كان الكفّار يلدغون فلا تجعلوا للحزن سبيلاً إليكم . فيما يتعلق بالوحدة فإن الكفّار يحاولون ضربها ولكن المؤمن يجب أن يكون قلبه مطمئناً بالله . يجب أن يكون قوياً . في هذه الثورة ولكي يضعفوا روحية شعب إيران يهدّدوا ويذيعوا الشائعات ، كل يوم يثيروا الضجّة في مكان ، ولكن المؤمنين قلوبهم قوية بربهم ، فذلك الإله الذي أوصله إلى هنا إذا رأى مصلحة فإنه سيبلغه نهايته . إنتصار الثورة الإسلامية في إيران لم يكن فعل أشخاص فهو كان خارجاً بالكامل عن مسيّر الأسباب ولهذا كما أن بدايته كانت أملاً ورجاءً بالله كذلك في الوقت الحاضر وفي المستقبل يجب أن تكون كذلك .

أللهم أنصر الإسلام والمسلمين ، واخذل الكفّار والمنافقين ، واشغل الظالمين بالظالمين ، واجعلنا بينهم سالمين غانمين .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فإذا هُوَ خَصِيمٌ مُبين ﴾

فوائد تذكّر أصل خلق الذات

القرآن ، في عشرات المواضع منه ، ذكّر الإنسان بأصل خلقه وتكوينه وأمر الإنسان أنه لابد له من النظر في هذا الأمر. يقول : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإنسانُ مِمّ خُلِقَ* خلِقَ مِن ماءٍ دافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنَ الصُّلْبِ والتَّرائِب﴾[1] وفي موضع آخر يقول : ﴿ أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسانُ أَنّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيئاً ﴾[2] . على الإنسان أن لا ينسى مم خلق . إن التدبر في أصل الخلق هو أولاً لكي يستدل إلى المبدأ تعالى ، وثانياً لكي يستدل على المعاد ، والفائدة الثالثة هي : إصلاح حاله . وهو يُلزم الإنسان بالقضاء على الصفات الحيوانية والجهل والغرور والكبر والأنانيات فيه .

الإستدلال على المبدأ تعالى من النطفة

أما جانب الإستدلال على المبدأ تعالى ، إذا ما تدبّر العاقل ورأى النطفة، هذه القطرة المنتنة قد انعقدت ، وأيُّ تشكيل قام به الله المصوّر من قلب ، وكبد ، ومخ وسائر أجزاء الجسم الأساسية ، ومن ثم تشكيل العظام وغيرها . كل يتم ولكن في أي شيء ؟ في السائل والمكان المظلم غير المستوي وبتعبير القرآن : ﴿ في ظُلُماتٍ ثَلاث ﴾ الرّحم ، والمشيمة ، والبطن . هل يمكن أن يحدث هذا كله بنفسه دون قدرة تفوقه ؟ هل حدوث الحادث دون مُحدث مقبول من قبل العقل ؟ إنه كلّما تدبّر أكثر كلّما أدرك علم الله وقدرته أكثر .

إذاً فالمعاد هو الآخر يجب أن يكون

فيما يتعلق بجانب المعاد أيضاً بعد أن ينتبه الإنسان أن النطفة التي

---

(١) سورة الطارق : الآية ٥ـ٨ .

(٢) سورة مريم : الآية ٦٧ .

هي في البداية موزّعة . . . النطفة التي تخرج من مجرى البول هي : عبارة عن مجموعة من السوائل المنتشرة في جسم الإنسان وتجمع ذرّات هذه السوائل بقدرة في أوعية المني ، ولهذا عندما تخرج النطفة يعرض الضعف على الجسم كلّه .

في إحدى الروايات يسأل أحدهم الإمام (ع) : لماذا في البول يكفي تطهير المحل والوضوء بينما في خروج المني يجب غسل الجسم كلّه ؟

يجيب عليه السلام : لأن قطرات المني تؤخذ من الجسم كلّه .

أيضاً في مستوى آخر كانت موزّعة ومتفرقة لأن النطفة تتكوّن من الغذاء إذ إن الطعام الذي يتناوله الإنسان يتم إخلاء جزء منه على شكل سائل منوي . فالطعام ماذا كان ؟ كان أرزاً ، وقمحاً ، وخضاراً موّزعة في الأرض . الذرّات المتفرقة يتمّ جمعها وتظهر على شكل أرز وقمح . دخلت جسم الأب . تفرّقت ثانية ومن ثم جُمعت على شكل مني في المجرى . بناءً على هذا تكون قد إجتزْتَ مرحلتين من التفرق والتجمع في مسيرة وجودك . بعد الموت أيضاً يتفرّق الجسم مرة أخرى . ثم هل بعد هذا كلّه تعجب لجمع الله إيّاك للمرة الثالثة ؟

﴿ أوَلَم يَرَ الإنسان أنّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفةٍ ﴾

في الآية التالية أيضاً يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسيَ خَلْقَهُ ﴾ . نسي خلقه ولهذا يقول متعجّباً : كيف يجمع الله تعالى العظام الرميمة ؟!

تذكر البداية والنهاية يُزيل الكبر

الفائدة الثالثة لتذكّر أصل الخلق : صلاح حال الشخص نفسه. فبعد أن يلتفت إلى أنه قد خُلق من قطرة منتنة ينفر منها الجميع . إن بدايتنا

جميعنا هي بداية قذرة ، ومتعفنة ، ومنتهانا أيضاً جيفة هامدة ، والآن أيضا فينا القذارات والأوساخ فلماذا إذاً الكبر ؟

إن من جملة الصلاح الذي يطرأ على الإنسان ببركة التذكّر ، التسليم لله ولكل حقٍ كان . عندما يفكر أنه كنت في البدء قطرة منتنة وما فعل الله بهذه القطرة وهبها العين ، والأذن[1] ، واللسان ، واليد ، والرجل ، يتذكر نعم الله العظيمة ، ويكون شاكراً لنعمته تعالى . فيما لم تصبح أصماً لا تدرك السمع أيُّ نعمة هو وهكذا سائر النِّعم . إنْ الله الذي تحنّن عليك بكل هذه النعم كم يجب أن تكون مستسلماً في مقابله ؟ إن الذي يغفل عن هذه الحقيقة، خصومته الأولى تكون مع إلهه هو بالذات . بل هو ينكر الله . ﴿ فإذا هُوَ خَصيمٌ مبين ﴾ عدوّ واضح . أيها الغافل عن أصلك الأوّل ، يقول : إنا موجود ، الله ليس موجوداً . كم يصبح بلا إحساس يخاصم ويجادل لأنه لا يتفكّر وإلاّ لصار شكوراً لا خصماً ، عليه أبداً أن لا ينسى عجزه الأوّل حتى لا تعرض له هكذا حالة « فإذا . . . » التجبّر نتيجة الجهل والغفلة . لقد ذكر من أمثال العرب في تفسير (روح البيان) .

أُعَلّمهُ الرِّمايةَ كلَّ يوم فلمّا اشتدّ ساعدُه رماني

أُعَلّمه القوافي كل حين فلمّا قَالَ قافيةً هَجَاني

ويضرب أيضاً مثالاً سوياً :

لَقَد رَبّيتُ جَرواً طول عمري فَلَمّا صَار كلباً عَضّ رِجلي

حال الإنسان هكذا . الإنسان الذي لم يكن يملك شيئاً أعطاه الله كل شيء هو الآن يصبح منكراً لله ، يرفض المنعم ، يعترف بنفسه فقط ويقول بنفي المسؤولية عن نفسه ، ليس له شغل بالخالق والمنعم ، لا يقر بمسؤولية ، له ارتباطه بالله ، أي أن قيومية الله ينساها ، يقول بالإستقلال لذاته وهو كفر بحد ذاته ، يستسلم للحق .

---

(١) ﴿ إنّا خَلَقْنَا الإنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ الدهر/١ .

﴿ أوَلَم يَرَ الإنسان أنّا خَلَقْنَاهُ مِن نُطفةٍ فإذا هو خَصيمٌ مُبين وَضَرَبَ لَنَا مثلاً وَنَسيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْييها الّذي أنشأهَا أوّل مرةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خلْقٍ عَلِيمٌ الذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشّجرِ الأخضرَ ناراً فإذا أنتُمْ مِنْهُ تُوقدون ﴾ .

الرؤية بالعقل والقلب أهم

﴿ أوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أنّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ . . ﴾ يرى من الرؤية وبالرغم من أنّ ظاهرها يعني الرؤية بالعين إلاّ أن المراد هنا هو الرؤية بعين العقل التي هي أهم وأقوى من الرؤية بالعين الظاهرية . إن الإدراك عن طريق الحس قد يخطىء فأخطاء البصر كثيراً ما تقع ، ولكن المهم هوالعلم فإذا ما وقعت العين على شيء ما ، وأدّى ذلك إلى حصول العلم فذلك هو الصحيح . كثيراً ما يحدث أن تكون أمام عيني الإنسان أشياء عديدة ولكنه لا يدركها . لقد جرّبتم ذلك . إنكم لا تلتفتوا لأن فكركم يكون في مكان آخر .

إذاً فالرؤية بالعين تكون ذات قيمة عندما تؤدي إلى الإدراك والعلم مع هذا كثيراً ما يحدث أنْ يخطىء . فعندما تدار النار بحركة دائرية فإنكم ترون دائرة في الوقت الذي لا توجد في الواقع إلاّ تلك الجذوة من نار والدائرة إنما حدثت وشاهدتموها نتيجة للسرعة الفائقة التي أديرت بها هذه الجذوة .

إذاً المهم هو الإدراك بالإفهام و« أَلَمْ يَرَ الإنسانُ » تعني « ألم يعلم » . ألم يعلم علماً قطعياً أن هناك ما هو أسمى من الإدراك الحسي أنا خلقناه من نطفة ثم هو يجادلنا ويخاصمنا ويضرب لنا الأمثال يَفُتُّ العظم الرميم ثم يقول : من الذي يعيد إحياء هذا العظم الرميم ؟

جزئيات الجسم ليست خارجة عن علم الله

﴿قُلْ يُحْيِيها الّذي أنشأَهَا أوّل مرّة﴾ قل ذلك الذي أوجدها أوّلاً أوجده من العدم يخلقها مرة ثانية فهل الثانية أصعب ؟ في المرة الأولى حتى إنه لم يكن هناك جزيئات عظم فإذا قيل إنّ هذه الجزيئات موزعة في أماكن عديدة . يجيب : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَليم ﴾ كله محفوظ في علم الله . في الآية التالية نظراً لعظم قدرته تعالى فإنه يذكر بياناً لطيفاً : في كل موردٍ يحدثُ بشأنه إستعجاب إذا تُذكّرت قدرة الحق اللامتناهية يصبح سهلاً لأنه يريد أن يقيس وضع الله تعالى من باب صغره هو ، وعلمه وقدرته هو ، وهذا خطأ . إعادة خلق التراب المتآكل تقيسها بالقدرات الجزئية ، وتقول : محال ذلك ، ولكن قِسْ بالنسبة إلى قدرة الله ، فإنها لا تكون شيئاً يُذكر ، فذلك الذي خلقها ابتداءً يخلقها مرة أخرى .

إضرام النار بحطب الشجر الأخضر والرطب

إن الله أوجد لكم من الشجر الإخضر الرطب ناراً . الماء والنار أحدهما ضدٌّ للآخر ولكن يد القدرة جمعت الماء والنار مع بعضهما البعض دون أن يقضي الماء على وجود النار ، أو النار على وجود الماء ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشّجَرِ الأخضر ناراً ﴾ المفسرون عامةً قالوا : هي إشارة إلى شجرتين موجودتين في جزيرة العرب هما شجرة الصفصاف والأخرى شجرة « عقار »[1] إذ إن لهما هذه الخاصية فهم عندما يجعلون قطعتين منهما تحتكان ببعضهما البعض فإن النار تتولّد منهما .

لقد كانوا يستعملون هاتين الشجرة مكان الكبريت ، وكانوا يولّدون النار وذلك عن طريق حكّ إحداها بالأخرى .

---

(١) إسم شجرة في الجزيرة العربية .

﴿ فإذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدون ﴾ ففي السابق لم يكن هناك كبريت لقد كان حجر الصوان وهاتين الشجرتين كبريت ذلك الزمان . بشكل عام كل الأشجار يتواجد فيها الماء والنار متلازمين بنسب مختلفة المواد المولّدة للنار موجودة في الكل . طبعاً بروز النار يكون بعد التغلب على رطوبتها إما إنها تيبس وإمّا بواسطة الشمس ومع مجاورة اللهب للشجرة يتغلب على الماء وتشتعل .

إذاً ما فسّره المفسرون بشجرة الصفصاف و« عقار »[1] الظاهر أنه باعتبار الشيوع والظهور وسيلة كبريت في ذلك الزمان وإلا فإن هذه الخاصية موجودة في كل النباتات . ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ بِقَادِرٍ على أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الخَلَّاقُ العَليمِ ﴾ : أوليس الذي خلق نظام الخلق العظيم خَلَقَ الكواكب التي لا تعد ولا تحصى بقادرٍ على أن يخلق مثلهم (أي بعدد أفراد البشر) آلاف المجرات التي في كل واحدة منها آلاف الكواكب التي يجب أن يحدّد المسافة الفاصلة فيما بينها بالسنة الضوئية .

يا من في السماء عظمته

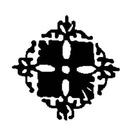
في رواية عن الإمام الرضا (ع) : أنه قال : ما خلق الله تعالى في الأرض هو قطرة بالنسبة للسماء الأولى ، وما هو في السماء الأولى بالنسبة إلى السماء الثانية كالقطرة إلى البحر ، في جنب السماء الثالثة ، وهكذا حتى السماء السابعة في مقابل العرش و . . . هل يستطيع الإنسان أن يحصي عدد جموع النمل في محلّة من المحلات ؟ جاء فيما يتعلق بالبيت المعمور أن الله تعالى يخلق كل يوم سبعين ألف ملك يدخلون البيت المعمور ويخرجون منه ، ثم لا يدخلون بعدها ثانية إلى يوم القيامة . إن الله عليم بمخلوقاته .

---

(١) إسم شجرة في الجزيرة العربية .

يقـول في (نهج البلاغـة) فوجٌ من المـلائكة هم دائـماً في حال قيـام وفوجٌ في حال ركـوع وفوجٌ في حـال سجود ، مجمـوعة في بكـاء من قوة الله « وهـو الخلاق العليم » كثـير الخلق ، مخلوقاتـه هو نفسـه يعـرفهـا وأوليـاؤه العظام وإلاّ فالآخرون لا يقدرون على إحصائها .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . .



محتويات الكتاب